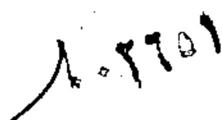


الغـــزل عنـــد الشعراء السود

رسالة أعدت لنيـــل شهادة الماجستير في اللغـــة العربيـــة وآدابهـــا



تحت اشراف الاستاذ الدكتور

أسعد علـــي

بمعهـــد الآداب الشرقيـــة في الجامعـــة اليسوعيـــة ـــ بيروت



اعداد الطالبة فوزية زدباري



المقدمة

ولد موضوع البحث شرارة من فكرة .. وفكرة من عشرات كانت تزدحم وتتضارب وتدور في رأسي ، الى أن استقرت عند " الغزل عند الشعراء السود " .

فلمَ الغزل ؟ .. ولمَ الشعراء السود بالذات ؟ وهل هناك قضية تميز عنصري كما قيل لي أكثر من مرة ؟ ...

هذه تساؤلات ربما كانت تحمل في مضمونها مفتاح الاجابة ، بل ربما قادتنا الى سبب اختيار هذا الموضوع ..

فالغزل كما عُرِّف، هو محادثة النساء والتشبيب بالشعر هو " ترقيق أوله بذكر النساء " (١) . والمرأة كانت ولا زالت موضوعا يستحق الدراسة ، لا سيما اذا كانت هذه المرأة ملهمة الشعراء في حلّهم وترحالهم ، في أفراحهم وأتراحهم . ولا سيما اذا كان هؤلاء ممن أثارت المرأة كوامن قلوبهم ، وأرثت ما خمد من ذكرياتهم الحزينة أو المفرحة وللمرأة - كما سنرى في هذه الدراسة - تأثير في حياة هذه الفئة من الشعراء وصفت بلونها الموروث عن أبوين حبشيين أو نوبيين ، أو من جهة الام فقط ، فكان هذا الارث سببا في خضوعهم لظروف واحدة ، ظروف عصبية هزّت مشاعرهم بعنف ، كما هزّت كيانهم فباتوا تحت تأثيرها جماعة " سوداء " تصلح للخدمة أكثر من صلاحها للحياة الاجتماعية وكان هذا من أبرز الاسباب التي دفعتني الى اختيار هذه الفئة، لا سيما ابراز موقفهم من المرأة ، المرأة الحبيبة .

واذا ما اعتبرنا أن الغزل وسيلة من وسائل التعبير عن الحب بين الرجل والمرأة ، وصورة من صوره الأكثر تأثيرا في النفوس فسنراه عند الشعراء السود صورة واضحة عن حياتهم بوجهيها القاتم والمضيء ، وكانت هذه الصورة من الاسباب التي دفعتني نحو دراسة اشعارهم الغزلية ، فكان هدفي اماطة اللثام عن شخصياتهم ، وعن الظروف المحيطة بهم ، ثم الكشف عن ثروتهم الشعرية التي خلفتها تلك الظروف . وكان منهج الوصول الى ذلك كله ، بابين وخاتمة ، فالموضوع الرئيسي لهذه الدراسة وهو الغزل ، لا يمكن معرفة كنهه ومراميه لدى احد الشعراء دون العودة الى حياة ذلك الشاعر الشخصية والاجتماعية ، ثم الظروف المحيطة بذلك كله ، لذلك جعلت الدراسة في بابين كان الاول منهما دراسة تاريخية لحياة الشاعر ، والثاني دراسة لشعره

---

(١) لسان العرب : ١١ / ٤٩٢ .

عموما والغزلي خصوصا ، ممهدة بمقدمة تلقي الضوء على اجواء الدراسة ومحتواها منذ ولادة الشاعر حتى وفاته ، مرورا بالاحداث المؤثرة في حياته .

فالباب الاول : كان مقدمة تاريخية لا بد منها للتعرف على الشاعر الاسود وحياته من خلال التعرف على قبيلته ، مولده ، نسبه ، سيرته الذاتية ، شعره ، ثم شخصيته ، ومن خلال ذلك كله كنت ألمس تبادل التأثر والتأثير بين هذه الظروف وبين شخصية الشاعر الاسود ، الامر الذى دعاني الى التفصيل في الكشف عن شخصياتهم ومجتمعهم .

ففي الفصل الاول : تناولت شعراء الحقبة الجاهلية ثم المخضرمة، كعنترة، سحيم، خفاف، وعبدة بن الطبيب من الذين عاصروا تلك الفترة ، وكان لهم مواقف مشهودة بغض النظر من ايجابيتها أو سلبيتها ، ولان لهم تراثا شعريا حمل عواطفهم كلها ، ليست عواطف الحب والعشق فقط ، وانما عواطف تعبر بمجموعها عن طلب الحياة الكريمة ، وتطمح الى تحقيق نوع من المساواة والعدل وتكافؤ الفرص في مجتمع كانت تحكمه العصبيات القبلية ، والطبقية ، اذ لم يكن من السهل على كثير منهم الاذعان للامر الواقع وتقبله على ما فيه من اجحاف وظلم بحق طبقة او اكثر من طبقاته .

لقد عاش الشاعر الاسود في ظل الجاهلية عبدا وربيب أم أمة وأب عبد .. فكانت العبودية تلاحقه من كل جانب حتى حين كان أبوه من الاشراف ومن ذوى النسب الصريح ، كان هو عبدا غير معترف به يصرّ ويرعى الابل ، ولم يكن لتشفع له شجاعة ولا شاعرية ولا خلق كريم . وبمجيء الاسلام واعلانه الثورة على المجتمع الجاهلي ، رفع الشاعر الاسود رأسه ، محاولا تنشق هواء الحرية التي جاءت بها تعاليم الدين الجديد ، ووقف بقوة الى جانب الدعوة ، وحمل السيف في مواقعها ضد الاعداء ، حتى أن بعضهم كان من صحابة الرسول الذين شهدوا فتح مكة كما شهدوا حنينا والطائف (١) ولكن .. رغم ذلك كله ، لم تستطع آثار الجاهلية تنزع الفضل والحقد نزعا تاما من نفوس السادة ضد العبيد . وانتقلت بعد ذلك الى الفصل الثاني الى الحديث عن شعراء العصر الاموى من السود ، وخصصت بالذكر نصيبا لانه الشاعر الاسود الذى ظهر في ذلك العصر وخاض اكثر من تجربة مع المرأة ولا سيما المرأة البيضاء ، وفشل في أكثر من تجربة منها ، وسواده وعبوديته كانتا دائما من وراء ذلك الفشل .. وقد تحدثت في هذا الفصل عن نسب نصيب وسيرته وشعره ، وأظهرت من خلال ذلك معالم انسانية توجت شخصية هذا الشاعر العبد الذى ولد من ابوين نوبيين ، وانطلق في رحاب

---

(١) انظر ص ٢١ من الدراسة .

الشعر يحدث نفسه بآمال عريضة ، فحمل شاعرية مكنته من الدخول الى عبد العزيز بن مروان، كما رفعته الى مصاف ندمائه لولا ان اعتذر هو نفسه عن ذلك متعللا بسواد لونه ووضيع نسبه ، ورغم الصعوبات التي لاقاها في طريقه الى الخليفة ، ورغم السخرية والهزء اللذين كانا يلاحقانه في تحركاته كلها حتى العاطفية منها ، استطاع ان يحقق شيئا من آماله فيحرر أمه واخته والكثير من اقاربه . وبما ان تأثير انعكاسات التيارات السياسية للعائلتين الاموية والعباسية قد اخذ في الظهور بين الشعراء عموما وشمل الشعراء السود ، فقد تناولت في الفصل الثالث الشعراء المخضرمين للدولتين المذكورتين هؤلاء الشعراء الذين عطوا خلافات العائلتين الحاكمتين الى جانب مشكلاتهم الشخصية الناتجة عن الوانهم ولسبهم . فمنهم من وجدناه مواليا لاحد الطرفين منقطعا اليه معاديا لاعدائهم كسديف بن ميمون الذى انقطع الى العباسيين ، وجند لسانه للدفاع عن حقهم في الخلافة ومهاجاة الامويين بشكل ساخر وقاتل حتى اتى على البقية الباقية منهم .. ومنهم من تذبذب بين الطرفين فلم يحدد هويته السياسية كأبي عطاء السندى وأبي نخيلة ، اللذين وقفا بين صفوف الامويين أول الأمر ، ثم اندسا بين صفوف العباسيين ، يقودهما في ذلك آمال التكسب والاعطيات . اما الشاعر الذى تفرد بشخصيته ، واختط لنفسه طريقا لم يسلكه غيره من شعراء طبقته ، وجعل نفسه وعائلته أساس اللعبة لعبة الاحتيال على الواقع الاليم بالسخرية والتهكم والحيلة ، فكان زيد بن الجون " أبو دلامة " لقد فتح عينيه فلم ير غير نسب وضيع وسواد مزر لحقه ولحق عائلته ، ولم ير من سعة العيش ما يستطيع ان يسد رمقه ورمق من كان مسؤولا عن معيشتهم ، ولم يجد - حين ذاك - بدا من انتهاج اسلوب يؤمن له موردا من اعطيات القصر مقابل مزيد من التظرف والدعابة فبين الجد والهزل قضى اغلب ايام عمره ، وبين الجد والهزل قضى وطره منها .. ومذهبه في ذلك " اليوم خمر وغدا أمر " .

والفصل الرابع : أفردته لمجموعة من الشعراء السود الذين عاشوا خلال العصر العباسي وما بعده . فلقد توصل اثنان منهم ، وهما ابراهيم المهدى واحمد الرشيد الذسائي الى سدة الحكم ، وفرضا بذلك محذورا لم يكن من السهل تقبله في مجتمع كانت ما تزال تعصف به رياح العصبيات رغم ان واحدا منهما كان ينتمي - من جهة والده - الى السلالة العباسية الحاكمة ، وهو ابراهيم المهدى . لكن هذا المكسب المعنوى الذى حققاه للسود كان وبالا عليهما في نهاية المطاف فانتهى الامر بالاول الى الهرب وبالثاني الى القتل والتمثيل به .

أما نصيب الاصغر مولى المهدى ، فلم ير افضل من التكسب طريقا يستطيع منها الولوج الى حياة معقولة لبقيته بأن يديه صفر من الصبا والجمال والنسب المرغوبه ولم يكن علي بن جبلة أفضل حالا من نصيب حين زاد العمى ودمامة الشكل والسواد في مصيبته ، فبدأ مادحا للرشيد ثم لأبي دلف العجلي ، ذائقا من النعمة الشيء الكثير ، وانتهى مقتولا ومن بعد القتل تمثيل .

الباب الثاني : " الغزل عند الشعراء السود " ، وهو الموضوع الاساسي الذى تفرعت عنه قضايا فرعية اخرى .. فكان لا بد من مقدمة عن ماهية الحب تعتبر مدخلا الى عالم الحب والغزل بأفانينه ، وبينت رأى الفلاسفة في الحب من افلاطون الى ابن حزم وابن داوود ، مرورا بمعانيه كما وردت في معاجم اللغة ، انتهاء الى ابن السراج في مصارع العشاق والجاحظ في رسالة العشق والنساء ، ثم مسيرة الغزل ومكانة المرأة عند العرب عموما منذ الجاهلية .. وعند الشعراء السود خصوصا .. فلقد أحب العربي المرأة منذ عصوره الاولى ، وتغزل بها ، فكان غزله هذا تعبيرا عن ذلك الحب ، وتجسيدا لذاك الاعجاب ، ووسيلة للوصول الى قلبها .. وحتى غدت المقدمات الطللية المدخل الى الموضوعات الشعرية المختلفة ، فاذا ما أراد الشاعر المدح أو الفخر أو الوصف انتقل الى ذلك عبر مقدمة يفرغ فيها شحناته العاطفية من تذكر للاحباب ووصف للديار ثم للحبيبة .

فالفصل الاول ، كان دراسة لالوان الغزل عند الشعراء السود .. ابتداء من الوقوف على الاطلال ومخاطبة الديار وتحيتها ووصفها ، ثم وصف مشاهد التحمل والارتحال الى ان يأتي الشاعر الى وصف الصورة التي رسمها لحبيبته من خلال وصفه لاعضاء جسدها ، الى وصف للجوانب الخلقية المعنوية كابتسامتها وحيائها ومشيتها ثم أثرها النفسي فيه ... واذا ما تحدث عن أثرها النفسي برز الغزل الوجداني خير معبر عن هذا الجانب من المشاعر ، لان الشاعر فيه يقصر حبه على فتاة بعينها ، يبثها لواعج حبه وشوقه فاذا ما تكبرت وشمخت اذعن وخضع ، واذا ما صدت وتمنعت شكى وبكى ... وقد عمدت الى دراسة تجربة السود مع المرأة من خلال غزلهم الوجداني ، لأرى مدى عمقها وفاعليتها وتأثيرها عليهم ، ومن ثم تأثرهم بهذه التجربة وانعكاساتها على حياتهم واشعارهم . وكانت تجربة عنترة هي الغنية في هذا الميدان . فكما وجدنا عنده معينا لا ينضب من شدة البأس والقوة والاخلاق كانت مدعاة للفخر ، وجدنا عنده كذلك معينا لا ينضب من الحب العميق لابنة عمه عبلة ، رغم الظروف المضادة لاستمرارية هذا الحب .

تميز شعرهم بالواقعية ، هذه الواقعية التي ربطت ادبهم بواقعهم ، فكانت اشعارهم صورة ناطقة جلية عنه ، حين عاشوه بتفاصيله كلها ..

وقد اعتمدت في دراستي هذه لغزل الشعراء السود على مصادر ومراجع امدتني بالمادة الرئيسية ، وبالمواد المساعدة ، وساعدت في اظهار الصورة الحقيقية لهذه الفئة من الشعراء فكانت : مصادر قديمة ومراجع حديثة فالمصادر القديمة : أمدتني بالمادة الرئيسية التاريخية الشعرية للشعراء السود . فالتاريخية منها هي التي ساعدت في نسج الباب الاول من الدراسة وهي التي ساعدتني في التعرف على الشاعر الاسود ضمن اسرته الصغيرة ، وضمن مجتمعه الكبير ، ثم حددت موقعه في اسرته وفي مجتمعه ، كما حددت المواقف المتبادلة بينه وبين هاتين الاسرتين .. فعرّفت بشخصية الشاعر الاسود منذ مولده حتى وفاته مرورا بنسبه ، واهم الاحداث البارزة في حياته ، والمؤثرة فيها سلبا أو ايجابا والمصادر الحديثة : وهي التي امدتني بالمادة المساعدة للتعرف على هؤلاء الشعراء وعلى اتجاههم الشعري ، لا سيما الدراسات العلمية في علم النفس والمجتمع والاجتماع ، والتي ساعدت الى حد كبير في الكشف عن الصورة الاكثر اقترابا من الحقيقة لهؤلاء الشعراء . وفي كلا النوعين من المصادر كان بعضها ذا تأثير فعّال في كثير من النواحي .

وجملة القول في هذه المصادر ، سواء التي نقلت اخبارهم وأشعارهم ، أم تلك التي كانت تبحث في النواحي المختلفة لحياتهم انها كانت من القلة بحيث كانت تتطلب جهدا مضاعفا لجمع بعض المعلومات اللازمة للبحث ، لا سيما في مجال عدم توفر الدواوين الجامعة لاشعار هؤلاء ، فلم يكن بين يدي سوى ديوان لعنترة وديوان لسحيم ، اضافة الى الكتب التي جمعت أشعار بعضهم أمثال خفاف وعبدة وعلي ونصيب الاكبر . أما ما تبقى من الشعراء فكنت اعتمد على المادة المنشورة في الكتب والمصادر المختلفة ولقد كان كتاب الاغاني للاصفهاني من المصادر القديمة الغزيرة المادة لا سيما المادة التاريخية ، يلي ذلك خزانة الادب للبغدادي والشعر والشعراء لابن قتيبة وغيرها ، بحيث استطعت ان أقيم بناء على ما توافر بين يدي من هذه المادة ...

اما الحديث من المراجع ، فقد كان قليلا بل نادرا ، لا سيما تلك التي سلطت الضوء على هذه " البقعة السوداء " والتي ظلت لقرون عديدة طي النسيان ، حتى امتدت اليها اليد الحانية ممزقة ستار النسيان ورداء التعصب ، فكانت مصابيحا أنار كهف السود ، وعلما ابرز مناقبهم وأشعارهم بعد طول ركود .. وأخص بالذكر منها دراسة الدكتور عبده بدوي

" الشعراء السود " والتعريف بخصائصهم وتبيان الخطوط الرئيسية التي شكلت اللحمة والسدى في حياة الشاعر وشعره، فساعدتني في تحديد خطوط دراستي والسير فيها .. اضافة الى الكتب التي ساهمت في جمع وتحقيق أشعار بعض الشعراء السود ، رغم ما صاحب هذا الجمع من جهد وعطاء بارزين، حتى انها كانت السباقة في اماطة اللثام عن بناء شعري متين .. ولم يكن هذا البحث الا لبنة صغيرة ساهمت مع ما سبقها في تجديد صرح الشعر العربي ، وابراز وجه مظلم من وجوهه .

واذا كانت المصادر والمراجع التي اهتمت بالشعراء السود - على قلتها - قد شكلت الاساس في بناء هذه الدراسة، فان الايدي الحانية التي امتدت تنير طريقي وتساعدني خلال عطائي المتواصل، أخص بالذكر منها استاذي المشرف الدكتور أسعد علي الذي عوّد طلابه على عطاءاته الكثيرة، عطاء نقيا ناصعا من غير شوائب، عطاء من ذاته، ومن نفسه، من علمه ومن وقته ، ومن خلاصة تجربته في الحياة ، فكان خير مرشد لرسالة العلم، وكان خير موجه لرسالة الاخلاق ..

وكذلك أخص بالشكر الاستاذ الدكتور محمد خير حلواني الذي شارك في الاشراف على بحثي اشرافا فعليا ، فتابع معي الرسالة خطوة خطوة ، وفصلا فصلا، منذ أن بدأت في التفكير باختيار الموضوع المناسب لشهادة الماجستير ، الى آخر كلمة من هذه الدراسة، فكان الناصح والمرشد والموجه ، وكان الامين على عطائي العلمي هذا ، يدفعه الى ذلك غيرة علمية ونبل اخلاق . واذا كان العرفان بالجميل يدعو الى الشكر فهو يدفعني دفعا الى تقديم الشكر الخالص الى المعهد الذي تعهد دراستي - مع مئات غيرها - بالرعاية والحدب والجهد ، الى ان رأت النور ، معهد الآداب الشرقية في الجامعة اليسوعية، ممثلا بادارته الحكيمة التي تجلت في شخصية مديره السابق الدكتور الأب ميشال ألار - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - الذي قضى نحبه في سبيل العلم ونشر رسالته العليا، فكان الفداء الكريم لخير رسالة في العلم والايمان، كما تجلت في شخصية مديره الجديد الدكتور الأب بوزيه الذي استلم مشعل العلم من سابقيه متجشماً مصاعب نشر الرسالة، ومتعهداً طلاب المعهد المنتشرين في انحاء الارض بالرعاية الابوية والعلمية ، حتى ولو اقتضى ذلك سفرا شاقا من بقعة الى بقعة للاجتماع بهؤلاء الطلاب مسجلا بذلك بادرة جديدة وسامية ولافتة للنظر .. وحين اتكلم عن المعهد بكامل ادارته ، لا انسى العاملين فيه بفئاتهم كلها فهم دائما الجنود الساهرون في سبيل المصلحة العامة .. والعرفان بالجميل لا ينسى - بالطبع - القائمين على مكتبات جامعة دمشق وتشرين في اللاذقية

والمكتبة الظاهرية فى دمشق ، لما قدموه لي من مساعدات أعجز عن تعدادها ووصفها ، كما أعجز عن رد جميلها ... كما لا ينسى الايدى الخيّرة الطيبة التى تعهدت رسالتي العلمية هذه ـ طبعا وتنسيقا واخراجا ـ وأرجو ان اكون قد استطعت من خلال دراستي هذه تحقيق جزء من آمالهم ، التى هى آمال النفس البشرية السامية متجلية بالعمل على دفع الظلم بشتى أشكاله عنها ...

والله ولي التوفيق

الباب الأول

مقدمة تاريخية عن الشعراء السود ....

الفصل الأول

الجاهليون والمخضرمون

عنترة بن شداد

ولادته نسبه :

في فيافي صحراء نجد ، حيث بساطة النفس العربية وصراحتها ، شدة بأسها وجلدها على تحمل صلف الحياة وظلفها ، وبعيدا عن ترف المدينة وصخب حضارتها ، هناك ... ولد عنترة ، وعاش حياة الانسان العصامي ، الذي استطاع بما منحه الله من صفات خلقية وجسدية أن يجابه مجتمعا له كيانه المستقل .

ولد عنترة في الربع الأول من القرن السادس الميلادي (٦٠٠ م) أي قبل اثنتي وعشرين سنة من الهجرة ، في قبيلة عريقة تدعى عبس بن بغيض التي ينتهي نسبها الى غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان ، والتي كان لها شهرة كبيرة عند ظهور الاسلام . أما منازلها فهي ديار القصيم ونواحيه ، يجاورهم شمالا وغربا بنو أسد ، وشرقا بنو تميم ، وجنوبا بعض قبائل قيس بن عيلان من غني وبني عامر . (١)

أما نسب عنترة .. فهو عنترة بن شداد ، وقيل : ابن عمرو بن شداد ، وقيل : عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، وقيل : مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الرَّيث ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر (٢) . ورواية البغدادي تذكر انه عنترة العبسي بن شداد بن عمر بن قراد ، قال الكلبي : شداد جده غلب على اسم أبيه ، وانما هو عنترة بن عمرو بن شداد . وقال غيره : شداد عمه تكفّله بعد موت أبيه فنسب اليه (٣) . وأمه كانت أمة حبشية يقال لها زبيبة ، وكان لها ولد عبيد من غير شداد ، فكانوا أخوته لأمه . وكانت العرب في الجاهلية اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبدوه (٤)

---

(١) فارس بن عبس حسن عبد الله القرشي : ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١
(٢) الأغاني للاصفهاني ٨/ ٢٣٥ ـ طبقات فحول الشعراء : ١/ ١٥٢
(٣) خزانة الادب عبد القادر البغدادي : ١/ ١٢٨ ـ الشعر والشعراء : ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥
(٤) الاغاني / ٨/ ٢٣٥

سيرتـــه :

كما تعددت الروايات في نسب عنترة تعددت في ذكر ألقابه فقيل : عنترة الفلحاء لتشقق في شفته السفلى (١) ، وقيل : عنترة الفوارس (٢)، كما كان يكنى بأبي المغلّس (٣) •

وأبو المغلّس هذا واحد من أغربة العرب الثلاثة مع خفاف بن ندبة، والسليك بن السلكة (٤) والذى تجمع كتب الادب عامة على أنه من أشجع أهل زمانه ، وأجودهم بما ملكت يده ، فقد شهد حرب داحس والغبراء وحمدت مشاهده فيها (٥) وكانت هذه مع غيرها من مشاهد البطولة التي سجلتها كتب الأدب، السبب الأول والأخير في اثبات وجود عنترة بالرغم من عقدة اللون، وعقدة الأم الأمة •

لقد استطاع هذا الشاب الأسود ، المفتول العضلات، الضخم الجثة الصلب العود ، الذكي الفؤاد ، السمح الخلق، الكريم الشمائل •• استطاع أن يقلب وجه حياته التي بدأت بالقهر والذل والعذاب ، وأن يواجه مجتمعه بتحد صارخ ، ليثبت مكانته ، ويمسح عار الذل عن وجه أمه واخوته • وعلى هذا، فنحن نستطيع أن نتبين بوضوح شطرى حياة عنترة منذ ولد ، وحتى ودّع حياته ، تاركا خلفه من آثار البطولة والشاعرية، ما يشرّف صفحته في تاريخ الشجاعة والأدب• لقد عاش عنترة حياة الرق والعبودية بكل ما فيها من آلام نفسية وجسدية، وهذا بالطبع يمثل الجانب المأساوى في حياته • الى أن استطاع بحد السيف أن يعلن عن نفسه ، وهذا ما يمثل الشطر الآخر من حياته ، والذى نستطيع أن نصفه بالجانب الأكثر تفاؤلا • بالرغم من خيبة أمله في الحب، وما جرته عليه من آلام معنوية كانت تظهر جلية في علاقته الموؤودة مع عبلة. •

فهو في بادئ الأمر •• يبدو انسانا مقهورا ، مغلوباً على أمره ، معزولا عن أسرته الصغيرة، اذ لم يعترف بوجوده والده ، وعن أسرته الكبيرة، التي تشكل

---

(١) نوادر المخطوطات لأبي جعفر البغدادى/ ٢١٠
(٢) العقد الفريد : ـ ابن عبد ربه الاندلسي ١١٧/١
(٣) المزهر للسيوطي ٤٢٦/٢
(٤) الاغاني : ٢٣٨/٨ الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٥/١ ـ ٢٠٦
(٥) خزانة الادب ١٢٨/١

مجتمع القبيلة بكل ما فيه من عادات وتقاليد كانت بمجموعها تقف ضده .
فهو بينهم غريب لا يشاركهم الرأي والمشورة ولا يشاركهم الحروب، وفي هذا منقصة من قيمة الانسان الذي وهبه الله صفات البطولة كلها ، وهو الى ذلك محروم من ممارسة ادنى الحقوق المدنية .. هنا .. نجد عنترة بين خيارين : اما الاذعان للأمر الواقع والاعتراف به على أنه سنّة، فهو ابن أمة حبشية تنتمي الى الطبقة الثالثة من النساء في المجتمع العربي بعد طبقة الحرائر وطبقة السبايا، والاعتراف بأبناء الاماء أمر لا يقرّه العربي ولا يجيزه (١) أو تحدى الأمر الواقع ومقابلته بردود فعل قوية وبالوقت نفسه قيّمة تكسر شوكة العادات والتقاليد البالية . وهنا تبرز الشجاعة، والبطولة، والكرم، والنجدة واغاثة الملهوف . وهذه تحدّد الاساس الذي بنيت عليه قيم البدوي في صحرائه وهذا ما يشكل الشطر الثاني من حياته الشطر الذي تحدده جملة واحدة قالها له أبوه : "كرّ وأنت حر" .

وقصة الاعتراف بوجود عنترة، وادعاء أبيه له ، تناقلتها كتب الأدب بأشكال متعددة، ولكنها ذات مضمون واحد . فبعضها يقول : "ان بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم، واستاقوا ابلا . فتبعهم العبسيون فلحقوهم وقاتلوهم عما معهم، وعنترة يومئذ فيهم ، فقال له أبوه : كرّ يا عنترة، قال عنترة : العبد لا يحسن الكرّ وانما يحسن الحلاب والصر .. فقال : كرّ وأنت حر فكرّ وهو يقول :

أنا الهجين عنترة	كل امرئ يحمي حره
أسوده واحمره	والشعرات المشعرة

الواردات مشفرة

وقاتل يومئذ قتالا حسنا ، فادّعاه أبوه بعد ذلك، وألحق به نسبه " (٢) .

وهكذا نرى أن عنترة قد سخّر ما حباه الله من صفات البطولة وشدة البأس في ملاقاة الاعداء، وسخّرها لاثبات كيانه، والاعتراف بحقه في الحياة ليعيش فردا في

---

(١) الشعراء السود = عبده بدوي /٢
(٢) الاغاني ٨ /٢٣٧ ، الشعر والشعراء ١ /٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، ٢٠٦ خزانة الادب ١ /١٢٨

اسرته الصغيرة، ثم في مجتمعه، ثم أمام محبوبته، ثم ليحتل مكان القيادة، ويكون بعد ذلك فارس القبيلة على ما فيها من أمجاد الفتيان، وعديد الفرسان، حتى ذاع صيته الى حد اقتران اسمه بالبطولة التي لا تقهر، وبالفروسية التي لا تبارى، وكانت هذه من الاسباب التي دعت بعضهم الى انكار وجود عنترة الادبي، والى اعتباره شخصية اسطورية يعلق عليها القصص والشعر المنحول " ولقد كثر الحديث عن هذا البطل الجاهلي القديم، كما لم يكثر عن أحد من الابطال الذين عاصروه، وقلّ مع ذلك ما يمكن الاطمئنان اليه من هذه الأحاديث التي ملئت بها الاسفار الضخام، والتي أعانت الناس وما زالت تعينهم على أن يتخففوا من أثقال الحياة، ويلقوا عن أنفسهم اعباءها اذا أقبل الليل وفرغوا لاسمارهم فلا بأس بأن نقبل باسمين ما يروى عنه من الأخبار والاساطير"(١)

الا أن الواقع الذي سردته كتب الأدب عن سيرة عنترة يحدثنا عن مشاهد ووقائع تثبت شجاعة هذا البطل وفروسيته، ولا أدل على ذلك من القصة التي ذكرها الأصمعي، والتي تتضمن حديث الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الحطيئة حيث قال عمر للحطيئة العبسي : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم، قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا، وكان حازما فكنا لا نعصيه، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا احجم .. الخ فقال عمر : صدقت (٢) وكأننا بعنترة في قيادته الحربية قائد حكيم متمرس مفكر، خبر أمورها بمهارة ودقة، يحجم حين يكون الاحجام واجبا ومجديا، ويهجم حين يكون في الهجوم نصر مؤكد ... حتى عنترة نفسه .. اذا ما سئل : أأنت أشجع العرب وأشدها ؟ .. قال : لا . وحين قيل له : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزما . وأحجم اذا رأيت الاحجام حزما، ولا أدخل الا موضعا أرى منه مخرجا، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله . " (٣) وفروسية كهذه كانت لابد أن تستهوى قلب حامل لواء الاسلام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجعله يتمنى لو أن الله تعالى يمنّ على دعوته بفارس من أمثاله لتأخذ طول الأرض وعرضها حيث قال : "ما وصف لي اعرابي قط فأحببت أن أراه الا عنترة .(٤)

---

(١) حديث الاربعاء : طه حسين ١/١٤٥

(٢) الاغاني ٨/٢٤١

(٣) المصدر السابق ٨/٢٤١

(٤) المصدر السابق : ٨/٢٤٠

هـذا ما حدثنا الـرواة بـه عـن البطل الـذى ذاع صيتـه في الأوساط القبلية آنذاك، والذى مـا زالت تـدرس آثاره حتى يومنا هـذا، كاشفـة النقـاب عنها بـروح الاحيـاء والتحديث، وفي كـل مـرة تنتهي الى جديد في قيمه الشعرية وقيمه الحياتية، التي كانت صورة واضحة طالما تشوّق ويتشوق اليها الانسان العربـي في ماضيـه وحاضـره •

شعـــره :

اذا مـا تحققنـا شعـر عنترة، وجدنـا أنّ الفروسيـة هـي الميـدان الرحب الـذى وجـد فيه ضالتـه • والشعر الجاهلي ـ عامة ـ غني وحافـل بالحديث عن الفروسية، وعن قيمهـا، بواعثها، غاياتها، حتى غدت الطابع المميـز للحياة الجاهلية، طالما أنها، تعني : " مجموعة المثل الرفيعة والبطولات الحربيـة التي ترددت ألسنة الشعراء الفرسان، وتجاوبت أصداؤهـا في أطـراف الصحـراء الواسعة، وامتدت معانيها امتداد الرمال، فكانت اسلوب الحياة لمختلف النـاس دون تمييـز • " (١)

وعنترة •• فارس بني عبس تتمثل في شخصه بطولة الفارس الحربية حيـث توفرت فيه الحنكة الحربية، الى جانب الشجاعة وشـدة البأس مع ما يستلزمهـا مـن عفة وكرامـة ونجدة وكـرم •• ومـا الـى ذلك من المثل العليـا •

أثني عليّ بما علمت فانني ... سهل مخالطتي اذا لم أُظْلَمِ

فاذا ظلمت فان ظلمي باسلٌ ... مرٌ مذاقته كطعم العلقـم

• • • • • • • • • •

فاذا شربت فانني مستهلـك ... مالي وعرضي وافر لم يكلـم

واذا صحوت فما اقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمـي

وحليلُ غانية تركت مجـدلا ... تمكو فريصته كشدق الأعلـم

سبقت يداى له بما رن طعنه ... ورشاش نافذة كلـون العنـدم

وكان لا بـدّ من باعث قـوى ليثير هـذه الصفات الكامنة في أعماق الشاعر •• واذا كان الســواد والرق من الاسباب التي أهاجت نفس الشاعـر وأثـارتها، فلا بـدّ

---

(١) الفروسية في الشعر الجاهلي نورى حمود القيسي : ٢٥

أن نقرّ مع علم النفس أن العامل العاطفي من العوامل الاساسية لتدفق الشعر، ولا سيما شعر عنترة .. حيث تتجلى عاطفة الحب بوضوح .. هذه العاطفة الكامنة والتي لا بدّ من دافع يظهرها الى السطح فهي تحرك الانسان في جميع الحالات بوعي منه أو دون وعي لتلبية حاجة فيزيائية أو عقلية " فقد عرف الشعراء من غير شك أن الحب والكراهية والخوف هي القوى التي حركت الرجال والنساء . " (١)

لقد أثار حب عبلة في قلبه العواطف كلها، حتى أسرته، وملكت عليه شغاف قلبه، فجاشت نفسه غراما عفيفا رقيقا صادقا، تجاوز به كل صور الحب المادي وارتفع الى مستوى التجرد الروحي ...

ان كنت أزمعت الفراق فانما زُمّت ركابكمُ بليلٍ مظلمِ
ما راعني الا حمولةَ أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم
اذ تستبيكَ بأصلتي ناعمٍ عذبٍ مقبلُه لذيذ المطعم
وكأنما نظرتْ بعيني شادنٍ رشأ من الغزلان ليس بتوأم (٢)

وحكاية عنترة مع المرأة عموما، حكاية قاتمة الظلال، منذ أن فتح عينيه على وجودها أمّاً ... الى أن تغنى بها حبيبة .. لكنها في الحالات كلها انطقته شعرا — على ما فيه من لوعة وحسرة وألم، شعر رقيق يعكس تاريخ حياته المليئة بالالم الذي يسبقه دائما الاخفاق .. فاذا استعرضنا دور المرأة الام في حياته، وجدنا أنه كان أقل ما ينعت به من قبل الآخرين هو ابن السوداء . واكثر ما كان يؤلمه من العبودية والرق ارث زبيبة أمه .. ولذلك نجد كتب الأدب قلما تتكلم عنها فهو ينعتها بصفات يراها مناسبة " بحسب رأيه "

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعر منها مثل حب الفلفل

نفهم من هذا ان العلاقة الحميمة التي كان من المفروض ان تربط بين الأم وابنها .. كانت مفقودة عند عنترة وأمه، التي كان لا حول لها ولا قوة في موقفها من ابنها أولا . ومن مجتمع القبيلة ثانيا .. فهي أمة عبدة معرضة حسب شريعة الجاهلية الى كل ما يخطر للسادة بالاكراه أو بالرضى .. كان عليها أن تذعن للأمر الواقع دون أدنى

---

(١) التفسير النفسي للادب : عز الدين اسماعيل / ٤٣.
(٢) الديوان تحقيق محمد سعيد مولوي ١٨٨ — ١٩٠ — ١٩١

اعتراض •• ومن هنا أصبحت أنا رغما عنا •• ورغما عنها أيضا ، كانت سببا في شقائه •• الا أننا نستطيع أن نزعم دون حيث لم ندر — أنها كانت سببا في اثارة نفس عنترة الأبية في رد فعل معاكس لما لاقاه منذ أن رأى نور الحياة •• ودفعه الى أن يخطي بيمين فعاله وخصاله سواد لونه •

فاذا تجاوزنا دور المرأة الأم في حياته •• ذهبنا الى امرأة اخرى كان لها أثر لا يقل ألما في نفس عنترة من سابقتها •• وان كان لا يضاهيه • وهنا سنقف وجها لوجه أمام زوجة الأب، تلك التي كانت تدعى سمية أو سهية ••والتي كان يلزلها — على ما يبدو — الايقاع بين الأب وابنه •• وينقل لنا صاحب الأغاني قصتها فحواه أن عنترة قبل أن يدعيه أبوه ، حرشت عليه امرأة أبيه وقالت: انه يراودني عن نفسي ، فغضب من ذلك شداد غضبا وضربه ضربا مبرحا ، فما كان من الزوجة ، حين رأت ذلك ، الا أن بكت وألقت بنفسها عليه وكفته عنه ، وقد صور عنترة هذا الموقف المؤثر فقال :

أمن سمية دمع العين مذروف	لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدت ما تكلمني	ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف
تجللتني اذ اهوى العصا قبلي	كأنها صنم يعتاد معكوف
المال مالكم والعبد عبدكم	فهل عذابك عني اليوم مصروف (١)

ثم ينتهي الى الحديث عن أفعاله وبطولاته في ساحة الوغى ••• وعلاقة عقيمة كهذه كانت كفيلة بأن تنهي أية رابطة ومن أي نوع كان بين المرأة وعنترة، لولا أن الله كان قد حباه قلبا كبيرا متسامحا معها ، قادرا على أن يتابع مسيرة الحب مع المرأة •• وقادرا على أن يعطيها الكثير دون ان ينتظر الجزاء •• بل أن يعطي الكثير ، حتى لو قوبل عطاؤه هذا بالانكار والجحود ، بل بالسخرية في بعض الاحيان ••

لقد أحب عنترة ابنة عمه عبلة مالك بن قراد حبا ملك عليه فؤاده ، فتغنى بها في كل مناسبة، حتى أصبح مضرب المثل •• وحتى نسجت حوله ألوان من القصص والحكايات الاسطورية التي كانت تضفي على ليل السمار نوعا من الحب السامي

---

(١) الديوان / ٢٧٠

ومهما كان من أثر هذا الحب الذي طغى على حياة الشاعر .. فهو لم يعط أكله .. وكان كنبتة يانعة خضراء نبتت وسط مجموعة من الاشواك البريـة، التي مدت بشوكها الى الجذور فأوقفت نموها .. ومنعت ثمارها من الظهور .. لذلك نرى أن رياح الشاعر سارت الى حيث لم يشأ .. ورست سفينته على شاطىء مهجور لم يكن في الحسبان .. ليحمل معه امرأة لم تكن يوما في حلمه .. امرأة من بجيلة أمضى معها بقية أيام عمره .

الى جانب ما سبق .. فقد على عنترة بكافة اغراض الشعر العربي واتاليه المعروفة من فخر وحماسة ورثاء ووصف وحكم فكان فيها سباقا رشيق التعبير، بارع التصوير، طريف المعاني . الى أن انتهت حياته الحافلة بعد أن بلغ من العمر التسعين عاما تقريبا (١) .

شخصيتـه :

اذا كان فحوى النضال يكمن في محاربة كل ما يسيء الى النفس الانسانية وقيمها السامية، والدفاع عن كل ما يحفظ كرامتها وكيانها وحريتها، فعنترة بن شداد يعتبر في الصف الأول من صفوف المناضلين الذين وهبوا كيانهم ولسانهم وسيفهم للدفاع عن هذه النفس ومحاربة كل ما يخدش عنفوانها، وكنا نحس نفس هذا النضال في أشعاره كلها ، لكنه نضال ذو شجون الا أنه لا يخلو من همّة عالية، وتمسك بالقيم الاخلاقية، ودعوة الى البطولة والكفاح . فاذا ما تدرجنا مع حياته منذ أن كان عبدا منبوذا الى أن أصبح فارسا مغوارا، استطعنا أن نكوّن صورة واضحة لهذه الشخصية الفريدة ..

لقد عرفه قومه ـ في بادىء الأمر ـ عبدا لا يشارك فيما يشارك فيه الاحرار، ولا يعامل معاملتهم، فاحتطوه بينهم عن غير رغبة، واحتمل هو الحياة معهم ـ على قساوتها ـ ببأس وشجاعة، فكانت هناك لفتات من شعره تحمل الغصة تلو الغصة، كما كانت تحمل شعاع أمل خافت راود مخيلته فتمنى أن يتحول معه حقيقة واقعة . ولهذا دافع ببسالة عن لونه ، وعن عبوديته ، وعن اخوته ، وعن مكانته في القبيلة وبين الفرسان، ثم أخيرا عن حبه ... وكان في ذلك كله

---

(١) فارس بني عبس / ٧٠

مثال المقاتل المستميت •• فاما الحياة الحرّة الكريمة، واما الموت، ولا مجال ـ عنده ـ للخيار بينهما •• فهو مدفوع ـ بطبيعة تكوينه ـ الى البطولة والشجاعة لاثبات الذات، ولا سيما وأنه كان يشعر بأن "أفعاله وبطولته وشجاعته أمور لا ترتبط بالنشأة قدر ارتباطها بالنفس والسمو" • (١) ولا بد أن يكون للعامل النفسي عنده الأثر الأكبر في شعره، وفي تكوين شخصيته، الى جانب العوامل الأخرى التي يشترك بهما مع غيره من الشعراء •

لقد كانت عقدة اللون عند عنترة واضحة في أكثر قصائده، وكانت هذه العقدة سببا من أسباب مأساته، ان لم تكن هي السبب الأهم، وذلك لطبيعة الحياة في المجتمع القبلي التي كانت تعتبر أن ابن الأمة لا يصلح الا لتقديم الخدمات للسادة •• ولم يكن هو وحده الذى يعيش مأساة اللون والعبودية، بل كان أخوته لامه يعيشون المأساة نفسها •• فأين السبيل لرد الاعتبار ؟ أين سيجده عنترة ؟ •• بل كيف سيتوصل اليه ؟ •••

انه موضوع أمام قضية، وهي قضية صعبة ومتشابكة وذات جذور •• الا أنه استطاع ـ رغم الظروف كلها ـ أن يهيء لظهور شخصيته المتميزة ••

فهو قائد رغم عبوديته، وفارس مغوار رغم سواده، وشاعر من شعراء الصف الأول رغم اجتماع عبوديته وسواده •• وهو في الجهة المقابلة عاشق معذّب، أضناه كبرياء الحبيب وعنفوانه، مثلما أضنته من قبل القبيلة بكبريائها وتعاليها، ومثلما عذبته تقاليدها وأعرافها البالية •• ولكنه ـ مع ذلك كله ـ كان المحب الأكثر رقة في أشعاره ••• والأكثر شفافية في عواطفه ••• والأكثر ألما في هذا وذاك •••

---

(١) الديوان / ٣٦ ـ ٣٧

سحيم عبد بني الحسحاس

مولده ونسبه :

أجمعت الروايات التي تحدثت عن عبد بني الحسحاس على أن اسمه سحيم (١) وهو تصغير ترخيم الأسحم أي الأسود (٢) • وقيل أيضا حيّة (٣) وزعم أحدهم أن يكون لفظ " حية " لقبا لحقه في وقت متأخر ُنظِرَ فيه الى أعماله التي تشبه أعمال الأفعى، لما فيهما من جرأة وخبث، أو نظر فيه الى لونه وحجمه، لأن الحيّة العظيمة يطلق عليها لفظ " الأسود " (٤) ويكنى سحيم بأبي عبد الله (٥) • أما اللقب الذي عرف به بين الناس واشتهر فهو " عبد بني الحسحاس " (٦) الذي اتفق أغلب الرواة على أنه حبشي (٧)، وقليل منهم ذكر بأنه نوبي (٨) • اذ قال الأصفهاني عنه "اسمه سحيم، وكان عبدا أسود نوبيا أعجميا "، وكان يرتضخ لكنة أعجمية، فقد كان ينشد الشعر ويقول : أحسنكُ والله، يريد أحسنت والله، وفي هذا المجال يستعرض الرواة حديثه مع عمر بن الخطاب " رضي الله عنه، حين أنشده سحيم " يائيته " المعروفة، فقال له عمر : لو قلت شعرك مثل " كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا " لأعطيتك عليه • وقيل أنه قال : لو قدمت الاسلام على الشيب لأجزتك • قال : ما سعرت، ويريد ما شعرت (٩) •

---

(١) نوادر المخطوطات: ٩٠ ـ الشعر والشعراء: ١/٤٠٨ البيان والتبيين: ١/٧١ سمط اللالىء: ٧٢٠ ـ خزانة الادب: ٢/١٠٢ ـ الاغاني ٢٢/٣٢٦ •
(٢) الديوان ١ (٣) سمط اللالىء= ٧٢٠ ـ الاغاني ٢٢/٣٣٦
(٤) سحيم عبد بني الحسحاس، محمد خير الحلواني= ٤٢
(٥) الديوان ـ ص١ (٦) طبقات فحول الشعراء = السفر الاول = ١٨٧
(٧) الشعر والشعراء = ١/٤٠٨ ـ سمط اللالىء= ٧٢٠ ـ ديوان المعاني ٢/١٦٦ خزانة الادب ٢/١٠٢
(٨) الاغاني ٢٢/٣٣٦
(٩) الديوان ص٤ طبقات فحول الشعراء ١/١٨٧ ـ البيان والتبيين ٧١ ـ ٧٢

سيرتــــــه :

فـاذا ما التفتنا قليــلا الــى الوراء، باحثين عن وصـف لحياة هذا العبــد الشاعر، فماذا نرى في كتـب الأدب التي نقلـت ما نقلـت من أخبـاره ؟ ..

لقد سكتت بل أحجمت هـذه الكتب عن ذكـر كل ما يتعلـق بالشطـــر الأول من حياتــه، ونقصد بــه شطــر حيـاة الطفولة . كيف ولــد ؟ من هما أبواه ؟ كيف وأين عــاش طفولتــه ؟ ..

الا أننا نلمح وبوضـوح، تلـك الأضواء التي تشيـر الـى أن سحيما عــاش فترة لا بأس بهــا في الجاهليــة، كما تشير الـى صلته الحسنة بقبيلتــه أســــد، التــي يتحـدر منهــا سادته بنــو الحسحاس . " فالشاعر العربي ــ كما هو معروف يتأرجح بين قطبين : ذاتي يدفعــه الــى تحقيق ذاته بين الجماعة، وقبلي يدعوه الى الذوبان في كيانــه، والتضحيــة بالروح في سبيلــه (١) .

وسحيم بالرغم من أنــه طارىء على القبيلــة الأسدية، الا أن الزمن غيـــر القصير الــذي عاشه بينهم يعتبر كفيــلا بخلــق جــو من الالفة بينه وبينهم، تدعوه الى أن يشعر بشعورهم، ويتكلم بلسانهـــم ــ مدحا وافتخــار = وذلك رغم لكنتـــــه الاعجمية التــي لم يمحهــا فعل الزمــن . من ذلك مدحه لبنــي نصير بن قعيـــن وهــم بطن عظيــم من بطــون أســد :

فـدى لبني نصر قلوصي وقطعها	وقل الهم ناقتي وقطوعهــــا
هم أكرموني بالجوار وخلتـــي	اذا كنت مولى نعمة لا أضيعها
لعمرى لنعم الحي حلط وناشلا	اذا هيج البيض الحسان نفيــها

وتتناقل كتب الأدب خبر بيع سحيم الى بني الحسحاس بروايات تجتمع فـــي مضمونها على أن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومــي كتب الى عثمان رضي الله عنـــه يقول : " اني اشتريت لك غلامــا حبشيا يقول الشعــر " فكتب اليه عثمــان : "لا حاجة بي اليـه فاردده، فانما حظ أهل العبد الشاعر منــه ان شبع أن يشبب بنسائهـــم وان جاع أن يهجوهــم " فردّه، فاشتراه بنو الحسحاس وهم بطــن من بطون اسد (٢)

---

(١) سحيم عبد بني الحسحاس ــ محمد خير حلواني / ٦٥ عن بلاشير تاريخ الادب العربي
(٢) الاغاني ٢٢/٢٢٩ ــ سمط اللالىء ٧٢٠ ديوان المعاني ٢/٦٦ .

والحسحاس ـ كما تذكره خزانة الأدب والاغاني ـ هو ابن نفاثة بن سعد بن عمر بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس • ومولاه هو جندل بن معبد (١) •

والحديث عن جندل بن معبد مولى سحيم •• يجرنا الى الحديث عن رواية ابن الاعرابي (٢) التي تحدثنا عن الوجه الآخر للقصة السابقة، فبعد ان رفض عثمان رضي الله عنه شراء سحيم، اشتراه رجل من العرب، ولما رحل به أنشأ سحيم يقول :

أشوقاً ولمّا يمض بي غير ليلة	فكيف اذا خبّ المطي بنا عشرا
أخوكم ومولى خيركم وحليفكم	ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا
وما خفتُ سلاماً على أن يبيعني	بشيء ولو أمست أنامله صفرا

وفي فوات الوفيات أن الذي اشتراه من مالك بن الحسحاس هو رجل من نجد ما لبث أن أعاده الى صاحبه مالك، الذي اشتراه ثانية بعد ما لمس فيه من الشوق والحنين والمودة (٣) وهكذا •• تتفق رواية الاغاني مع الرواية السابقة لتؤكد أن بني الحسحاس هم الذين باعوا سحيما لسبب ما ويرجح أن يكون المحل والقحط هما السبب ثم ما لبثوا أن أعادوه، لتكون نهايته المحزنة على أيديهم، بعد تشبيبه بنسائهم، وهتك أعراضهم، والتشهير بفتياتهم ••

وسحيم من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فترة من حياتهم في الجاهلية ثم أدركوا الاسلام (٤) • والواضح أنه عاش زمنا طويلا في الجاهلية، فيه استوت شاعريته وبرزت، مما دعا ابن سلام الى أن يعدّه من شعراء الطبقة التاسعة فيقول عنه : " عبد بني الحسحاس، وهو حلو الشعر، رقيق حواشي الكلام •• " (٥) وهكذا الى أن أدرك الاسلام حاملا شاعرية فذة ظهرت مرة واحدة في قصيدته البائية :

عميرة ودّع ان تجهزت غازيا	كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

والتي تمثل بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "كفى بالشيب والاسلام للمرء ناهيا" ••

---

(١) خزانة الادب ٢/ ١٠٢ ـ الاغاني ٢٢/ ٣٢٩
(٢) الديوان ٥٥
(٣) فوات الوفيات : الكتبي ١/ ٣٢٨
(٤) البيان والتبيين : الجاحظ : ١/ ٧١ ـ خزانة الادب : ٢/ ١٠٢
(٥) طبقات فحول الشعراء : ١/ ١٨٧

وما زال أبو بكر يصححها له ويقول : "أشهد أنك لرسول الله"• (١)

شعره :

وحياة هذا الشاعر العبد في الحياتين الجاهلية والاسلامية، كان لها ما يميزها عن غيرها من حياة الأرقاء، وبالتالي، ما يميز أشعاره عن غيره من الشعراء ...

فقد وجدناه في بعض أشعاره ناصحا لقبيلته التي يدين لها بالولاء ثم وجدناه مدافعا عنها، مادحا لها، مفتخرا بشمائلها • كما وجدناه واصفا للطبيعة ولمظاهرها المتعددة • ولكن هذا كله — في الواقع — لا يشكل الا "جزءا" من حياة العبد الشعرية الحافلة، وانما نجد الجزء الذى يمثل الجانب الآخر، وهو الجانب الأكثر غزارة وحيوية، والذى يعطينا الفكرة الأوضح عن حياة سحيم، نجده ممثلا في الجانب العاطفي من جوانب شخصيته •

لقد أثبت سحيم شاعريته بلا جدال، لكنه لم يجد متنفسا لجهود يتجه ولسواده، ثم لشهواته الا في المرأة، التي أحبها جسدا مكشوفا، فجاء شعره — في هذا المجال — صورة واضحة فرّغ فيها كل شحنات طاقته العاطفية، بما تحويه من شوق عارم للذة، ومن اشتياق لا حدود له للجسد وربما كانت هذه العاطفة الجامحة والرغبة الجائعة صورة ظاهرية دفنت في أعماقها مخلفات وموروثات عديدة •

والحديث عن المرأة، ودورها في اخصاب حياة الشعراء قديم •• كل تناوله وفق اطار يختلف عن الآخر •

لقد تحدثوا عن جمالها وشكلها الخارجي، كما تحدثوا عن صفاتها وجمالها الروحي، ووصفوها وصفا دقيقا يحمل الى جانب روعته مزيجا من الجمال والشفافية، مزيجا من المادة والروح • لقد وصفوا شكلها الخارجي قامتها، عينيها، أنفها فمها •• أسنانها •• شعرها •• لونها •• كما وصفوا جمال روحها، وبهاء طلعتها ثم بعد ذلك تحدثوا عن حبهم وعشقهم لها • عن اشراق الحياة بجانبها وعن عبوسها واكفهرارها بالبعد عنها •

---

(١) ديوان سحيم : تحقيق عبد العزيز ميمني : ١

تحدثوا عنها مصدرا للوحي والالهام الشعري بطبيعتها الانثوية التـــي يتوق اليها كل رجـل ، ولكن كـل واحد منهم سلك طريقـا في التعبير عما يجيـش به صدره ، ويكتمه قلبه من حب وشوق وهيام ، فمنهم من أهدر الحياة الخارجيـة وأغنى الحياة الداخلية، ومنهم من فعل العكس فأولى الحياة الخارجية عناية بالغـة على حساب الحياة الداخلية (١) فسمعنا من شعراء المدرسة الاولى أحلى الأشعـار التي فرغوا فيها عواطفهـم الجمة، فعبروا لنـا عن حبهم بقالب فنـي شعري جميل •• وسمعنا مـن شعراء المدرسة الثانية الغزل الجريء، ووصف الجزئيات المادية لـدى المرأة جملة وتفصيلا •• على أننا نعود لنوحد بين الطرفين في العناصر المؤلفـة لماهية الغزل الشعري، أو الشعر الغزلي ، فنجد أن الميل الجنسي هو العامـل ان لم يكن الأقوى، فهو الأهم الذي يركز عليه فرويد زعيم المدرسة الحديثة في علـم النفس حين تبين في دراسته التحليلية لاشخاص الفنانين " أن "الدافع الجنسي هو أوضح الدوافع التي دفعتهم الى انتاج أعمالهم الفنية (٢) وهذا الدافع موجود بقدر ما عند الجميع، الا أن الفرق بين واحد وآخر يتضح في كيفية تفسير هذا الدافع، والتعبيـر عنه •

فاذا نظرنا الى سحيم وشعره من هذه الزاوية، وحاولنا أن نطبقه على فنـه الشعري، ولا سيما الذي يتحدث عن علاقته بالمرأة وجدناه لا يتورع عن الانتماء • وبجرأة ، الى رواد المدرسة الثانية، ووجدناه لا يتورع عن المكاشفة بكل ما يعتري هـذه العلاقة وذلك بقالب شعري جريء وفاضح ، حتى ان "الذوق السليم ينفر منه في أكثـر الاحيان • فهو لا يعرف في علاقته مع المرأة ما يسمى بالكبت، ولا يعرف تلك السمـة الروحانية التي تغلف وتسمو العلاقة الطبيعية الحية بين المرأة والرجل •• بل يترك لنفسه العنان في أن تنطلق على سجيتها ، وأن تعبر عما يجيش به دون وازع أو رادع أخلاقي •

ومما يحكى عن سحيم في هذا المجال كثير •• منه أنه جالس يوما نسوة من بني صبير بن يربوع، وكان من شأنهـم اذا جلسوا للغزل أن يتعابثوا بشق الثياب، وشدة المعالجة على ابداء المحاسن فقـال فيهن :

---

(١) تطور الغزل د • شكري فيصل = ٢٤٩

(٢) التفسير النفسي للادب ـ عز الدين اسماعيل / ٤٧

كأنّ الصهريات يوم لقيننـــا ظباء حنت اعناقها في المكانس
ومنّ بنات القوم ان يشعروا بنا يكنّ في بنات القوم احدى الدهارس
فكم قد شققنا من رداء منيّر ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد برقعٌ دواليك حتى كلنا غير لابس

ويبدو أنه مرّ في حياته بأكثر من تجربة في هذا المجال • حتى كانت احداهـا سببها في موته ، وكل هذه التجارب ـ عدا واحدة على ما يذكر الرواة ـ كانت تبنى على أساس العلاقة المادية البحتة •

أما تلك التجربة الاستثنائية نسبيا ، عند سحيم، نستطيع أن نلمسها في موقف واحد لن يتكرر، ويتجلى هذا الموقف، حين كانت أخت مولاه قد غيرّ السقم من جمالها، وكان قد اتهم بها من قبل، وكان قد أحبها ـ على ما يبدو ـ حبا جما جعله يهذي بحبها في الليل قائلا :

ماذا يريدُ السقامُ من قمرٍ كلُّ جمالٍ لوجهه تَبَعُ
ما يبتغي جارَ في محاسنها أما لـه في القباح متسع؟ ••
غيرّ من لونها وصفّرها فزيد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت لـه ها أنا دون الحبيب يا وجع(١)

أما عدا ذلك ، فقد تعددت المواقف، وتعددت اسماء اللواتي تغزل بهن سحيم، وكثرت التجارب، حتى انه تجول في أكثر من جسد عند زعمه ، ووصف ما بدا وما خفي منه دون حياء أو رادع • وهكذا كانت تبنى علاقاته هذه كلها على اساس مادي بحت نراه حينا في قولـه :

وبتنا وسادانا الى علجانة وحقف تهاداه الرياح تهاديا
توسدني كفا وتثني بمعصم عليّ وتحوي رجلها من ورائيا
وهبّت لنا ريحُ الشمال بقرّة ولا ثوب الا بردها وردائيا
فما زال بردي طيّبا من ثيابها الى الحول حتى أنهج البرد باليا
وأشهد عند الله انّ قد رأيتها وعشرون منها اصبعا من ورائيا (٢)

---

(١) الديوان / ٥٤
(٢) الديوان ١٩ و ٢٠

ومهما يكن من أمر هذا الاتجاه المادي البحت لدى سحيم، فهو وليد أسباب منها ما يشكل عنصرا ذاتيا نابعا من نفسية الشاعر، ومنها ما يشكل عنصرا خارجيا أملته الظروف الحياتية والخارجية .

شخصيتـــه :

سحيم قبل كل شيء عبد أسود ، وهو ينتقم لعبوديته على طريقته الخاصة ، مخالفا بذلك غيره من الشعراء السود أمثال عنترة وخفاف ونصيب المرواني . وعقدة اللون عنده تأخذ شكلا مغايرا ايضا لما عند زملائه من المجموعة نفسها .. فنراه يتكلم عن سواده وعن الرق بمرارة وألم يبدوان ظاهرين للقارئ .

فلو كنتُ وردا لونه لعشقتني	ولكنَّ ربي شانني بسواديـا
فما ضرني ان كانت أمي وليدة	تصرُّ وتبرى بالنقاح لتواديا (١)

فبينما نجد عنترة يصرُّ على أنَّ الشكل واللون لا تأثير لهما في مكانة الانسان، طالما أنهما يحملان من ورائهما أخلاقا وصفات تخوِّل حاملها لأن يكون فارس القبيلة والقوم .. نرى سحيما يصرُّ على أنه لو منح اللون الأبيض والشكل الجميل والنسب الصالح ، لكان الأمر متغيرا تماما .. ولكان فارس قومه في مجال الحب والغرام ..وهذا ما يزيد في آلامه :

أتيت نساء الحارثيين غـدوة	بوجه براه الله غير جميـل
فشبهنني كلبا ولست بفوقـه	ولا دونه اذ كان غير قليـل

ثم نراه سرعان ما يعلن ثورته ، ويضم صوته الى صوت الشعراء السود الغاضب، ليرفعوا معا راية النفس الحرة الكريمة، بغض النظر عن الشكل واللون :

ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما	أو أسود اللون اني ابيض الخلق (٢)

أما العناصر الاخرى المؤثرة في نفسية سحيم، واتجاهه المسلك المادي، والتي أملتها ظروفه الحياتية الأخص منها ، فهي كونه عبدا من الأحباش، والمعروف عن الأحباش" أنهم أمة تعيش على الفطرة ، فهم لا يتورعون في التعبير عن انفعالهم

(١) الديـوان : ٢٦

(٢) المصدر نفسه / ٥٥

وغرائزهم • والذى يذكر عنهم في هذا المجال، أن لهم أشعارا دينية تصف القديس من رأسه حتى أخمص قدميه دون تحرج من ذكر الأعضاء والمحرمة (١) •

والحديث في هذا المجال يذكر بخبر نقله صاحب الأغاني من أنه كان لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد من الحبشة، يتصرفون في جميع المهن، فروى سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله (ص) حين خرج الى حنين، هل لك في حبشي بني المغيرة تستعين بهم ؟ •• فقال : "لا خير في الحبش إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخلتين حسنتين اطعام الطعام والبأس يوم البأس" (٢)

وبعد استعراضي لهذه الأسباب أو العناصر التي تداخلت وتشابكت لتشكل اللحمة والسدى في شخصية سحيم، ألمح سببا آخر يلحّ بعنف، ويصرخ بشدة ليعلن عن نفسه، محاولا تقصية العناصر الاخرى ودفعها وراءه فيظهر بصورة المتمرد الذى يرى في هتك الاعراض والحرمات أقصى ما يمكن أن يشفي غليله، ويروى حقده على المجتمع البلبقي الذى كبله بقيوده وجرّده من انسانيته، ورأى فيه صورة لا تصلح إلا للأمر والنهي والقيام بالواجبات دون نيل أدنى الحقوق •

كان سحيم يحس احساسا مريرا بعبوديته، وبأنه حيالها لا حول له ولا قوة، ولكن لا بدّ من سلاح يجابه به مجتمعه •• وليكن اذاً سلاحا فتّاكا ومؤثرا •• وإن دافع عنترة عن نفسه أمام هذا المجتمع بما وهبه الله من نعمة الشجاعة والبأس فليكن لسان سحيم السيف الذى يضرب، والترس الذى يحمي من الضربات المعاوقة •• وهذا ما كان، حتى أن التمرد والانتقام كانا المحور الذى دارت حوله شخصية هذا العبد • وأشعاره — بأغلبها — ليست الا صورة لفظية لهذا الانتقام :

شدّوا وثاق العبد لا يفلتكم	ان الحياة من الممات قريب
فلقد تحدّر من جبين فتاتكم	عرق على ظهر الفراش وطيب

فاذا ما أخذنا هذه الناحية عند سحيم بعين الاعتبار •• ومدى تأثيرها على نفسيته وبالتالي على أشعاره • لمسنا بعض العذر لشاعرنا المعذب باللاهث وراء اللذة التي ساقته الى مصرعه الذى كان زمن الخليفة عثمان (٣)

---

(١) بين الحبشة والعرب: عبد المجيد عابدين/ ١١٠ـ١٢٤ـ١٢٥
(٢) الاغاني ١/ ٦٥
(٣) خزانة الأدب ٢/ ١٠٢

موتـــــــــه :

اتفقت الروايات على أن موت سحيم كان زمن الخليفة عثمان رضي اللـــه عنه ، وبسبب واحد في جوهره ، وإن تعددت أشكال روايته .

رواية تقول أن سبب قتله امرأة من بني الحسحاس كان قد خلصها من الأسر عند أحد اليهود ، ثم راودها عن نفسها حتى أطاعته ، فقتلوه خشية العار (١).

وبعضها يروى أن قومه بعد أن بلغ الاستياء منه درجة كبيرة، سقوه الخمرة ثم عرضوا عليه نسوة، فلما مرّت به التي كان يهتّم بهما ، أهوى اليها ، فقتلوه (٢).
وأخرى تذكر أن سحيما كان صاحب تغزل ، فاتهمه مولاه بابنته ، وجلس له في مكان يترصده ، فلما تقوّل بما يثير الحميّة ظهر له من موضعه وأجمع على قتلـه (٣) وخرجت صاحبته فحدثته وأخبرته بما يراد به ، فقام يفقف برده ويعفي أثره ، فلمـا انطلق به ليقتل ، ضحكت امرأة كان بينه وبينها هوى وشنئته فقال لها :

ان تضحكي مني فيارب ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفـرج

ولما قدم للقتل قـال :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم ... ان الحياة من الممات قريـب
فلقد تحدّر من جبين فتاتكم ... عرق على ظهر الفراش وطيب (٤)

أما رواية الخالديين فتتلخص بأن سحيماً لما أطال التشبب بنساء قومه تآمروا في قتله ، وتحايلوا عليه حتى كتف نفسه وشدّ وثاقه .. ولما لم يستطع قطعـه ، وثبوا عليه بالخشب فضربوه (٥) .

---

(١) نوادر المخطوطات المقتالون ٩٠
(٢) ديوان سحيم ٦
(٣) ديوان سحيم ٣٤
(٤) نوادر المخطوطات ٩٠ ــ الديوان / ١ــ٢
(٥) الديوان ١ــ٢ .

خفاف بن ندبة

نسبه :

جولتنا الآن مع شاعر ينتمي الى للطائفة نفسها من الشعراء، من حيث اللون ومن حيث نسب الأم .. جولتنا مع واحد من الشعراء الذين عرفوا بأمهاتهم فقال عنه الرواة : خفاف بن ندبة، وندبه أمه هي ابنة الشيطان بن قنان (١)، والنَدَب – كما تقول جمهرة العرب – قبيلة من العرب، ورجل نَدبٌ اذا كان معوانا منجدا، ويقال للرجل نَـدبٌ وللمرأة نَدبةٌ – اذا كانا سريعي النهوض في الامور ومن ذلك اشتقاق نَدبه، وهي اسم أم خفاف أحد سودان العرب وفرسانها (٢) .

أما أبو خفاف فهو عمير بن الحارث بن الشريد بن رباح السلمي (٣) وتضيف بعض الروايات : ابن رباح بن يقظة بن عصبة بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم حيث تعود في آخر نسبها الى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار (٤) ..

سيرته :

خفاف هذا حمل لواء قيس في الشعر . والفروسية (٥) بل عده بعضهم من أشعر فرسانها (٦) . فأغلب المصادر تشير الى أنه كان يلقب بأبي خراشة (٧). وهو ابن عم الخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة الصحابية المشهورة (٨). وعلى هذا اتفقت الروايات التي تحدثت عن خفاف، بعد أن اعتبرته من أغربة العرب الثلاثة المتفق عليهم مع عنترة وأمه زبيبة، والسليك وأمه السلكة .. ثم خفاف وأمه ندبة حيث سباها الحرث بن الشريد حين أغار على بني حارث ابن كعب، ووهبها لابنه عمير فولدت له خفافا (٩) من هنا نلاحظ ان نسب الشاعر – هذا – هيأ له مكانة في قبيلته وبين قومه /قلّ أن أعطيت لغيره من الشعراء السود ، الى جانب أنها خلصته – بقدر ما – من

---

(١) نوادر المخطوطات ١١ / ٣١١ – الكامل ٢/ ٢٢٦
(٢) جمهرة اللغة ١/ ٢٤٩ لابن دريد
(٣) نوادر المخطوطات ١١/ ٣ – شعر خفاف جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي – الاعلام للزركلي ٢/ ٣٥٦ – الشعر والشعراء ١/ ٣٠٠
(٤) الاغاني ١٨ / ٢٢
(٥) خزانة الادب ٤/ ١٥
(٦) الاعلام ٢/ ٣٥٦
(٧) – الشعر والشعراء ١/ ٣٠٠ – ٣٠١
(٨) الشعر والشعراء ١/ ٣٠٠ – ٣٠١
(٩) الديوان .

استفحال عقدة اللون، وشدة تأثيرها على نفسية • فتراه لم يستعبد ولم يغمز في نسبه، اضافة الى فروسيته التي أشادت بها كتب الأدب والتي اتفق عليها أغلب الرواة ممن تحدثوا عنه وعن قبيلته • الا أننا لا نعدم بعض الآثار التي تركتها تلك العقدة، والتي انعكست على بعض أشعاره فبدا من خلالها خفاف مقهورا حين يقول :

كلانا يسوده قومه • على ذلك النسب المظلم

ومهما حاولنا الأخذ برأي الدكتور نوري حمودي القيسي في هذا المجال، الا أننا سرعان ما نعود الى الأخذ بعين الاعتبار طبيعة المجتمع الجاهلي، والأسس التي يقوم عليها، أو التي تشاد عليها صروح النسب والمنزلة القبلية •• وملخص رأي الدكتور القيسي قوله : " بالرغم من أن خفافا عد من أغربة العرب، وأن لونه كان أسود حالكا، الا أن ذلك لم يترك في نفسه أثرا، أو كما يسميها علماء النفس (عقدة) كما ترك في نفس عنترة، والذي يبدو أن خفافا وغيره من الاغربة، الذين لم يتحدثوا عن هذه الظاهرة، كانوا يجدون غضاضة في الحديث عنها، لأنها كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلي في تلك الفترة " (١) •

فالمجتمع الجاهلي عرفنا فيه العصبيات القبلية، وعرفنا فيه أهمية النسب، عرفنا فيه الطبقية القبلية •• عرفنا فيه مكانة السيد ومكانة العبد •• مكانة الحر ومكانة الرق •• مقام الحرة ومقام الجارية •• ومجتمع حكمته تلك الامور، وقيدته تلك الأعراف لا بد من أن ينظر بشذر الى طبقة العبيد بل من أن يقيم عليهم الحد ويرسم لهم حدودا تمنعهم من تخطيها، أو حتى التمرد عليها •• الا من منحه الله من الصفات والخصال، ومن الجرأة والقوة بحيث يستطيع أن يتحدى بها ذلك المجتمع •• ويجبره على الاعتراف، فيتخطى الحدود المحرّمة، ويبحث لنفسه من مكان تحت الشمس وهذا ما وجدناه عند عنترة •• وخفاف بدوره، حاول بما لحقه من نسبه المعروف، وقبيلته المشهورة بين القبائل، ومن حمل لواء الفروسية في الشعر والشجاعة •• كل ذلك استطاع أن يخفف عنده من عقدة اللون، ومن آثارها في نفسه وشعره وردود فعلها على حياته، ولكننا لا نستطيع أن نقر انعدام انعكاسها المطلق • ولا نعدم بالتالي بعض الجراح التي ما زالت تنزف حتى أنها صبغت الدماء باللون الأسود :

---

(١) شعر خفاف، ١٠٨

فجادت له يمنى يدى بطعنة كست متنه من أسود اللون حالكا (١)

شعـــــره :

خفاف بن ندبة شاعر مخضرم، عاش دهرا في الجاهلية وأدرك الاسلام فأسلم، وقد اتفقت الروايات على حسن اسلامه، فهو صحابي، شهد فتح مكة مع النبي (ص) ومعه لواء بني سليم، كما شهد حنينا والطائف (٢) . ومما يذكر له في هذا المجال ثبوته على الاسلام حين ارتد من ارتد من قومه عن الدعوة الجديدة أيام الخليفة أبي بكر، وهو يترجم ثباته على دين الاسلام في قوله :

لا دينكم ديني ولا أنا كافر حتى يزول الى صراة شمام

بل ويمدح الخليفة أبا بكر فيقول من قصيدة طويلة :

ان أبا بكر هو الغيث اذ لم تشمل الارض سحاب بماء
تالله لا يدرك أيامه ذو طرة حاف ولا ذو حذاء
من يسع كي يدرك أيامه يجهد الشد بأرض فضاء
المرء يسعى وله راصد تنذره العين وثوب الضراء

وايمانه الصادق، طهّر نفسه من أردان الحياة، وجعله زاهدا في متعها وآربها، مما أطلق لسانه في مجال آخر من الشعر، مجال يلامس الحكمة فيقول :

يا هند يا أخت بني الصادر ما أنا بالباقي ولا الخالد
ان أمسي لا أملك شيئا فقد أملك أمر المنسر الحارد (٣)

كما ضمن شعره مفاهيم جديدة، بعد انتشار الدين الجديد، وهذا ما يظهر في قصيدته النونية، ولا سيما الأبيات التي تشير الى ما كان بينه وبين بني عمه من خلاف :

انّ الذى يقبض الدنيا ويبسطها ان كان أغناك عني سوف يغنيني
الله يعلمني، والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني
ماذا عليَّ وان كنتم ذوى رحمي أن لا أحبكم اذ لم تحبوني (٤)

وزهد خفاف في متع الحياة، يعتبر مظهرا من مظاهر تأثره بتعاليم هذا الدين لأن الآخرة خير وأبقى .. فقد أخبرنا الأصمعي أنّ خفافا بعد ما زهد بمتع الحياة

---

(١) شعر خفاف : جمع وتحقيق د . نورى حمودى القيسي
(٢) البيان والتبيين : ٢/١١ــ خزانة الادب : ٤/١٥ــ الاعلام : ٢/٣٥٦
(٣) الاصمعيات : ٢٩ وبنو الصادر هم بطن من بني مرة بن عوف
(٤) شعر خفاف .

استبقى لنفسه بأمرين : أحدهما قيادة الجيش وامتلاك أمره ، والآخر ذلك الفرس الذى تحته بالسرعة والابقاء ويلحاقة خطار الوحش بصيده ويمسكه على صاحبه (١)

واذا ما أخذنا بالاعتبار قلة المادة المنقولة عنه ، وعن أشعاره ، اضافة الى قلة المدة التي عاشها بعد الاسلام، استطعنا أن نلم بالموضوعات الرئيسية في شعر خفاف :

١ — مهاجاته للعباس بن مرداس وهذا يشكل معظم شعره .

٢ — المفاخرة بنفسه وبقومه ، حيث اعتبرت قصائده سجلا لتاريخ حياته ، ومفاخر قومه ومآثرهم ..

٣ — الوصف لمظاهر الطبيعة في البادية من برق سحاب ومطر ورياح وسيول وحيوانات .

٤ — الغزل ، وقد جرى فيه مجرى القدماء فكان تقليديا

ولا بد للمتحدث عن شعره ، وعن أخباره ، من التوقف قليلا عند الخط الأول من خطوط شعره ، وهو مهاجاته للعباس بن مرداس .. وخلاصة الحديث عن هذا النزاع، أنّ العباس — وهو زعيم القبيلة — قد وصله خبر خفاف، وأنه يذمه على مسمع من أهالي قبيلته ، ويتهمه بخصال تقعد به عن الزعامة وهي : " اتقاؤه بخيله عند الموت واستهانته بسبايا الحرب، وقتله الأسرى، ومكالبته للصعاليك على الأسلاب " . وبفعل ذلك وقع الخلاف بين الاثنين وكان ما كان من المهاجاة ومنها ما قاله خفاف :

أرى العباس ينقص كل يوم ويزعم أنه جهلا يزيد

شخصيته :

اذا كانت الأخبار والاشعار المروية عن خفاف في نشأته الجاهلية ثم في الاسلام هي المصدر الذى تستقي منه الخطوط العريضة لهذه الشخصية فان أخبار هذا الشاعر من القلة بحيث تجعل القارئ في حيرة واستغراب من أمره . ولكننا رغم هذا ..

(١) الاصمعيات / ٢٦ — وبنو الصادر : بطن من بني مرة بن عوف .

نحاول أن نتعمق النظر فيها وصلنا فنتعرف على شخصية: كان لها وزنها، ولها مكانتها سواء الموروثة أم المكتسبة . فالموروثة منها ما يعود الى نسبه لأبيه عمير بن الحارث بن الشريد السلمي، والخنساء الصحابية المشهورة (ابنة عمه) .. وهو الى ذلك شاعر من شعراء الجاهلية وفرسانها (١) والمكتسبة منها ما يعود الى صلته الوطيدة بالدين الذي أشرق بنوره على الجزيرة العربية . فلقد شهد فتح مكة مع النبي ومعه لواء بني سليم (٢)، كما شهد حنينا والطائف، وهو ممن ثبت اسلامه حين ارتد من ارتد ممن لم يدخل الايمان الى قلوبهم .. وقد زادت هذه الامور من قوة شخصية خفاف، وأكسبتها جرأة كان يتحدى بها زعيم القبيلة .. ويذمه، على مسمع من أهالي قبيلته، ويتهمه بخصال تقعد به عن الزعامة . وأمور كهذه كانت قمينة بأن تمحو كل أثر لحدة الشعور باللون عند خفاف، لو لم يعطه الله حساسية وشفافية لم تستطع أن تتحمل عادات المجتمع القبلي، وبالتالي تأففت منه واشتكت وكانت شكوى مرة حين قال :

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم

غمامة سوداء هل تستطيع حجب ضياء الشمس ... أما كان من الممكن أن تغطي بيض فعاله في مكة وحنين والطائف سواد لونه .. أما كان نسب أبيه بقادر أن يغطي ضعف نسب أمه ؟ ..

رغم ذلك كله .. استطاع خفاف أن يدفع التيار المعادي بقوة، وأن يقف بوجهه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. وأن يبقى مرفوع الرأس، موفور الكرامة، فلم يتكسب، ولم يتبذل، وانما رضي أن يكون مقاتلا شجاعا، وفارسا مغوارا، ينافح عن الدعوة، ويقاتل المرتدين، فيسجل للسود من بني قومه صفحة في سجل التاريخ ناصعة البياض .

---

(١)
(٢) خزانة الادب : ١٥/٤ — البيان والتبيين : ١١/٢ .

عبدة بن الطبيب

نسبه :

هو عبدة بن الطبيب، والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس ابن عبد الله بن عبد تيم بن جشم بن عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم • (١) وتميم كلهما كانت في الجاهلية يقال لها عبد تيم، وتيم صنم كان لهما يعبده أهلها • ويقال لعبد شمس أو (عبشمس) قريش سعد وذلك لصيتهم الذائع في الجمال (٢) • على أن عبدة لم يكن ليشمله هذا الصيت الذائع في الجمال رغم انتسابه الى القبيلة، بل كان على العكس من ذلك كما تصفه الروايات عبدا حبشيا أسود اللون، لم يذكر عنه ما يوضح سيرته غير اشارات يسيرة عرفنا منها أن له جملة من الاولاد كان يوصيهم بعد أن أسنّ، ثم تذكر منهم أمالا (٣) •

سيرته :

وعبدة من الشعراء المخضرمين (٤) الذين رسخوا أقدامهم في الشعر جاهليا واسلاميا • ومما يؤيد هذه الشهادة ما ذهبت اليه القصة المشهورة التي تناقلتها كتب الأدب والتي تلخص رأي ربيعة بن حذار اليربوعي في شاعرية أربعة من شعراء ذلك العصر •

تقول الرواية (٥) : تحاكم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي الى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر •• أيهم أشعر من صاحبه، فقال ربيعة للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئا فانتفع به •• وأما أنت يا عمرو، فان شعرك كبرود حبر، يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فان شعرك قصر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة : فان شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر • " وكأنه يريد القول : أن شعر عبدة محكم

---

(١) الاغاني : ٢١/٢٨ — الشعر والشعراء : ٢/٧٠٥
(٢) الشعر والشعراء ٢/٧٢٧
(٣) شعر عبدة : د • يحيى الجبوري /٦
(٤) الاغاني : ٢١/٢٨ — الاعلام للزركلي : ٤/٣٢٢
(٥) شعر عبدة /٧

لا حشو فيه ولا لغو .. وربط ، ولهذه الصفة فيه ، قال عنه القدماء : انه من الشعراء المجيدين ولكن المقلين .

أما عبدة، الشاعر المسلم، فقد حسن اسلامه ، وثبتت عقيدته فزاد عنها بالكلمة والسيف بعد أن كان يتوهج في الجاهلية باللصوصية .. وكان ممن شهد الفتوح الاسلامية، فشهد مع المثنى بن حارثة، والنعمان بن مقرن بالمدائن قتال الفرس، بقيادة زعيمهم هرمز ، وكانت له، في ذلك آثار مشهودة على المستويين القتالي والشعري (١) مع جملة من الشعراء الذين اشتركوا في الفتوح الاولى ، ووصفوا أنفسهم وأشعارهم في غد منها .. وزادوا عن حياض الدولة الاسلامية الجديدة، التي بزغ فجرها ، وسطعت شمسها ، وكان لها المجد والعز في كل مكان ..

واسلام عبدة لم تحدده كتب الأدب التي تحدثت عن أخباره القليلة .. الا أن الدكتور يحيى الجبوري الذى جمع شعره ، يتوقع أن يكون قد أسلم مع قومه سنة تسع من الهجرة (٢) .

وعلى ما يبدو، أن الاسلام كان له التأثير الأول والأقوى في تهذيب نفس هذا الشاعر العبد ، كما أن آثار الدعوة الجديدة وتعاليمها وتأثيرها في عبدة تظهر جلية في قصيدته التي يوصي فيها بنيه وصايا نابعة من صميم الدعوة، التي تمثلها قلب الشاعر ، واهتدى بهديها ، وطهر نفسه وما علق بها من ادران اللصوصية الجاهلية، لا سيما أنه قالها بعد أن كبر به العمر

ابنيّ اني قد كبرت ورابني	بصري، وفي لمصلح مستمتع
فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا	تبقى لكم منها مآثر اربع
أوصيكم تقوى الاله فانه	يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم، وطاعة أمره	ان الأبرّ من البنين الأطوع

شعره :
=========

على قلة ما نقل الينا من شعر عبدة بن الطبيب، فقد جمع في شعره أغلب الفنون من رثاء وفخر وحماسة ووصف وحكمة وغزل (٣)

---

(١) الاعلام : ٤/ ٣٢٢ ـ الشعر والشعراء : ٢/ ٧٢٧ ـ ٧٢٨ ـ الاغاني : ٢١/ ٢٨
(٢) شعر عبدة : / ٧
(٣) المصدر نفسه / ١٤

ففي الرثاء يطالعنا عبدة بعاطفة صادقة أكثر ما لمسناها في رثائه لقيس بن عاصم التميمي • فقد كان بين قيس وعبدة جفوة، هجره بعدها قيس ولما خرج عبدة في يوم يسأل عن دية بعد أن حمل دما في قومه، ساق اليه عاصم بن قيس الدية كاملة عن ماله، وقد أثرت هذه الحادثة في نفس عبدة وعقد العزم على مصالحته اثر تسليمه الدية لقومه، لكن المنية كانت قد سبقته وأخذت عاصم بن قيس مما أحزنه أشد الحزن فوقف على قبره منشدا :

عليك سلام الله قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من ألبسته منك نعمة	اذا زاد عن سخط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد	ولكنه بنيان قوم تهدما

والعاطفة الجياشة الصادقة التي نلمسها بوضوح، ونحس بمدى عمقها، هي التي جعلت بعضهم يعتبرها من أفضل ما قيل في الرثاء، حتى أن البيت الأخير اعتبر أرثى بيت قالته العرب (١) •

أما في الهجاء، فقد قيل عن عبدة أنه لا يحسن هذا الفن الشعري •• فقد روى صاحب الأغاني أن رجلا قال لخالد بن صفوان : " كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو، فقال : لا تقل ذلك فوالله ما أبى عن عيّ ولكنه كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة، كما يرى تركه مروءة، وشرفا • " (٢) وهذا القول لا يمنع من أن عبدة كان قد هجا بعض الاشخاص من هذا القبيل الابيات التي هجا فيها يحيى بن هزال وابنيه فقال :

أنت الذي لا نرجّي نيله ابدا	جلد الندى، وغداة الروع خوار
تدعو بنيك عبّادا وحذيمة	فا فأرة شجّها في الحجر محفار

وعبدة في حياته •• له وقفة مع المرأة، ترك في أثرها أبياتا حدثنا فيها عن عديد من النساء اللواتي لقيهن وكانت له تجربة معهن •

وهو في حديثه عن المرأة، يذكر كل ما يتعلق بها من وصف لديارها التي أصبحت أطلالا • وما يتركه تذكر هذه الديار من حسرة في قلبه :

---

(١) الاعلام ٤/ ٢٢٢

(٢) الاغاني ٢١/ ٢٥ـ٠

(٣) شعر عبدة ١٦ ـ١٧

وقفت بها والشمس دون مغيبها ... قريبا وهاج الشوق من يتشوق
قليلا فلما استعجمت عن جوابنا ... تعزيت عنها والدموع ترقرق
فلا الدار تدنيها لنا غير فينة ... ولا حبها عن شاحط النأى يخلق

ثم من وصف لجسدها ومحاسنه، ومن تصوير لعواطفه تجاهها، وما يلقاه في حبها:

كأنّ ابنة الزيدى يوم لقيتها ... هنيدة مكحول المدامع مرشق
تراعي خذولا ينفض المر شادنا ... تنوش من الضال القذاف وتعلق

واذا ما أحس أن الشيب قد دبّ في رأسه، وأن الشباب قد رحل، فلا بدّ عند ئذ من أن يودع الحب، ويزجر نفسه عن التمادى في عواطفها:

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... ان الصبابة بعد الشيب تضليل

وما عدا وصف المرأة ومظاهر حبها .. فهو وصاف خمرة من الدرجة الاولى. حتى أن بعضهم يعده رائدا من رواد وصفها (١) وبأن من جاء بعده، ولا سيما أبو نواس، قد تأثروا به ..

ومع جمع عبدة لأغلب فنون الشعر، الا أننا لا نعدم في شعره سمة، كانت، ولا زالت، رئيسية في شعر الشعراء السود، ألا وهي عقدة اللون فأين نجد ها عند عبدة ؟ وكيف ؟ وما هو مدى تأثيرها فيه .. ؟ ..

من الغريب ألا نجد اشارة، مهما تضاءل شأنها، لها دلالتها على السمة حتى ان القارئ لشعره، والباحث عن تأثير تلك العقدة، يقف بحيرة أمام هذا الشعر وهو يتساءل ـ بعد أن يضع سواده وحبشيته جانبا ـ حقا .. هل عبدة بن الطبيب من الشعراء السود ؟ .. واذا كان كذلك، واذا آمنا بأن نفسية الشاعر المتألمة من هذه العقدة لا بدّ أن تعكس آثارها بشكل ما على شعره، كما عكسته على شعر غيره من الطائفة نفسها، .. والذين لم ينج واحد منهم من تأثيرها ـ مهما كبرت أو صغرت ـ ضمن ظروف المجتمع القبلي آنذاك. ورغم ما أحاط ببعضهم من ظروف مساعدة على التخلص الجزئي من تلك العقدة ..

هناك من يبرر هذا لسببين، أولهما: قلة الشعر المنقول الينا، اضافة الى قلة الأخبار المروية عنه، وعلى وجه الخصوص في الجاهلية. وثانيهما: بزوغ فجر

---

(١) الشعراء السود د. عبده بدوى ٦٨ .

الاسلام، وما نشر بمجيئه من تعاليم العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص أمام الجميع من الاجناس والألوان كلها .

الا أننا نستطيع أن نزعم أن مشكلة اللون ، كانت من بين الاسباب التي أضاعت شعره ، أو نسبته الى غيره من شعراء تلك الفترة البارزين ..

شخصيته :

كيف بدت شخصية عبدة من خلال شعره ، طالما أن الكتب سكتت عن نقل أخباره الا القليل منها ، لا سيما ما يتعلق منها بحياته في الجاهلية فقالت عنه مختصرا يفيد بأنه كان في الجاهلية مشهورا بخصلتين : اللصوصية والشاعرية (١) أما اللصوصية فليس هناك ما يبررها الا الدافع الذى دفعه اليها . فعبدة شاعر أسود ، ويكفي اللون آنئذ ليكون سببا في دمار صاحبه ماديا ومعنويا . لكن اذا ما أتيح لهذا الاسود أن يرد عنه هذا الدمار بشتى الطرق فلن يتوانى ، وقد رأى الشاعر في اللصوصية طريقا يقتص به من السادة، ويرد عنه وعن عائلته الجوع والفقر ، ولم يكن عبدة الوحيد في هذا الميدان .. فقد سبقه السليك بن السلكة بعدما وجد فيه نوعا من التمرد شفاء لما في نفسه من حقد تجاه ظلم المجتمع والمجتمع لذنب لا علاقة له ولطائفته به .

وما يزيد في قناعتنا حول هذا الموضوع، أن المؤرخين للادب عادوا فذكروا بأن عبدة ترك اللصوصية بعد بزوغ الاسلام، وايمانه بتعاليمه وقيمه .. فقد رأى في هذه التعاليم ما انتظره طويلا فهي تقوم على العدل والمساواة بين جميع الناس دون تمييز الا بالتقوى .. وهي ستكون خير مقتص من ظالم المجتمع .. لذلك يترك اللصوصية ويعمق ايمانه ، حتى رأينا له شعرا تفوح منه رائحة التقوى، وتزهو به الحكمة ..

لهذه الامور ، بدت لنا شخصية عبدة مزيجاً من أمور متعددة .. فهي مزيج من القوة والتمرد ، ومن الاتزان والحكمة، ومن الوفاء والاعتراف بالجميل .. وما كان شعره — على قلته — الا دليلا قويا على هذه الأمور ..

---

(١) شعر عبدة : ٦ /

الفصل الثاني
الامويون

نصيب الأكبر " المرواني "

نسبه :

أول ما يطالعنا في الروايات التي اهتمت بنقل نسب نصيب تعددها فيقول بعضها : هو نصيب بن رباح ، مولى عبد العزيز بن مروان ، وكان لبعض العرب من بني كنانة السكان بودان ، فاشتراه عبد العزيز منهم • وقيل : أعتقوه ، فاشترى عبد العزيز ولاءه منهم ، كما ذكر ، بل كاتب مواليه فأدى عنه مكاتبته (١) ، وأخرى من الروايات تقول : أن نصيبا كان عبداً لبني كعب بن ضمرة من كنانة ، أو من بلي من قضاعة (٢) • ويكنى بأبي الحجناء (٣) وقيل : أبا محجن (٤) أما اسمه ، فهو النصيب ، كما أجاب من سأله : " لم سميت نصيبا ، ألقولك في شعرك طينها النصيب ؟ قال : لا ، ولكنني ولدت عند أهل بيت من ودان ، فقال سيدي : ايتونا بمولودنا هذا لننظر اليه ، فلما رآني قال : انه لمنصب الخلق ، فسميت النصيب ثم اشتراني عبد العزيز بن مروان فأعتقني " • (٥)

وقد سمي نصيبا الاسود المرواني ، تمييزا له عن نصيب الأسود الهاشمي ، ونصيب بن الاسود الذين ذكرهم التبريزي في تهذيبه • (٦)

ومع الاتفاق على سواده ، فقد تعددت الروايات التي تحدثت عن نسبه ، فبعضها يؤكد على أنه كان ابن نوبيين سبيين كانا لخزاعة ، ثم أن أمه — وكانت تدعى سلامة — كانت أمة سوداء وقع عليها سيدها فحبلت بنصيب ، ثم اشترتها امرأة من خزاعة وهي حامل

---

(١) الاغاني : ١ / ٣٠٢ — سمط اللآلي : ٢٩١ — النجوم الزاهرة : ١ / ٢٦٢
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢ / ٦٧٥ — زهر الآداب : ٢ / ٤٤ — الشعر والشعراء : ١ : ٣٧١
(٣) سمط اللآلي : ٢٩١ — البيان والتبيين : ١ / ٢١٩
(٤) النجوم الزاهرة : جمال الدين الاتابكي ١ / ٢٦٢ — نوادر المخطوطات ، ٢٩
(٥) الاغاني : ١ / ٣٢٩ — ومنصب الخلق : مستقيمه •
(٦) المزهر للسيوطي ٢ / ٤٢٥ •

فأعتقتها في بطنها . والبعض الآخر يقول أن أباه كان من بني ضمرة ، وكان شاعرا فحلا فصيحا مقدما في النسيب والمديح ، عفيف اللسان حتى يقال أنه لم يَنْسُبْ قط الا بأمرأته (١) .

سيرتـــه :

زمن نصيب هو زمن الخلافة الاموية ، ابان ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٤ — ٦٥ هـ) حيث عاصر كلا من عبد الملك ، الوليد ، سليمان ، عمر بن عبد العزيز ، يزيد بن عبد الملك ، وعاش ثلاث سنين من خلافة هشام . وعلى ذلك يرجح الدكتور داود سلوم — الذي جمع شعره — أن تكون ولادته قد حدثت في خلافة معاوية (٤١ — ٦٠ هـ) وعلى أبعد تقدير سنة (٤٤ هـ) ووفاته (١٠٨ هـ) فتكون حصيلة حياته بين سنة الولادة التقديرية ووفاته أربعة وثمانين عاما (٢) .

وانسان يحمل بين جنبيه قلبا ينبض بالمحبة لأبناء جنسه ، ولأبناء جلدته على وجه الخصوص ، والعطف على حالهم ، ويحمل شعورا حساسا ورغبة جامحة في تخليصهم مما كبلتهم به الأيام والظروف .. كان لا بدّ لهذا الانسان من أن يجد وسيلة ناجحة للوصول الى تحقيق مطمحه ، وطريقا سالكة عبر دروب متعددة ..

لقد وجد نصيب في نفسه بوادر بذور شعرية ، تدافق يحدث نفسه بآمال عريضة ولكن ضمن تلك الظروف لا بد أن يسأل نفسه .. هل سترى هذه البذور النور ؟ وهل سيكتب لها النمو والحياة ؟ .. واذا ما كتبت لها الحياة ، فهل ستجد اليد الحانية التي ستسقيها وستتعهدها بالرعاية حتى تؤتي أكلها ؟ ..

لقد كانت نقطة الصفر حين ولى نصيب وجهه شطر مصر ، يريد أن يعرض موهبته ، وكله شوق وأمل الى ما ستلاقيه هذه الموهبة من قبول أو رفض . يقول نصيب : قلت الشعر وأنا شاب فأعجبني قولي ، فجعلت آتي مشيخة من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة ، ومشيخة من خزاعة ، فأنشدهم القصيدة من شعري ، ثم أنسبها الى بعض شعرائهم الماضين ، فيقولون : أحسن والله ؟ هكذا يكون الكلام ؟ وهكذا يكون الشعر ، فلما سمعت ذلك منهم علمت أني محسن . فأزمعت الخروج الى عبد العزيز بن مروان وهو يومئذ بمصر ، فقلت لأختي امامة ، وكانت عاقلة

---

(١) الاغاني : ١ / ٣٢٥
(٢) معجم الادباء ياقوت الحموي = ٢٢٨

جلدة ، : أي أخية ، اني قد قلت شعرا ، وأنا أريد عبد العزيز بن مروان ، وأرجو أن يحتقك الله عزّ وجل وأمك ومن كان مروقا من أهل قرابتي • قالت : انا لله وانا اليه راجعون أيا ابن أم ، اتجتمع عليك الخصلتان : السواد ، وأن تكون ضحكة للناس •• فلما أنشدتها قالت : أحسنت والله ، في هذا والله رجاء عظيم فاخرج على بركة الله • (١) وهكذا رحل نصيب وهو بين مشجع لخروجه كأخته التي كانت فيما يبدو عالمة بأمور الشعر ، وبين مثبط لهمته كعجوز وأمه التي ما لبثت أن عدلت عن رأيهما لما رأت تصميمه •

ومن هنا كانت بداية نصيب • وكل بداية تطمح الى القمة، ستلاقي صعوبات وتحديات كثيرة ومتنوعة ، نرى نصيبا طامحا واثقا من نفسه مصمما على المتابعة • ويعترض طريق مسيرته جملة من الشعراء الذين حاولوا أن يبثوا بذور اليأس في قلبه فنراه يلتقي بالفرزدق وبعد أن يعرض عليه شعره يقول له : " ويلك •• أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك فلست في شيء •• ان استطعت أن تكتم هذا على نفسك " •• وتتابع الاغاني القصة على لسان بطلها الذى يقول عن نفسه : " فافتضحت عرقا ، فحصبني رجل من قريش كان قريبا من الفرزدق وقد سمع انشادى، وسمع ما قاله الفرزدق فأومأ الى وقال : ويحك أهذا شعرك الذى أنشدته الفرزدق ؟ قلت : نعم قال : قد والله أصبت •• والله لئن كان الفرزدق شاعرا لقد حسدك فانا لنعرف محاسن الشعر •• فامض لوجهك لا يكسرنك • فسرني قوله وعلمت أنه صدقني فيما قال فاعتزمت على المضي • " (٢)

ويتمكن نصيب من الوصول بعد لأى الى عبد العزيز •• ويطول انتظاره حتى يكاد ييأس ، ويتدخل القدر مرة أخرى حيث تقدم له المساعدة من بعض الحاشية، الذين يستأذنون له بالدخول على عبد العزيز الذى يأذن بأن هذا الأسود المستأذن في الدخول ليس الا من يهزأ به ويسخر منه •• لكنه ما يلبث أن يبهره حين ينشده :

---

(١) الاغاني ٢٠٥/١

(٢) المصدر نفسه ٢٠٦/١

لعهد العزيز على قومـــه ... وغيرهـم مـــن غامـــره

فبابك أسهل أبوابـهـــم ... ودارك مأهولة عامـــرة

وكلبك أرأف بالزائريـــن ... من الأم بابنتها الزائـــرة

وكفك حين ترى المعتفيـن ... أندى مـن الليلة الماطـرة (١)

وما أن ينتهي من انشاده ، حتي يستأذن الحاجب للشاعر أيمـن بن خريـم فلما دخل واطمأن قال له الامير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ قال أيمـن : والله لنعم الغادي في اثر المخاض •• هذا أيهـا الأمير أرى ثمنه مائة دينار • فقال : فان له شعرا وفصاحة فقال أيمـن لنصيب أتقول الشعر ؟ ولما أجابه نصيب بنعم قـال : ثلاثين دينارا قال الأمير : يا أيمن ارفعه وتخفضه أنت ؟ قال : لكونه أحمق أيها الأمير ما لهذا والشعر ؟ أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن الشعر ؟ فقال : أنشده يا نصيب ، فلما أنشده قال : شعر أسـود هو أشعر أهل جلدته •• قـال : هـو والله أشعر منك • على أثر ذلك تكون القطيعة بين الامير وشاعره الاول أيمن (٢)

والقصة هذه كما أوردتها كتب الادب نستطيع أن نعتبرها سجـلا صادقـــا لانطلاقة هذا الشاعر •• ثم مسيرته المحفوفة بالمخاطر ثم ثبات شاعرية نصيـــب بعد ذلك رغم مضايقات الشعـراء له •• اذ نجده يجتمع مرة أخرى بالفرزدق عـنـد سليمان بن عبد الملك • ويطلب سليمان من الفرزدق انشاده فيبدأ بقولـه :

وركـب كـأن الريح تطلب عندهم ... لهاترة من جذبها بالعصائـب

الى أن ينتهي الـى القـول :

اذا آنسوا نارا يقولون : ليتها ... وقد خصرت ايديهم نار غالـب

ويغضب سليمان •• ويستأذنه نصيب في الانشاد على الـروى نفسه فيقول :

أقول لركب صادرين لقيتهـم ... قفا ذات اوشال ومولاك قـارب

قفوا خبروني عن سليمان انني ... لمعروفه من أهل ودّان طالـب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائـب

فيقول سليمان للفرزدق : كيف تراه ؟ فيقول : هـو أشعر أهـل جلدتـه ثم يقوم وهـو يقول :

---

(١) الاغاني ١ / ٣١٢ ـ معجم الادباء ٢٢٨

(٢) الاغاني ١/٣٠٨

وخير الشعر أشرفه رجـــالا وشرّ الشعر ما قال العبيـــد

وهكذا .. استطاع نصيب أن يفرض نفسه بشاعريته الفذة، وأن يسقط شعـــراء كانوا بالأمس القريب ندماء الأمير . واستطاع بذلك أن يدخل مرحلة جديدة، ابتسمت له فيها الحياة، بعد أن خلف وراءه ذلا وعبودية كانتا قد لحقتا به منذ أن رأت عيناه النور . لقد كافأه عبد العزيز على مدحه، وأعطاه مـــن المال ما استطاع أن يشتري به نفســه (١) . ثم يكسب بعد ذلك مـــالا كثيرا يستطيع أن يحرر به أخته وأمه وبعض أقربائه (٢) . ثم يكوّن لنفســه مكانة يحسده عليها كثيرون، الأمر الذي دفع مواليه أن يستلحقوه فأبـــى وقال : " لأن أكون مولى لاحقا أحب الي من أن أكون دعيا لاحقا، وقـــد علمت أنكم تريدون بذلك مالـي، والله لا أكسب شيئا أبدا الا كنت أنا وأنتم فيه سواء كأحدكم، لا أستأثر عليكم فيه بشيء أبدا . وكان كذلك معهم حتى مات، اذا أصاب شيئا قسمه فيهم فكان كأحدهم " . (٣)

ورغم ما وصلت اليه شهرة نصيب الشعرية، ورغم المنزلة التي نزلها بعد دخوله القصر الملكي، وحيازته رضى وعطف أصحاب القصر الا أنه لم يسلـــخ نهائيا عن طبقته .. كما لم تستطع أضواء القصر — رغم قوتها — أن تبهره فتخفي وضعه، وتمحو عقدة لونه ، فهو كثيرا ما يرد على سخرية البعض مـــن سواده بمنتهى الهدوء الحزين ، فيبدو وكأنه لا حول له ولا قوة .. فقـــد هجاه شاعر من أهل الحجاز فقال فيه :

رأيت أبا الحجناء في الناس حائرا ولون أبي الحجناء لون البهائم

تراه على ما لاحه من سواده وان كان مظلوما له وجه ظالم

فقيل لنصيب : ألا تجيبه ؟ .. قال : لا ، ولو كنت هاجيا لأحد لأجبته ، ولكـــن الله أوصلني بهذا الشعر الى خيره فجعلت على نفسي ألا أقوله في شر . ومـــا وصفني الا بالسواد وقد صدق " . (٤) فهو قانع بلونه ، وقانع بأن لديه مـــن الصفات ما يعوضه عن هذا اللون ، فيحاول بذلك أن يقارع خصمه بمنتهى الحكمة

---

(١) الاغاني ١ / ٣١٢ — معجم الادباء ١٩ / ٢٢٨

(٢) الاغاني ١ / ٣١٧

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣١٤

(٤) المصدر نفسه ١ / ٣٢٨

والاتزان والتعقل بعيدا عن ثورة العاطفة فيقول :

ليس السواد بناقصي ما دام لي	هذا اللسان الى فؤاد ثابت
من كان ترفعه منابت أصله	فبيوت أشعاري جعلن منابتي
كم بين أسود ناطق ببيانه	ماضي الجنان وبين ابيض صامت
اني ليحسدني الرفيع بناؤه	من فضل ذاك وليس بي من شامت(١)

وشاعر مثل نصيب يعرف قدر نفسه ، يعتذر برفق عن منادمة الأمير حين يطلب منه ذلك فيقول : " أصلح الله الأمير، اللون مرمد ، والشعر مفلفل ، ولم أقصد اليك بكريم عنصر ، ولا بحسن منظر، وانما هو عقلي ولساني ، فان رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل " . (٢) وهذا هو دائما في كل ما يعرض له ضمن هذه الدائرة .. فهو اما أن يصمت، ووراء صمته قلب حزين ، ووصمة قعدت به عن الثورة والهجوم واما أن يتكلم ، وكلامه عندئذ أكثر حزنا .

شعره :

يتجه نصيب في اتجاه الشعري الى غرضين رئيسيين يتحرك ضمنهما غزل آخر، تكمن أهميته في أنه يشكل الصورة الواقعية الصحيحة لعبد أسود ثم غرضين آخرين كان لنصيب معهما جولات تستحق الذكر .. وتكون الأغراض التي اهتم بهما النصيب : المدح ، الغزل ، الشعر الذاتي واللون والنسب، ثم الرثاء والوصف . وقد بدأ نشيد المدح مع عبد العزيز بن مروان حتى كني بنصيب المرواني اذ يقف بين يديه منشدا :

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم منن غامرة
فبابك أسهل ابوابهم	ودارك مأهولة عامرة

ويخلص بعواطفه لآل البيت الاموي الذي احتضنه ، وأكرم وفادته فنراه مرة أخرى ينشد سليمان بن عبد الملك مديحا يتحدى به مديح الفرزدق وكان موجودا آنذاك في حضرة سليمان :

أقول لركب صادرين لقيتهم	قفا ذات اوشال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان : انني	لمعروفه من أهل ودان طالب
فعاجوا فاثنوا بالذي انت أهله	ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(١) الاغاني : ٣٢٦/١

(٢) العقد الفريد : لابن عبد ربه : ٣٤٦/١ .

وأماديحه لهم تتميز بصدق العاطفة، لتشمل العائلة الاموية كلها وليقول فيهم :

من النفر البيض الذين اذا انتجوا　　　اقرت لنجواهم لؤى بن غالب

يحيون بسامين طورا وتارة　　　يحيون عباسين شوس الحواجب (١)

واخلاصه للامويين لا يتوقف على مدحهم خلال حياتهم العامرة .. بل يبقى اخلاصه مستمرا، وعواطفه صادقة تجاههم حتى بعد وفاتهم .. فان رحلوا عن الحياة الدنيا كان رثاؤه لهم دليل حب مستمر لا ينتهي .. وان رحل عبد العزيز بن مروان بفعل انتشار الطاعون في مصر رثاه فقال :

أصبت يوم الصعيد من شكر　　　مصيبة ليس لي بها قبل

تالله أنسى مصيبتي أبدا　　　ما اسمعتني حنينها الابل

ولا التبكي عليه أعوله　　　كل المصيبات بعده جلل

لم يعلم النعش ما عليه من ال　　　عرف ولا الحاملون ما حملوا (٢)

أما الحب والغزل، فلنصيب تجربة معهما، وله حديث عنهما لكنه حديث ذو شجون لقلبه أكثر من تجربة، وفي كل تجربة لوعة وغصة ثم اخفاق وخيبة . وقصته مع أمة لبني مدلج ليست الا من هذا النوع ..

لقد أحب نصيب أمة من بني مدلج، فكانوا يحرسونها منه، فيعلل فؤاده بنظرة أو اشارة، وحين يسأله عبد العزيز عن نهاية قصة حبه يجيبه نصيب : بيعت فأولدها سيدها .. ولم يبق منها غير عقابيل حزن (٣) . وفيها يقول :

وقفت لها كيما تمر لعلني　　　أخالسها التسليم ان لم تسلم

ولما رأتني والوشاة تحدرت　　　مدامعها خوفا ولم تتكلم

مساكين أهل العشق ما كنت أشترى　　　جميع حياة العاشقين بدرهم

وعقدة اللون دائما وراء أحزان الشاعر ومآسيه، حتى في أمور الحب، لرغم شهرته التي طوقت الآفاق، ورغم أن غزله كان مدار حديث النسوة .. الا أن غصة دائمة كانت تحشرج في حلقه وتدفعه من التمادي في الجريان وراء قلبه الذي كان شعلة حب لا تنطفيء .

---

(١) شعر نصيب : جمع د . داود سلوم /٧١

(٢) المصدر نفسه / ١١٣

(٣) الاغاني : ١/ ٣٤٩

لقد كان يحاول دائما أن يقنع نفسه ، ويقنع قلبه المتحدلث أنه لم يخلق لأن يُحِب أو يُحَب، طالما أن هناك دمغة تذكره دائما بانتمائه الى تلك الطبقة المسحوقة التي اسقطت القلب من حسابها .. لذلك .. فحين يطلب من نصيب أن ينظر لأن " نسوة يردن أن ينظرن اليك ، ويسمعن منك شعرك ، قال: وما يصنعن بي يرين جلدة سوداء وشعرا أبيض ، ولكن ليسمعن شعرى من وراء ستر " . (١)

انه على ثقة من أنه وهب شاعرية تستحق أن تجتمع لسماعها نسوة ، لكنه على ثقة أيضا بأنه قد حرم الشكل الذى يثير عواطف تلك النسوة .. ولهذا فهو يفضل أن يقرأ عليهم من وراء ستر . حتى وان حاول أن يقنع نفسه بأنه ليس للشكل من قيمة أمام تلك الشاعرية، وأصم قلبه اللجوج الذى يحاول دائما أن يأخذ حقه العادل من المرأة، كان هناك من يذكره ، ويردعه من مثل هذا . فمثله لم يخلق للحب .. فاذا ما أثير وجدانه ، وشغلت به غربة النوى وبعدت ديار الحبيب فتذكر الأحبة واستولهم ذلك ، نرى من يضحك ويسخر منه قائلا : " انما يهتز اذا عشق من النسب عذريا ، فأما أنت فما لك ولهذا فيستحي ويسكت " (٢) حتى المرأة نفسها ، البيضاء منهن أو السوداء ، والتي كانت محور شعره لم تعطه الا القليل القليل .. واذا ما حاولت أن تعطيه فهي بين مواقع ثلاثة : اما أن يحول حائل بينها وبينه ، كما رأينا مع أمة بني مدلج . أو أن تتدخل السلطة في الوقت المناسب فتمنع — بقوة الحكم — هذا الحب . وهذا ما حصل مع نصيب عندما أحب عربية اسمها ام بكر الخزاعية في دمشق وان " عبد الملك ظهر على تعلقه بها وتسيبه بها فنهاه عن ذلك حتى كف . " (٣) أو أن ترى المرأة نفسها تماطله وتمنيه بالوعود ، ونادرا ما تفي بها .. وقصة نصيب مع الجارية " الحمراء " خير مثال على ذلك . فقد دخل نصيب مرة على يزيد بن عبد الملك فقال له : حدثني يا نصيب ما مرّ عليك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين علقت جارية حمراء ، فمكثت زمنا تمنيني بالاباطيل ، فلما ألححت عليها قالت : اليك عني ، فو الله لكأنك من طوارق الليل ، فقلت لها : وأنت والله لكأنك من طوارق النهار ، فقالت: ما أظرفك يا أسود فغاظني قولها ، فقلت لها : هل تدرين ما الظرف ؟ انما الظرف

(١) الاغاني ٣٢١/١
(٢) الاغاني ٣٤٣/١
(٣) الاغاني ٣٣٨/١

العقل، ثم قالت لي : انصرف عني حتى أنظر في أمرك، فأرسلت اليها هذه الأبيات :

فان أك حالكا فالمسك أحوى ... وما لسواد جلدي من دواء

ولي كرم عن الفحشاء ناء ... كبعد الارض من جو السماء

ومثلي في رجالكم قليل ... ومثلك ليس يعدم في النساء

فان ترضي فردي قول راض ... وان تأبي فنحن على السواء

قال : فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتيان على غيرهما ، فتزوجتني (١) وسواء صدقت هذه الرواية أم لم تصدق، فان عزوفا وصدودا حصل من جانب المرأة عن اقامة علاقة وشيجة بينها وبين نصيب .

ولم يكن حديث نصيب عن اللون، وعن النسب، وعن أهله وطبقته من السود وحالتهم الاجتماعية المزرية بأكثر فرحا ، أو أزهى لونا من حديثه عن تجربة الحب الذاتية عنده . لانه كان يشعر في قرارة نفسه أن اللون الأسود كان شمسة في جبينه وجبين طبقته ، وكان سببا في كل ما لا قوه من آلام واهانات ومآسي، ... وقصصه مع أشهر الشعراء من غير طبقته تنضح بهذه الآلام ، وتدل ان دلت على شيء على أن جميع من هجاه ووقف ضده هاجم فيه سواده المقترن بالعبودية . وهم ان عدلوا معه فان أكثر مدحهم له لا يخرج عن اطار الجملة المشهورة : " انه أشعر أهل جلدته . " وكثيرا ما نراه يحتج على من يوجه له الاهانة تلو الاهانة معيّرا بسواده فيقول :

فان أك حالكا فالمسك احوى ... وما لسواد جلدي من دواء

ولي كرم عن الفحشاء ناء ... كبعد الارض من جو السماء(٢)

ويحاول أن يقنع الجميع أن بياض أفعاله وأخلاقه كفيل بأن يغطي ويحجب بقوته سواد لونه :

كسيت ولم أملك سوادا وتحته ... قميص من القوهي بيض بنائقه

وما ضرّ أثوابي سوادي وانني ... لكالمسك لا يسلو عن المسك ذائقه (٣)

وأما الشعر الوصفي عند نصيب، فالابيات التالية تستطيع أن تعطينا صورة متكاملة الحركة واللون والشكل والمضمون :

---

(١) الاغاني : ١/ ٣٢٠

(٢) شعر نصيب : ٥٨

(٣) المصدر نفسه

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر ... فعشهما تصفقه الرياح
اذا سمعا هبوب الريح نصّا ... وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجّى ... ولا في الصبح كان لها براح (١)

ومهما تكن الموضوعات التي طرقها نصيب الرواسي في الشعر، فان مكانته الشعرية قد أصبحت راسخة رغم المعوقات كلها، حتى أن ابن سلام جعله في الطبقة السادسة من الاسلاميين مع ابن قيس الرقيات وجميل والأحوص (٢) . وجرير يقول: وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد كان لي بكذا وكذا بيتا من شعري، ويعني قول نصيب:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب ... وقل ان تملينا فما ملّك القلب (٣)

وكثير يحكم له بالانتصار على عمر بن أبي ربيعة، والكميت والاحوص في قصة مشهورة تناقلتها كتب الأدب . (٤)

واسماعيل بن يسار يعتبر نصيبا في المرتبة الثالثة بعد علقمة بن عبدة، ويمدحه فيقول فيه: "انه لشاعر والله كريم . " (٥)

فاذا تركنا الشعراء ممن اعترفوا له بالفضل والشاعرية .. وجدنا كثيرا من أصحاب الأمر والنهي يؤكدون ما سبقهم اليه أولئك الشعراء . فقد رأينا كيف أن عبد العزيز بن مروان أحب صحبته وفضّله على أيمن بن خريم .. وسليمان بن عبد الملك يفخر به ويمدحه فيهم على الفرزدق وعبد الله بن جعفر يقول لما عاب عليه بعضهم عطاءه لنصيب: " لئن كان عبدا ان شعره لحرّ، ولئن كان أسود أن ثناءه لأبيض وانما أخذ مالا يفنى، وثيابا تبلى، ورواحل تنضى، وأعطى مديحا يروى وثناء يبقى " (٦)

---

(١) شعر نصيب /٥٨
(٢) طبقات الشعراء : ٢: ٦٧٥
(٣) الكامل للمبرد /١/ ١٨٢
(٤) الموشح للمرزباني : ٢٥٧ ـ ٢٦٠ ـ الكامل : ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧
(٥) طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٧٥
(٦) العقد الفريد ١/ ٣١٨ ـ الكامل ٢/ ١٦٧ .

ويكفي نصيب الفخر في أن كثيرا من جيد شعره ، قد نسب لعدد من عشاق العرب المشهورين ، وعلى وجه الخصوص أبياته المشهورة والتي مطلعها :

كأنّ القلب ليلة قيل يغدى   بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت   تجاذبه وقد علق الجناح (١)

ذلك أن نصيبا " لم تكن له قصة حب مشهورة ، وهو بتركيزه على " ليلى " قد جعل قسط كبيرا من شعره يضاف وينتقل الى المجنون والى غيره " (٢)

ومهما يكن .. فقد استطاع نصيب " الأسود " ، المولود من أبوين نوبيين ، والذى لم يحط من قيم المجتمع في تلك الحقبة من الزمن سوى شاعرية حية . استطاع بهذه الموهبة أن يثبت قدميه ، وأن يحقق طموحا راوده في تحرير نفسه وأهله وأقربائه . وان لم يستطع أن يتخلص من عقدة اللون التي كانت تطارده أينما ذهب، وكيفما اتجه .. لذلك نراه يفضل أن يعيش متصالحا مع عصره .. وان كنا نلمح خلف هذا الصلح آلاما ممضة تضرب جذورها الى أعمق أعماق الشاعر .

شخصيته :

تخيلت وأنا أمام نصيب الشاعر، أنني أمام رجل ضخم، كهل ، منتصب القامة ، عريض المنكبين ، فاحم البشرة ، يحجب خلف عينيه الهادئتين بريقا ساطعا كأنه لهب ثورة كبتت فامتدت جذورها الى الأعماق . ويحمل وراء هدوء ملامحه ، وشديد وقاره ، ذكاء وفطنة سخرهما في تثبيت قدميه في عالم الشعر .. كما سخرهما في مجال تحقيق ملامحه وتطلعه المشوّق نحو الحرية له ولأهله المقربين ، ثم لأهل جلدته ..

ونحن حين نتعرف على شخصية نصيب هذه ، ندخل مرحلة جديدة من مراحل الاقرار والاعتراف الجزئي بالشاعر الأسود .

ونصيب في كل حالاته ، يتميز بشعور مرهف ، وحساسية مفرطة نتج عنهما شعور بالواجب شعور دفعه الى أن يناضل من اجل تحرير رقاب السود .. وهذه الصفات هي نفسها التي كشفت عن طموح خلاّق لا يقل سموا عن صفاته الاخرى .. طموح يضع الحرية نصب عينيه ، ايمانا منه بأن الحرية لا توهب وانما تؤخذ بالنضال . النضال الذى يحتاج صبرا كما يحتاج مرونة، مهما اختبأ وراء هذا الصبر وتلك المرونة من أحزان .

---

(١) معجم الشعراء — المرزباني ٢٢٢/١٦

(٢) الشعراء السود ١١٦

الفصل الثالث
مخضرمو الدولتين الأموية والعباسية

أبو عطاء السندي

نسبه :

أبو عطاء السندي من الشعراء السود الذين مرت بهم قافلة رواة الأدب مرورا عابرا، دون أن تحمّل نفسها عبء الوقوف أو الاستراحة في محطتهم .. فتحمل ما حسن وما ساء من أخبارهم .. وما أشتهر وما خمل من أشعارهم .. فتعرفنا بعضها بشخصية هذا الشاعر مبتدئة باسمه فتقول : اسمه أفلح بن يسار السندي (١) . وبعضها الآخر يدعوه مرزوق، طريح بن اسماعيل أبو اسماعيل ابراهيم بن هرمة (٢) . الا أنها تعود فتتفق على أنه مولى أسد بن خزيمة (٣)، وعلى وجه الخصوص مولى عنبر بن سماك بن حصين الأسدي (٤) أما لقبه "أبو عطاء" فيقال انه أمر له بوصيف بربري فسماه عطاء وتكنى به " (٥)

سيرته :

كان أفلح على ما يصفه الرواة أسود، دميما، قصيرا، سنديا أو اعجميا، لا يفصح بسبب الحجمة التي كانت فيه، والتي كانت ارث آبائه وأجداده . وبالذات ارث والده يسار . ويظهر أنه كان قد تقدم مع جملة من أبناء قومه من أهل السند، فعرفوا طريقهم الى البلاد الاسلامية، واستقروا بها بحيث أصبح هذا العنصر السندي فيما بعد — عنصرا من العناصر المكونة للامة الاسلامية (٦) ذلك العنصر الذي حظى باحترام المسلمين، وخفف من وقع الصدمة على نفوسهم ومن اختلاف النظرة لهم عن باقي السود الذين قدموا الى البلاد العربية من مختلف بقاع الأرض وانضموا الى لواء الدعوة الجديدة العادلة . وهذا ما يلخصه لنا المسعودي حين ذكر بعض أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها فقال : " أن الهند كانت قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة " .. وقال : " والهند في عقولهم وسياستهم وحكمهم وألوانهم وصفائهم وصحة أمزجتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة نظارهم بخلاف سائر السودان من الزنج " (٧) . لذلك نرى ان عقدة اللون والحجمة التي كانت في ابي العطاء .. كانتا قد مستاه مساسا

---

(١) الاعلام : ١ / ٢٤٢ — معجم الشعراء ٤٥٦
(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٧٤٢ — معجم الشعراء ٤٥٦ — كنى الشعراء ٩٤ (مخطوط المنتالين
(٣) الشعر والشعراء ٧٤٢
(٤) معجم الشعراء للمرزباني ٤٥٦
(٥) الشعراء السود ١٦٧ — الاعلام ١ / ٢٤٢
(٦) ضحى الاسلام احمد امين ١ / ٢٤٠
(٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر المسعودي ٤٥ — ٤٦

رقيقا ^مكننا^ رغم ذلك ، تركت آثارا واضحة كنا نشعر بها تتخلل أشعاره التي تشكل نتاجه الأدبي المتنوع، من ذلك قوله عن نفسه من خلال قصيدة كان قد مدح فيهما سليمان بن سليم :

أعوزتني الرواة يا ابن سليم — وأبى أن يقيم شعرى لساني

وغلابها لذى أعجم صدرى — وجفاني لعجمتي سلطاني

وازدرتني العيون اذ كان لوني — حالكا مجتوى من الألوان

ويكرر هذه الشكوى من سواده في قصيدته التي قالها ، حين أمر أبو جعفر المنصور الناس بلبس السواد :

كسيت ولم أكفر من الناس نعمة — سوادا الى لوني ودنا ملهوجا (١)

شعره :
=============

أبو عطاء السندى شاعر من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، الأمر الذى وقف أغلب أشعاره على الأحداث السياسية، والذى أكسبه كغيره من شعراء تلك الفترة نوعا من التذبذب السياسي الذى لم يمكنه من أن يقف نفسه وشعره لحساب أحد الطرفين المتناوئين ، وأن كانت كفته قد رجحت لصالح الامويين .

لقد نشأ في الكوفة، وتشيع للامويين ، وهجا بني هاشم . كما شهد حرب بني أمية وبني العباس ، فكان ولاؤه وهواه مع بني أمية (٢) الا أن هذا لا يمنعه - وهو الذى كان من الذين يديرون وجوههم حيث اتجهت رياح النعمة - من الانضمام الى صفوف الدولة الجديدة، وفي خياله مطامح ، وآمال عريضة في أن يكسب ود هذه الدولة وعطاء رعاتها . وهذا أمر ليس بالصعب بالنسبة لهذه الفئة من البشر الذين يستطيع أن تصنعهم وفق لغة العصر هذا بالانتهازيين أو المتكسبين،ولن يكلفهم هذا سوى بضع كلمات يصيغونها في قالب شعرى جميل ، ويحملونها على طبق من ذهب لسادتهم الجدد ..

ها هي ذى الدولة العباسية يستوى عودها ، وتقف على رجليها بقوة ، فيشرع أبو عطاء بالانضمام الى قوافلها ، مجندا لسانه الزرب لمدح حكامها والفخر بهم فيقول فيهم :

---

(١) الشعر والشعراء / ٧٤٦

(٢) الاعلام / ٣٤٢ - معجم الشعراء للمرزباني / ٤٥٦

ان الخيار من البرية هاشم | وبنو أمية أرذل الاشرار
وبنو أمية عودهم من خروع | ولهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاة الى الجنان فهاشم | وبنو أمية من دعاة النار (١)

لكننا نحس به فخرا ومدحا بارد العاطفة، بعيد الهوى، فهو حين يمدح المهدى يقول :

دعاك الشوق والأدب | وصاب بقلبك الطرب
ومثلك عن طلاب اللهـ | ـو ان فكرت منقلب
ألا تنهاك واضحة | تلوح كأنها العطب (٢)

وربما كان وراء هذا البرود في العاطفة احساس بفتور الاستقبال الذى استقبلوه به حكام الدولة العباسية، ولا يلبث هذا الاحساس أن ينقلب حقيقة ملموسة، فتتبدد أحلامه حيالهم، واذا هي أوهام واهية، واذا هي سراب خادع، فيد يمر ظهره لهم بعد أن أغلقوا أيديهم عنه، ومنعوه أعطياتهم فيقول :

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم | فقد قام سعر التمر صاع بدرهم
فان قلتم رهط النبي صدقتكم | فهذى النصارى رهط عيسى بن مريم

والباحث في شعر أبي عطاء وأخباره، لا بد أن يعرج على الصورة الهزلية التي نقلها الرواة عنه ضمن اطار الهزء والسخرية في لكنته ولثغته اللتين كان يعاني منهما، واللتين كانتا مجالا واسعا لتعرض الشاعر لالوان من العبث من مختلف الأطراف فكانت مصدر ازعاج ومضايقة له .. والحكاية التي نقلها البغدادى في خزانته عن حماد الراوية اذا يقول : "كنت يوما وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان مجتمعين، فنظر بعضنا الى بعض، فقلنا : لو بعثنا الى أبي عطاء، فبعثنا اليه فقلنا : من يحتال حتى يقول : جرادة، وزجّ، وشيطان . فقلت : أنا، وجاء فقال : من هنا ؟ .. فقلنا : ادخل، فدخل فقلنا أتتعش؟ قال : "قد تعشيت" قلت : أفتشرب ؟ قال : بلى، فشرب حتى استرخى، فقال حماد الراوية : كيف بصرك باللغز؟ فقال : حسن قال :

فما صفراء تكنى أم عوف، | كأن رجيلتيها منجلان

قال : "زرادة" قال : أحسنت، ثم قال :

فما اسم حديدة في الرأس ترسى | دوين الصدر ليست باللسان

فقال : "زز" قال : أحسنت ثم قال :

---

(١) الاعلام / ٣٤٢ ـ سمط اللالىء / ٢٠٢ ـ ٢٠٣
(٢) معجم الشعراء / ٤٥٦

أتعرف مسجدا لبني تميم فويق الميل دون بني أبان

قال : " بني سيطان " فقلنا : أصبت أبا عطاء ، وضحكنا ... " (١)

ورغم أن كتب الادب — على قلة ما أوردت له من أشعار هي عبارة عن أبيات متفرقات مختلفة ، فقد طرقت موضوعات رئيسية في الشعر كالرثاء والغزل الذى يستحق أن يصنف تحت باب الغزل التقليدى ، لان أبا عطاء لم يكن من هؤلاء الذين يملكون موهبة العشاق في الشكل أو غيره .. الا أن الميدان الرئيسي الذى برع فيه ، والذى غلب على أكثر شعره فهو ميدان الشعر السياسي ، لما يحمله من موقف متذبذب من حكام دولة بني امية وبني العباس حتى أنه امتد بهذا التذبذب الى أعماق شخصيته

شخصيته :

اذا استطاع الشعر أن يشكل مدخلا لاستكشاف كنه شخصية صاحبه ، استطعنا التعرف الى شخصية أبى عطاء السندى من خلال ما وجدنا له من أشعار متفرقة لا سيما في حال صمت كتب الأدب عن ذكر ما يتعلق بحياة هذا الشاعر الأسود ، وما رافقهما من ظروف حالت دون شهرته ، كما حالت دون تصنيفه مع من هم في مستواه انسانيا وشعريا من شعراء الطبقة الأخرى .

وهذه الظروف مجتمعة رسمت شخصية هذا الشاعر ببساطة متناهية ، شخصية أولى مقوماتها الشعور بالنقص وهو شعور استطاع ترجمته — الى نوع من التطرف والتفكه غطى بهما ضعفه ، وبرر هروبه من التصادم مع مجتمعه والتصدى له وجها لوجه ، كما رأينا عند سحيم ، أو كما سنرى عند غيره من شعراء الطبقة السوداء المقهورة ، وربما كان هذا الشعور سببا مباشرا أو غير مباشر في تذبذب موقفه ومبادئه السياسية حتى أنه رحل عقب أيام المنصور (٢) دون أن يسجل موقفا محددا ايجابيا كان أم سلبيا لصالح حكام عصره أو ضدهم . بل رأيناه مواكبا — على كره — لعصره دون احداث أية ضجة من حوله .. لقد أراد — على ما يبدو — أن يعيش فقط ، وأن يحمل الموهبة الملاسبة للوقت المناسب .

---

(١) خزانة الادب ٤/ ١٧٠

(٢) الاعلام / ٢٤٢

أبـو نخيلـــــــــــــــة

اسمـــــــــــــــه :

اختلفت الروايـات في نقل اسـم أبي نخيلـة وكنيتـه • فبينمـا أكـد بعضها على أن اسمه الأصلـي يعمر (١) وكنيتـه أبو نخيلة لأن أمه ولدتـه الى جانب نخلة(٢) نرى بعضها الآخر يؤكد على ان اسمه الأصلي أبو نخيلة (٣) وهذا هو المرجح، وكنيتـــه أبو الجنيد ، وأبو العرماس(٤) • وتنفرد رواية القيروانـي بالقول : ان اسمه الجنيـــد بن الجون (٥) الا أنه يعود فيذكر في الحاشية بأن نخيلة اسم الشاعر لا كنيتـه ••

وأبو نخيلة هـذا من بني حِمّـان بن كعب بن سعد (٦) وقيل : هو ابن حــزن بن زائدة بن لقيط بن هرم بن يثربـي ـ وقيل ابن أثربي ـ بن ظالم بن مجاشر بــن حطان بن عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم (٧) وفي ذلك يقول :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأنا فيما شئتَ من خال وعــم (٨)

ومما يذكر عن هذا الشاعر أنه أسـود ، عاق لأبيـه ، دميم الوجه ، قبيح العذار • وهو يعترف بذلك فيؤكد دمامته فيما روى له من شعر حين دخل اليمن ، ولم ير أحدا بهـا حسنا ، ورأى وجهه على ما به من بشاعة ودمامة أحسن الوجوه فيقول :

لم أر غيـري حسنـــــا	مـذ دخلـت اليمنــــا
كيـف تكون بلــــــدة	أحســن ما فيهــا أنـــا

سيرتــــــــــــه :

ماذا عـن حياة هذا الشاعر الأسـود ، الذى وصفه كتـب الأدب بالعقــوق والدمامــة •

فيما يتعلق بحياته في قبيلته بني حمان بن سعد ، فقد سكتت الروايات عن سردها الا أنها أشارت بأنه ضاقت سبل الحياة بشاعرنا فيمم وجهه شطر بلاد الشام علّه يرى فيها من سعة الحياة ما يستطيع به أن يخلي قحط حياته الاولى ، في أرضه وجنته الأول •

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ ـ البيان والتبيين ٣/٢٢٥
(٢) الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ ـ خزانة الادب ١/١٢٨ ـ البيان والتبيين ٣/٢٢٥
(٣) الاغاني • ٢٠/٣٦١ ـ خزانة الادب ١/١٢٨ ـ مخطوط كنى الشعراء ٩٢
(٤) الاغاني • ٢٠/٣٦١ ـ خزانة الادب ١/١٢٨
(٥) زهر الآداب للقيرواني ٢/٩٢٥
(٦) الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ ـ الخزانة ١/١٢٨ ـ البيان والتبيين ٣/٢٢٥
(٧) الاغانـي • ٢٠/٣٦١
(٨) سمط اللآلىء ١/١٣٥

لقد خرج الى الشام، وأقام هناك حتى مات أبوه (١) ومن خلال اقامته هناك، حدثته نفسه بأمنية الوصول الى القصر الملكي، علّه يحقق بين جدرانه الناعمة بعض طموحاته، ويدفن تحت أرضه حياة الذل والعبودية .. وأقصر سبيل الى ذلك — حسب تفكيره — هي التقرب والتملق الى أصحاب السلطة بالمدح وابراز ما يراه مناسبا من المناقب .

وأول ما نراه يتصل بمسلمة بن عبد الملك، ثم يستطيع بذكائه أن يحصل على ثقته ومحبته، الى أن يوصله مسلمة الى الخلفاء الأمويين واحدا اثر الآخر (٢) ويهيء له بينهم مكانا مقبولا، ويمدحوه بعد ذلك ثقة وطيدة، وينزلوه منزلة حسنة، ويدلوون يديه وجدويه بالمال الوفير . ومن مدحه لهم .. ما قاله في هشام بن عبد الملك :

وقلت للعيس اعتلي وجدّى ... فهي تخدّى أحسن التخدى (٣)

الى أمير المؤمنين المجدى ... ربّ معد وسوى معد

وينتشي هشام طربا بهذا المدح فيقول لجلسائه : الغلام السعدى أشعر من الشيخ أبي النجم العجلي . ثم يكافئه على حسن مديحه (٤)

ورغم تقربه الى الامويين، وحسن صلته بخلفائهم، ونيله ثقتهم، الا أنه سرعان ما يغير مذهبه السياسي تاركا لبني أمية، ناقلا ولاءه ومدحه لبني العباس هكذا ، ويسهولة دفعت البغدادى الى وصفه بأنه " قليل الوفاء " (٥) والغريب في الامر أن ينال حظوة أهل القصر في بغداد، فيدخل على السفاح ليستأذنه بالانشاد . الا أن السفاح يبادره بالقول : لعنك الله ، ألست القائل لمسلمة بن عبد الملك :

أمسلمة يا نجل خير خليفة ... ويا فارس الهيجا ويا جبل الارض

لكن أبا نخيلة سرعان ما تسعفه قريحته بما يبرر موقفه فيرتجز قائلا :

كنا أناسا نرهب الهلاكا ... ونركب الاعجاز والاوراكا

وكل ما قد مرّ في سواكا ... زور وقد كفّر هذا ذاكا

ويبدأ بعد ذلك في التقرب لبني العباس، ملتمسا شتى السبل الموصلة الى الهدف

---

(١) خزانة الادب ١ / ٨٠

(٢) المصدر نفسه ١ / ٨٠

(٣) تخدى = تسرع ١ / ٧٩

(٤) المصدر السابق ١ / ٧٩

(٥) المصدر السابق ١ / ٨٠

ويلقب نفسه بشاعر بني هاشم (١) ويجعل العباسيين أوصياء على الخلافة • ويبدأ يسرد مدائحه فيهم واحدة تلو الأخرى ، والدلمهدي يديه في كل ذلك •• فهو لم يسجل موقفا سياسيا واضحا وواحدا ، ليمكنه من اتخاذ موقف عاطفي مماثل • ولم يقف بشعره على مدح حكم بذاته دون الآخر •• وانما كان يميل حيث مالت عواطف السلطة •• ويطلق شعره ومديحه حيثما كانت القوة الحاكمة ، وحيثما أغلق فمه بطعام دسم ، وملئت يداه وجيوبه بمال وفير ••

ونراه مرة أخرى يسير حيث سارت رياح الطمع ، الى حد أن يحمله طمعه الى الهلاك حين يقف مرتين ضد عيسى بن موسى •• الأولى حين يقف الى جانب المنصور الذى أراد تنحية عيسى بن موسى عن ولاية العهد وعقده لابنه المهدي وذلك مقابل ارجوزة ينشدها بحضرة عيسى ويأخذ عليهما ألفي درهم لقاء موقفه •• والثانية حين يقف الى جانب المهدي حيث أراد ايضا تنحية عيسى عن ولاية العهد للمرة الثانية (٢) بعد أبيه •

وتدور الايام لصالح عيسى بن موسى ، ويجدّ في طلب أبي نخيلة ، ويرسل في طلبه بعض مواليه الى أن يلقوا القبض عليه ، وتكون نهايته المفجعة على أيديهم فيقتلونه ، ويسلخون وجهه • (٣)

وهكذا نجد سيرة أبي نخيلة الراجز •• ولادة بائسة •• ونسب مطعون فيه ، وحياة خالية من العطف والحنان ، يلحقها نفي وتشرد ، ثم سواد وعبودية •• كانت هذه بداية حياته ••

أليس من المعقول أن تكون هذه الاسباب كافية لترمي بمختلف انواع العقد في نفس الشاعر •• وأن تزيد من عمق جراحه ، فيجد في الهروب من هذا الواقع ، والارتماء بين أحضان القصور — مهما كانت الضريبة — أقرب طريق ، إن لم تكن أفضل طريق — للخلاص من ذلك الماضي الأليم •• وحين يخونه الزمن ، ويدور دورته على من تشبث بسلطانهم لقهر أيام الفقر والذل ، نراه بسهولة يدور معه ، ليقف حيث وقف ، ويمد يده للحاكم الجديد محاولا تبرير موقفه بما تسعفه شاعريته من الحجج . الا أن القدر

---

(١) الخزانة ١/ ٨٠
(٢) المصدر نفسه ١/ ٨٠
(٣) خزانة الادب ١/ ٨٠

يقف له بالمرصاد .. فالزمن الذى سايره لفترة ، تنكر له بعد ذلك ، وأدار له ظهره ، لتكون بعد ذلك نهايته المأساوية .. (١) .

شعره :

كان الرجز هو الطريق الاساسية التي انتهجها أبو نخيلة في نظمه للشعر ، وكان الشعر السياسي هو الأهم في هذا المضمار .. ويبدو أن سببا ما يكمن وراء اهتمام طبقة الشعراء السود بالشعر السياسي ..

فالأسود من هؤلاء لم يكن لتتهيأ له أسباب الشهرة الشعرية، ان لم نقل أسباب الحياة العادية وهو لا يملك من مقوماتها شيئا . فلا أصل ولا نسب ولا أرومة شعرية، بل عبودية وسواد ورق كانت تجتمع دفعة واحدة لتضيق الخناق عليه ولتذل نفسه ، ولتمد يده لسادته طمعا في استمرارية الحياة وهذا السبب هو نفسه الذى وقف وراء تذبذب مواقفهم السياسية بين حكم وآخر ، وبين حاكم وآخر وهو نفسه الذى وقف وراء موت أكثرهم بطرق شتى تتفاوت في قساوتها وبشاعتها بين شاعر وآخر .

فلقد اتصل أبو نخيلة — كما رأينا — بالأمويين ، ومدح هشام بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك ، لكن هذا الاتصال لم يمنعه من أن يدير للامويين ظهره في الوقت المناسب، ليلتفت الى الحكام العباسيين ممثلين بالسفاح ويحاول الدخول فيهم في الوقت نفسه الذى يتخلص فيه من ماوئيهم من خلال البيتين المشهورين عنه حين يقول مخاطبا السفاح :

كنا أناسا نرهب الهلاكا	ونركب الاعجاز والاوراكا
وكل ما قد قرّ في سواكا	زور وقد كفّر هذا ذاكا (٢)

واهتمام أبي نخيلة بلقمة العيش ومدح الخلفاء والامراء بسببها ، لم يمنعه من الاهتمام بجوانب أخرى من الحياة .. فضمن شعره الوصف والغزل ، ومن غزله ما يذكره له صاحب الاغاني من أرجوزة يقول فيها :

لم ينسني يا ابنة آل معبد	ذكراك تكرار الليالي العود
ولا ذوات العصب المورد	ولو مطلهن الود بالتودد
ورحن في الدرّ والزبرجد	ميهات منهن وان لم تعهدى
نجدية ذات معان مجمد	كأنّ ريّاها بعيد المرقد

---

(١) الاغاني : ٢٠/ ٣٩٢

(٢) زهر الآداب : ٢/ ٩٥٢

ريا الخزامى في ثرى جعدندى كيف التصابي فعل من لا يهتدى
وقد علتني ذرأة بادى بدى رثيثة تنهض في تشدد
بعد انتهاض في الشباب الأملد (١)

ورغم مكانة أبي نخيلة في الرجز ، واشتهاره به و " سبقه الى صنع أراجيز كثيرة في الطرد والقنص يصف فيها الصيد والكلاب والوحش وحيوان الصحراء على طريقة القدماء • (٢) فقد أخذ عليه قوله في نعت امرأة :

برّية لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا
حين ظن أن الفستق من البقول • (٣)

الا أن هذا لم يقلل من مكانة أبي نخيلة الشعرية ، الامر الذي حدا بمحمد بن ابراهيم الحنظلي الى الاعتراف بشاعريته وقوله فيه " ما مدح أبو نخيلة الا خليفة أو زيرا ، وكان من افصح الناس وأشعرهم ، وكان مطبوعا مقتدرا كثير البدائع والمعاني غزيرا جدا ، وكان الغالب عليه الرجز ومع ذلك لا يقصر في القصيد " (٤) •

شخصيتـــــــــه :

لم تكن شخصية أبي نخيلة بالشخصية الجديدة أو الفريدة في عالم الشعراء السود •• ولم يكن أبو نخيلة في يوم من الأيام من الناس أو الشعراء الذين سلطت عليهم الأضواء بشكل مبهر يخفي لونهم ويبدله اشراقا في نواح اخرى • كانت شخصيته بسيطة وعادية ، بدت بداية محزنة ، وانتهت نهاية أشد حزنا •

فهو أسود ، واللون كاف آنذاك ليغير حياته ويقلبها رأسا على عقب • وهو دميم وعاق لوالده ، وهاتان صفتان كافيتان لان تحبطا نفسه حقدا على الحياة ، وخوفا منها ومن غدرها ••

وهو متذبذب المبدأ ، فهو حينا مع الامويين ، وحينا آخر مع العباسيين وهذا تفسير واقعي لما سبق من حيثياته وتكون نهايته نهاية متوقعة اذا ما عرفنا طبيعة الحكم عند كل من الدولتين آنذاك ••

---

(١) الاغاني : ٢٠ ـ ٣٨٨
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي • د • شوقي ضيف / ١٢٦
(٣) البيان والتبيين = ٢/٢٢٥ ـ الشعر والشعراء : ٢/٥٨٣
(٤) طبقات الشعراء / ٦٣

يبقى أبو نخيلة — رغم ذلك كله — يحمل في اعماقه نفسية العبد الاسود المسحوقة والمقهورة والمغلوبة على أمرها ، رغم محاولاته لكسر الطوق بسلاح حدثه به حدسه ، لكن الواقع اثبت اخفاقه ..

سديف بن ميمون

نسبه :

سديف بن ميمون ، من شعراء الحجاز المخضرمين للدولتين الأموية والعباسية الا أنه كان هاشمي الهوى والمبدأ ، وهو مولى لبني خزاعة (١) فقد كان على ما تحكي كتب الأدب لامرأة من خزاعة كان زوجها من اللهبيين فنسب الى ولائهم (٢) • وقيل أيضا أن سبب انتمائه هذا الولاء أنه تزوج مولاة لآل أبي لهب فادعى ولاءهم ودخل في جملة مواليهم على الأيام ، أو أن أباه ميمون كان قد تزوج مولاة اللهبيين فولدت منه سديفا (٣) • ومهما يكن من أمر هذا ، فالمهم أن يذكر أنه مولى بني هاشم قولا وفعلا • ومن أجلهم وقف ذلك الموقف العنيد منذ اللحظة الاولى ، ومنذ أن فتح عينيه وحتى آخر رمق •

سيرته :

دخل سديف معترك الحياة ، ودولة بني أمية لم تغرب شمسها عن أرض الدولة الخيرية بعد • ويقينه في ذلك أنه يقف الى جانب الحق ، ويدافع عنه بلسانه ان لم يكن بيده • ومما يحكى عن سديف في هذا المجال أنه كان يخرج الى أحجار صفا في ظهر مكة يقال لها صفي السباب ، ثم يخرج الى المكان نفسه مولى لبني أمية يقال له سباب ، ومايزال الاثنان يتسابان ويتشاتمان ويذكران المثالب والمعايب حتى يجتمع حول كل شاعر فريق يتعصب له ويتحزب فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجراح ، ويخرج السلطان لتفريقهم (٤) •

وسديف في مناوئته لبني أمية لم يعتمد التشهير الكلامي فقط ، بل كان يقارعهم الحجة بالحجة ، ويبرر موقفه بما يمليه عليه الحق الذي يجب أن يكون •• فكان يقول : " اللهم قد صار فيئنا دولة بعد قسمة ، وامارتنا غلبة بعد المشورة وعهدنا ميراثاً بعد الاختيار للامة • واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والارملة ، وحكم في ابشار المؤمنين أهل الذمة ، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة ، اللهمَّ قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته ، واستجمع طريده ، اللهم فاتح له من الحق يدا حاصدة تبدد شمله ، وتفرق أمره ، ليظهر الحق في احسن صورته واتم نوره (٥)"

---

(١) الاغاني ٨٦/١٦

(٢) الشعر والشعراء ٧٦١/٢ — نوادر المخطوطات ص ٩٠ (المغتالون — الاغاني — طبقات الشعراء ص ٣٧

(٣) الاغاني ٨٦/١٦

(٤) المصدر نفسه ٨٦/١٦

(٥) الشعر والشعراء ٧٦١/٢

وتهدأ نفسه ، وتبرد ثورته حين يستلم العباسيون الحكم، فنراه مصاحبا لابي العباس السفاح ، مداحا له .. يدخل عليه في أحد الأيام، وبعض بني أمية يلتفون حوله . فينشد قصيدته ، التي كانت سببا في نكبة ما تبقى من العائلة المالكة الأموية :

أصبح الملكُ ثابتَ الأساسِ	بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديما	والرؤوس القماقم الرؤّاس
يا أمير المطهرين من الذم	ويا رأس منتهى كل رأس
أنت مهدى هاشم وهداها	كم أناس رجوك بعد أياس
لا تقيلنَّ عبدَ شمسٍ عثارا	واقطعن كل رقلة وغراس
خوفهم أظهر التودد منهم	وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم	عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيد	وقتيل بجانب المهراس
والامام الذى بحران أمسى	رهن قبر في رهبة وتناس
فلقد ساءني وساء سواى	قربهم من نمارق وكراسي

وتثور حمية السفاح ، فيأمر بقتلهم (١) الا ما كان من أولاد عمر بن عبد العزيز الذين استجاروا بما كان لأبيهم من أياد بيضاء على آل البيت .

الا أن حقد سديف لا يتوقف عند الامويين فقط .. بل نراه يمتد حتى ليشمل كل من عمل على استبعاد آل البيت عن الحكم، وكل من وقف ضدهم .. ولهذا يخرج عن دائرة الحكم العباسي ، بعد أن يتوفى السفاح ، ويأتي بعده المنصور وتتكشف الحقائق التي تشير الى استبعاد العلويين عن كراسي الحكم، وسديف في كل هذا ينتظر اللحظة المناسبة ليضرب ضربته ، كما ضربها من قبل على الامويين ، وحصل بسببها ما حصل . وتأتي اللحظة المناسبة عندما يثور محمد ذو النفس الذكية ضد العباسيين .. فيقف سديف الى جانب ثورته بكل ما أوتي من قوة، مظهرا عداوته لبني العباس ، ومجندا شعره لدعم الثورة الجديدة ودعم قائدها :

انا لنأمل أن ترتدَّ أُلفتنا	بعد التباعد والشحناء والاحن
وتنقضي دولة أحكامُ قادتها	فينا كأحكام قوم عابدى وثن
فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا	ان الخلافة فيكم يابني الحسن (٢)

---

(١) نوادر المخطوطات ٩٠

(٢) العصر العباسي الاول د . شوقي ضيف / ٣٠٦

وتكون وقفة سديف هذه سببا في كارثته .. فبعد أن أحبطت الثورة من قبل المنصور، فرّ سديف هاربا منه ، وتوارى حتى سكنت تلك الثورة ثم يكتب للمنصور يسأله أن يمنّ عليه بالعفو فيقول :

أيها المنصور يا خيرَ العرب	خير من ينميه عبد المطلب
أنا مولاكم وأرجو عفوكم	ناعف عني اليوم من قبل العطب،

فوقع المنصور على كتابه بيده قائلا :

لم يلد ني محمد بن علي	ان تسميت بعدها بولي

ثم كتب الى عبد الصمد بن علي — عمه — يأمره بقتل سديف، ويقال أنه قطع يديه ورجليه ، ثم ضرب عنقه (١). وقيل أيضا بأنه حمل الى المنصور ودفن حيا (٢) .

وتختتم صفحة سديف الحزينة، بعد أن يدفع ثمن محبته لآل البيت باهظا وثمن عقيدته التي تؤكد أحقية آل البيت في الحكم غاليا .

شعره :

أشعار سديف — على قلة ما نقل منها الينا — تدخل أغلبها ضمن هذا الاطار اطار المدح لكل من آمن بعقيدته ، والذم لكل من سولت له نفسه الوقوف ضدها وما عدا ذلك نرى أبياتا نقلتها كتب الادب في الغزل .. والوصف، وما استحسن منها النقاد قوله :

أعيب التي أهوى وأطرى جواريا	يرين لها فضلا عليهم بينا
برغمي أطيل الصد عنها اذا بدت	أحاذر آذانا عليها وأعينا (٢)

وقوله في وصف نسوة ...

واذا نطقن تخالهن غاصة	درا بفصل لؤلؤا مكنونا
واذا تبسمن فانهن غمامة	أو اقحوان الرمل بان معينا
واذا طرفن طرفن عن حدق المها	وفضلهن محاجرا وعيونا
وكأنّ أجياد الظباء تمدها	وخصورهن لطاقة ولدونا
واصح ما رأت العيون محاجرا	ولهن أمرض ما رأيت عيونا
وكأنهن اذا نهضن لحاجة	ينهضن بالعقدات من يبرينا (٤)

(١) طبقات الشعراء ٣٧

(٢) المصدر نفسه ٣٧/ — الشعر والشعراء ٢/ ٧٦٢ — العصر العباسي الاول ٣٠٦

(٣) طبقات الشعراء ٣٧

(٤) زهر الآداب ١/ ١٥

ورغم قلة ما وصلنا من انتاج سديف الشعرى ـ لاسباب متعددة ـ الا أن هذا لا يؤثر في الجودة التي وصفت بها أشعاره جملة وتفصيلا •• فهو حين يمدح وحين يهجو ، حين يصف وحين يتغزل ، يبقى الشاعر ذا الشاعرية المفلقة والذى قال عنه ابن المعتز في طبقاته : "كان سديف شاعرا مفلقا وأديبا بارعا وخطيبا مصقعا وكان مطبوع الشعر حسنه • " (١) وهو " الذى عرف بالبيان وحسن العارضة " (٢) وربما كانت هذه الشاعرية الاصيلة عنده هي وراء وصف أحد الشعراء ممن كانوا يكثرون الرواية لشعره " ما كان في زمان سديف أشعر منه ، ولا أطبع، ولا أقدر على ما يريده من الشعر • " (٣)

شخصيتـــــــه :

اذا صح أن العبودية " نفسها تتخذ لها سمات مختلفة من أشعار الشعراء العبيد (٤) ، فان السمة التي تركتها واضحة في شعر سديف هي شدة الانفعال حتى أن الكلمات لتبدو في كثير من الاحيان كتلا نارية خارجا لتوها من فوهة مدفع ، أو حمما خارجة من فوهة بركان • ولا أدل على ذلك من تلك الابيات التي ما جه بها سديف السفاح ، وقد قعد بجانبه بعض من رجال بني أمية ممن بقوا ، وقد وثبوا على الكراسي بعض من بني هاشم :

لا يغرنك ما ترى من رجال	ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا

هذه الكلمات التي تحولت حمما تطايرت على رؤوس ولد سليمان بن عبد الملك وكان قدرهم المحتوم •• (٥)

وشدة الانفعال عند سديف ناتجة عن شدة تعصبه لآل البيت حتى أنه كان مثال العبد في صورة المولى المخلص الصدوق • " (٦) وقد قادتنا هذه الصفة الاساسية عنده الى رسم " صورة لموقف الشاعر الاسود من الحياة " (٧)

---

(١) طبقات الشعراء : ٣٧
(٢) الاغاني : ١٦/ ٨٦
(٣) هو الشاعر القمرى ـ طبقات الشعراء / ٣٧
(٤) بين الكتب والناس محمود عباس العقاد / ١١٠
(٥) المصدر نفسه / ١١٤ ـ ١١٥
(٦) المصدر نفسه / ١١٤ ـ ١١٥.
(٧) الشعراء السود / ١٣٦ •

لقـد وقف سديـف بعنف وقوة في وجه من اعتبرهم أعداء الدين ، ونفث فيهم — من خلال اشعاره التي تناولت ذلك — كل حقد طبقي وعنصرى • فكان خصمـا شرسا ، ومقارعا جريئا ، دفع ثمن شراسته وجرأته حياتـه ، فكان واحدا من كثيـر من طبقتـه ممن دفعوا ثمنا مماثلا •• ولكنه لن يكون الاول أو الأخيـر •

زيد بن الجون "أبو دلامة"

نسبه :

يلقب زيد بن الجون بأبي دلامة (باسم جبل في مكة يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية) • كوفي أسود، مولى لبني أسد • كان أبوه عبدا لرجل منهم يقال له فضافض فأعتقه (١) وقيل بأنه كان أسود حبشيا • (٢) أما زمنه فهو أواخر الدولة الاموية الا أنه ما من جديد أطلق شهرته ولباهته آنذاك فعاش بينهم مغمورا (٣) الى أن استلم بنو العباس دفة الحكم، فانقطع أبو دلامة الى السفاح، ومن بعده المنصور ثم المهدى (٤)

شهرته :

ما أن استلم العباسيون الحكم، حتى بدأ أبو دلامة في محاولة الدبيب الى القصر، سالكا سبلا شتى، الى أن اختار منها ما هو أكثر ملاءمة لشخصيته الفكهة العابثة، وأكثر التصاقا وقربا من العائلة المالكة العباسية — لا سيما طبقة الحريم منها — مجندا في سبيل ذلك ما أوتي من دهاء وذكاء، ومتعاونا مع أفراد اسرته كلها، وكأنه قد ورثهم هذه الطبيعة المرحة، التي حققت لهم بعض احلامهم المتواضعة، لا سيما بالنسبة لتحقيق حياة أفضل، ورفاهية معقولة كانت محرمة على طبقتهم •

وحكايات ونوادر عائلة أبي دلامة كثيرة، أكثرها ضحكا وعبثا ما نقلته الروايات عن قصتهم مع المهدى وزوجه الخيزران • ومحاولتهم خداعهما، بخبر مفاده أن أبا دلامة دخل على المهدى باكيا يخبره بوفاة زوجه أم دلامة، في الوقت نفسه التي كانت تدخل فيه زوجه على الخيزران لتخبرها — شاكية باكية بأن أبا دلامة قد مات، فتستدر العطف أولا والضحك والعبث ثانيا •• ثم الغاية من ذلك كله بيت القصيد وهو المال الوفير، وفي ذلك يقول أبو دلامة، وهو يروى خبر وفاة زوجه الخادع •

---

(١) الاغاني : ١٠/٢٤٧ — معجم الادباء / ١٦٥ — ١٦٨ — نهاية الارب للنويرى ٤/٣٦

(٢) وفيات الاعيان : ٢/٢٢٩

(٣) معجم الادباء : ١٦٥—١٦٨ — الاغاني ١٠/٢٤٧ — الشعر والشعراء ٢/٧٥١

(٤) الاغاني ١٠/٢٤٧ — الشعر والشعراء : ٢/٧٥١ — نهاية الارب ٤/٣٦—٤٧

وكنا كزوج من قطا في مفازة　　لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فأفردني ريب الزمان بصرفه　　ولم أر شيئا قط أوحش من فرد (١)

وما رواه صاحب الاغاني عن ابي دلامة من فساد الدين ، ورداءة المذهب وما الى ذلك من الوان الفسق الاجتماعي ، أو لنقل الزندقة الاجتماعية كما سماها الدكتور عبده بدوي يعتبر من صلب شخصية هذا الشاعر الاسود (٢) • حيث اعتمد في ذلك على اظهار حقيقة نظرته الى هذه الحياة　　التي كان من الصعب على أمثاله العيش فيها دون تحايل عليها بوسيلة من الوسائل •• فبين الجد والهزل قضى أغلب أيام عمره • وبين الجد والهزل قضى وطره منها ومذهبه في ذلك " اليوم خمر وغدا أمر " •

نراه يحب ماديات الحياة، ويعيشها خطوة خطوة •• يحب الخمر فيشربها كلما عنت على باله ، واشتهتها نفسه ، واذا ما سوئل عن ذلك أجاب وهو سكران :

ديني على دين بني العباس　　ما ختم الطين على القرطاس
اني اصطحبت اربعا بالكاس　　فقد أدار شربها براسي
فهل بما قلت لكم من باس

ويحب النساء ، ولا يمنعه في ذلك زوجة واولاد قعدوا ينتظرون قدومه ، فاذا ما وعدته ريطة وزوجة المهدي بجارية ، وما طلت في وعدها رغم تذكيره لها في قصائد عدة • نرى صبره ينفذ ، ويرسل لها قصيدة مع جاريتها أم عبيدة يقول فيها :

أبلغي سيدتي ان　　شئت يا أم عبيدة
أنها أرشدها الله　　وان كانت رشيدة
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليدة
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيدة
كلما تخلق أولى　　بدلت أخرى جديدة

ولما سمعتها ريطة ضحكت، وأمرت له بجارية، ومائتي دينار للنفقة عليها (٣)

---

(١) الاغاني : ١٠ / ٢٦٧
(٢) الشعراء السود / ١٣٨
(٣) الاغاني ١٠ / ٢٧٤

وهو الى جانب ذلك يهرب من واجباته الدينية، فاذا ما طلب منه أبو جعفر أن يصلي معه في مسجده نرى الشاعر يقول له :

ألم تعلما أن الخليفة لزني	بمسجده والقصر مالي وللقصر
أصلي به الاولى جميعا وعصرها	فويلي من الاولى وويلي من العصر
أصليهما بالكره في غير مسجدي	فمالي في الاولى ولا العصر من اجر
لقد كان في قومي مساجد جمة	سواه ولكن كان قدرا من القدر
يكلفني من بعد ما شبت خطة	يحط بها عني الثقيل من الوزر
وما ضره — والله يغفر ذنبه —	لو أن ذنوب العالمين على ظهري (١)

وهو في كل ذلك صاحب نكتة وعبث • ونوادره مع العائلة العباسية أكثر من أن تعد وهو يحملهم فيها حملا على الضحك، حتى ولو كان الموقف موقف حزن •• فحين توفيت ابنة عم المنصور قال له : يا أبا دلامة، ماذا أعددت لهذه الحفرة ؟ •• قال ابو دلامة على الفور : ابنة عم أمير المؤمنين " • ورغم صعوبة الموقف نرى المنصور مجبرا على الضحك (٢) •

ومصادر هذا العبث ليست متوقفة على شخصية أبي دلامة فقط •• وانما تعتبر عائلته معه في هذا الميدان — معينا لا ينضب لاختلاق النوادر العابثة، والمواقف المضحكة، يسردها كلها في قالب شعري هجائي، يتعمد من ورائه الاضحاك فكما وجدناه يشكو في كل مناسبة زوجه قائلا :

عجبت من صبيتي يوما وأمهم	أم الدلامة لما هاجها الجزع
لا بارك الله فيها من منبهة	هبت تلوم عيالي بعدما هجعوا (٣)

وجدناه أيضا شاكيا وهاجيا لأمه حين يقول :

ما تيك والدتي عجوز همة	مثل البلية درعها في المشجب
مهزولة اللحيين من يرها يقل	أبصرت غولا أو خيال القطرب (٤)

واذا لم يجد مادة للضحك، ضحك من نفسه ، وأضحك الناس معه :

ألا أبلغ اليك أبا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامة
اذا لبس العمامة كان قردا	وخنزيرا اذا نزع العمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤما	كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

---

(١) الشعراء السود : ١٣٨

(٢) الاغاني : ١٠ / ٢٧٣

(٣) نهاية الارب ٤/ ٣٦ — ٤٧ — حياة الشعر في الكوفة يوسف خليف / ٤٧٧

(٤) الاغاني • والهمة : العجوز الفانية، واللحى، عظم الحنك، والقطرب: ذكر الغيلان ١٠/ ٢٧١

فـان تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنـت القيامـة

وهكذا .. رحل أبو دلامـة عن الدنيا ، بعد أن قضى حياته بين ظهرانيها بشكل مختلف عن غيره من الاسر السوداء، التي جمعتهم في الغالب ظروف واحـدة، تخلص كل واحد فيها على طريقته الخاصة، والتي لا لمح في طريقة أبي دلامة وتعاطيه المجتمع تمردا عليه ، وعلى قيمه ، وعاداته وتقاليده ، تمردا أملته عليه طبيعة ظروف الحياة التي كانت تخلف المجتمع الاسود الصغير .. ولكنه — على كل حال — تمرد سلبي من طبيعة خاصة، استطاع أن يسخره في تحقيق أغراضه ثم يدير ظهره للمجتمع وللحياة نفسها حتى تغدو عنده عبارة عن ضحكة، ونادرة عابثة بكل شيء مفرغة من كل القيم المتوارثـة ..

شعـــره :

أبو دلامـة الشاعر ، أقر شاعريته أهل الخبرة في الأدب والشعر فقالوا عنه " شاعر مطبوع ، مغلق، ظريف، كثير النوادر في الشعر ، صاحب بديهة ، يداخل الشعراء ويزاحمهم في جميع فنونهم، وينفرد في وصف الشراب والرياض وغير ذلك بما لا يجرون معه " (١) كما قالوا عنه : "كان صاحب نوادر وحكايات وأدب ونظم . " (٢) وبما فسرت هذه الاقوال شعر زند بن الجون بأجمله ، لينضوى هذا الشعر في النهاية تحت باب الشعر الاجتماعي بكل ما فيه من تنويع وتلوين . فيهتم تحت هذا الباب — بنفسه وملذاتها من خمرة ونساء، ويهتم أيضا بتأمين سهل العيش والنصر آنئذ هو السهل ..

فمن الباب الاول ما قاله أبو دلامة — وهو سكران — حين سئل عن الخمرة :

دينى على دين بني العباس ما ختم الطين على القرطاس
اني اصطحبت أربعا بالكاس فقد أدار شربها براسـي
فهل بما قلت لكم من باس

وليس موقفه مع المرأة بأقل احتفاظا منه بالخمرة .. فهو دائم الحديث عنها .. وهو دائم الطلب لها ، واذا ما وعدته بحظـة بجارية، وأطال هو الانتظار ، ارسل من يذكرها بوعدها المرة تلو المرة حتى تستجيب . واذا ما طرق أبواب المدح كانت المرأة ذي البدء، هي المفتاح السحرى الذى يستطيع أن يلعب بالعواطف فيهيجها ويشحذ القريحة فيذكيها .. فيقول ، عن قصيدة جهزها للعباس :

---

(١) طبقات الشعراء / ٥٤

(٢) وفيات الاعيان : ٢/٢٢٩

قف بالديار وأي الدهر لم تقف ... على المنازل بين الظهر والنجف

وما وقوفك في اطلال منزلة ... لولا الذى استدرجت من قلبك الكلف

ان كنت اصبحت مشغوفا بساكنها ... فلا وربك لا تشفيك من شغف

ثم ينتقل الى وصف الجارية فيقول :

هذى رسالة شيخ من بني أسد ... يهدى السلام الى العباس في الصحف

تخطها من جوارى المصر كاتبة ... قد طالما ضربت في اللام والألف

وطالما اختلفت صيفا وشاتية ... الى معلمها بالوح والكتف

حتى اذا نهد الثديان وامتلأ ... منها وخيفت على الاسراف والغرف

صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا ... كما يصون تجاد درة الصدف

فبينا الشيخ يهوى نحو مجلسه ... مبادرا لصلاة الصبح بالسدف

حانت له لمحة منها فأبصرها ... مطلة بين سجفيها من الغرف

فخرّ والله ما يدرى غداتئذ ... أخرّ منكشفا أم غير منكشف

وجاء الناس أفواجا بمائهم ... ليغسلوا الرجل المغشي بالعطف

ووسوسوا بقرآن في مسامعه ... مخافة الجن والانسان لم يخف

مينا ولكنه من حب جاريه ... أمسى وأصبح موقوفا على التلف

ثم يتابع قصة هذه الجارية حتى ابتاعها له أحدهم :

فقام شيخ بهي من رجالهم ... قد طالما خدع الأقوام بالحلف

فابتاعها لي بألفي درهم فأتى ... بها اليّ فالقاها على كتفي

فبت ألثمها طورا وألزمها ... طورا وأصبح بعض الشيء في اللحف (١)

ومن الباب الثاني ، ما قاله أبو دلامة في مدح البيت العباسي ، وأشهرها تلك التي انشدها بين يدى المنصور :

ان الخليط أجدّوا البين فانتجعوا ... وزودوك خبالا بئس ما صنعوا (٢)

حيث يخلط فيها بين الجد والهزل الى أن يصل الى مبتغاه ، ولو كلفه ذلك هجاء زوجته وأفراد عائلته كما جاء في القصيدة السابقة :

عجبت من صبيتي وأمهم ... أم الدلامة لما هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من منبهة ... هبت تلوم عيالي بعدما هجعوا

---

(١) الاغاني : ١٠/٢٤٨

(٢) نهاية الارب : ٤/٣٨

شخصيتـــــه :

زيـد بن الجـون، هذا الشاعر الأسود، الضاحك المضحك، الذى اختـار هذا الوجه من الحياة ليتخلص من واقعه المر الذى فرضته الظروف الاجتماعية، ثم ليصـل ـ عن هذا السبيل ـ الى قصور الخلفاء فيمطيهم النوادر والبسطات ليأخذ مقابلهـا الدعم المادى والمعنوى الذى سيغطى به ـ على ما رأينا ـ فساد دينه، ورداءة مذهبه وارتكابه للمحارم، واضاعة الفروض مجاهرا بذلك . وكان " يعلم هذا منه ويعرف، فيتجافى عنه للطف محلـه . " (١)

ومع هذا الشاعر الأسود، نلتقي بشخصية ظريفة، وفريدة، فرضت نفسهـا على القصر، رغم الشروط التي كانت تعترض على من يود خطب ود القصور، واستطاعت الوصول الـى بغيتها بعد أن دفعت ما توجب عليها من ضريبة الدخـول . وسلاحها في ذلك كلــه ذكاء وحيلة تعـرف من أين تؤكـل الكتـف .

---

(١) الاغانـي : ١٠/ ٢٤٧

ابن أبي فنن

نسبه :

اسمه أحمد بن صالح بن أبي معشر مولى المنصور[1]، وقيل : أحمد بن أبي فنن، مولى بني هاشم، واسمه صالح، ويكنى أبا عبد الله .

سيرته :

وابن أبي فنن شاعر أسود ، يعتبر من فئة الشعراء المقلين . هذا ما يظهر لنا من خلال ما نقلته كتب الأدب سواء من شعره ، أو من أخباره . ولسنا ندري السبب في قلة شعره .. أهو جفاف القريحة الشعرية .. أم هو التجاوز الحاصل مع أكثر الشعراء السود وما يتعلق بحياتهم وأشعارهم .

ومهما يكن من أمر .. فقد استطاع هذا الشاعر الأسود أن يدخل عتبة الامراء وأن ينشد بين أيديهم مديحه ، وينال به أعطياتهم .. من هذا القبيل ما فعله مع ابن المعتز حين امتدحه فقال ابن المعتز : هذا الشاعر الآدم، قال بعض من حضر، ويقال أنه ابن أبي فنن نفسه ، لا يضره سواده مع بيض أياديك عنده . قال ابن المعتز أجل .. ثم وصله (٢)

ومدح أيضا محمد بن عبد الله بن طاهر .. وله في مدحه قصة ، مفادها أنه كانت هناك ضيعة لابي فنن في قطيعة ابن طاهر .. وكان عامل الجزية يرهقه بكثرة ما يطلبه من ضرائب، فما كان من ابن أبي فنن الا أن كتب الى ابن طاهر قصيدة يقول فيها :

فكأني في نعمتي	رب الخورنق والسدير
لولا تردد عاشر	كالكلب في اليوم المطير
فاذا بدا لي وجهه	أخرجت صفر من سروري
فهل الأمير بفضله	من قبح طلعته مجيري

ولما قرأ الأمير الأبيات وقع تحتها : قد أجرناك يا أبا عبد الله ، وأمرنا لك باحتمال خراجك ، وحملت اليه صلته ، وحلف ليقضين الخراج عنه ، ويقول أبو فنن في ذلك : فلما

---

(١) تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ٤/٢٠٢ ـ طبقات الشعراء
(٢) زهر الآداب ٢/١٠١٣ ـ ١٠١٢

أتاني التوقيع مع الصلة، وقد حلف عليها بالخموس لا قبلتها، لم أجد بدا من ذلك، فأنا أشكر له بالشعر ما صنع، واحتجت الى أن أمدحه كل عام بقصيدة، فصرت بذلك شاعرا (١) وكأننا نفهم من كلامه بأنه دفع الى مديح ابن طاهر كنوع من الاعتراف بالجميل، قيقابل اعطياته بمديح حولي • ومن هنا نفهم أن له مزاجا خاصا في هذا اللون من الشعر والى حد يحسره الدكتور عبده بدوي بأنه هو يمدح يحس أنه لا بمفرده ذاته " (٢) •

فهو عندما يمدح أبا دلف العجلي يقول :

مالي ومالك قد كلفتني شططا	حمل السلاح وقول الدارعين قف
أمن رجال المنايا خلتني رجلا	أمسي وأصبح مشتاقا الى التلف
أرى المنايا على غيري فأكرهها	فكيف أمسي اليها بارز الكتف
أخلت أن سواد الليل غيرني	أو أن قلبي في جنبي أبي دلف (٣)

شعـــره :

الى جانب المدح الذي كان يلقه على من يرى فيه صفات تؤمله له •• فقد اهتم ابن أبي فنن بجوانب الحياة الاخرى •• فنراه يحب ويعشق •• واذا ما أحب فانه يستعطف الحبيب ويتقرب منه بالوصل بدل الهجران فيقول :

صحيح الود لو يمسي عليلا	لتكتب أو نرى منكم رسولا
أراك تسومه الهجران حتى	اذا ما أعتل كنت له وصولا
فرد ضنى الحياة بوصل يوم	يكون على رضاك له دليلا
هما موتان موت ضنى وهجر	وموت الهجر شرهما سبيلا (٤)

وهو اذا ما اثيرت عاطفته، حساس الفؤاد، رقيق الشعور لدرجة البكاء •• الا أنه يصعب عليه أن يظهر ضعيفا مستسلما، فيتسلح بمظهر اللامبالي ويقول :

ولما أبت عيناي أن تملك البكا	وأن تحبس الدموع السواكب
تثاءبت كي لا ينكر الدمع منكر	ولكن قليلا ما بقاء التثاؤب
أعرضتني للهوى ونممتما	علي لبئس الصاحبان لصاحب (٥)

---

(١) طبقات الشعراء : ٣٩٧
(٢) الشعراء السود : ٣٩٧/
(٣) ذيل زهر الآداب : ١٠١٣/٢
(٤) تاريخ بغداد : ٢٠٢/٤
(٥) زهر الآداب : ١٠١٢ ــ ١٠١٣

ومن جميل شعره في الغزل قوله :

صب بحب متيم صب ... حبيه فوق نهاية الحب

أدميت باللحظات وجنته ... فاقتص ناظره من القلب (١)

وانسان مثل أبي فنن ، يحمل نفسية خاصة ، ينفرد بها عن غيره من الشعراء .. ويحمل الى جانب ذلك شعورا رقيقا ، وحساسية كان لا بد أن تثيره تجارب الحياة ، فيخرج منها بحكمة تدل على عمق تبصره فيها وفهمه لها :

أرى الدهر يخلقني كلما ... لبست من الدهر ثوبا جديدا (٢)

وقوله :

رب أمر سر آخره ... بعد ما ساءت أوائله (٣)

فاذا ما امتد به العمر ، وغزا الشيب مفرقه .. ودّع حياة اللهو والعبث، ووطن نفسه المكان المناسب، وأقر حكمة الحياة :

من عاشر أخلقت الأيام جدته ... وخانه الثقتان السمع والبصر

قالت عهدتك مجنونا فقلت لها ... ان الشباب جنون برؤه الكبر (٤)

شخصيته :

النماذج المنقولة من شعر ابن أبي فنن ـ على قلتها ـ تحمل من ذاته الشيء الكثير ، وما هي الا مرآة عكست على صفحتها أعماق صاحبها . فكان باعتراف أهل الأدب " شاعرا مجودا نقي اللفظ " (٥) .. الا أننا لم نشهده من الشعراء أصحاب المواقف، بل عاش حياته حرا من كل التزام، غير مضطر للتمسك بمبادئ جماعة معينة ، أو الانحياز لجماعة بعينها ، رغم كثرة تحزبات العصر آنذاك .. وغير ملزم بربط مصيره بمصير آخرين من الناس .. لذلك لم نجد عنده مخلفات عقدة اللون مثلما وجدناها جلية واضحة عند عنترة وسحيم و " أو خفية ومغلفة كما لمسناها عند سديف أو أبي دلامة ... ربما يعان منه بعدم جدية الحرب القتالية أو الشعرية مع مجتمع يأبي أن يذعن للكفاءة الانسانية بغض النظر عن المقومات الاخرى . ففضل السكوت والصمت .. وفضل العيش ببساطة متناهية دون أن يدع مجالا لتلك المخلفات من أن تطفو أو تظهر ..

---

(١) تاريخ بغداد : ٤/ ٢٠٢

(٢) نهاية الارب : ٣/ ٩٣ ـ ٩٤

(٣) المصدر نفسه : ٣/ ٩٣ ـ ٩٤

(٥) عيون الاخبار : ٢/ ٣٢٠

(٦) تاريخ بغداد : ٤/ ٢٠٢

الفصـــل الرابـــع

العباسيـــون
نصيب الأصغـــر

نسبـــه :

نصيب الأصغر ، هو الاسم الذى نقلته كتب الادب التي تحدثت عن هذا الشاعر ، دون أية اشارة الى باقي نسبه .

من هو أبوه ؟ من هي أمه ؟ كيف عاش حياته الاولى قبل الوصـــول الى القصر الملكي ؟ ثم كيف وصل الى المهدى ؟ كل هذه أمور لم تشر اليهـــا تلك الكتب ..

سيرتـــه :

وكل ما نقل الينا من هذا القبيل أنه عبد نشأ في اليمامة (١) وأنـــه مولى المهدى اذ عرض عليه أيام المنصور — وهو بعد ولي للعهد — فاستنشـــده فأنشده من شعره .. ولما أعجبه قال : والله ما هو بدون نصيب مولى بنـــي مروان ثم اشتراه ، (٢) واعتقه ، وزوجه أمة يقال لها جعفرة ثم أقطعه ضيعة فـــي السواد (٣) .. أما كنية هذا الشاعر فهي " أبو الحجناء " وسواء كانت الحجناء ابنته كما يذكر الجاحظ (٤) ، أم كانت مجرد كنيته أطلقها عليه المهدى ، كما ورد في الاغانـــي فان نصيبا كان له من اعطيات وعطف المهدى ما لم يكن لغيره .. ورغم ذلك ، نراه يخون ثقة المهدى في أول فرصة ودافعه لذلك بطر العيش فقد أرسله المهدى — بعد أن ولي الخلافة — الى اليمن مع رجل من الشيعة ليشترى له ابلا مهرية ، وكتب الى عامل اليمـــن أن يجعل له عشرين ألف دينار للمهمة المرسل لتنفيذها ، وما أن يجد بين يديه هـذا المبلغ حتى يميل لما به ويبغي تعويض ما فاته من لذة العيش فينفق منه للذاتـــه وشرابه وجواريه دون حساب . فما كان من المرافق الشيعي الا أن كتب للمهدى يخبره بالامر ، وكيفية تصرف نصيب بالمال ، فيأمر المهدى بأن يحمل نصيب اليه موثقا بالحديـد بعد أن حبس مدة في اليمن . ولما دخل على المهدى ، أنشده قصيدة طويلـــة يستعطفه فيها ، ويطلب عفوه قائلا :

---

(١) الاغاني ٢٢/٤٠٠ — معجم الادباء ١٩/٢٣٤
(٢) المصدران السابقان ٢٢/٤٠٠ — ١٩/٢٣٤
(٣) الاغاني ٢٢/٤٠٠
(٤) البيان والتبيين ١/١٠٥

تأوبني ثقلٌ من القيد موجع ... فأرّق عيني الخليون هجّع
هموم توالت لو ألمّ يسيرها ... بسلمى لظلت صمّها تتصدع (١)

ويقطع المهدى عليه الانشاد قائلا : ومن أعتقك يا ابن السوداء ؟ فيشير نصيب بيده الى الهادى وهو يقول : الأمير موسى يا أمير المؤمنين فقام مخاطبا ابنه بأن يفك أسره ، ثم يخلع عليه عدة من الخز والوشي ، ويصله بألفي دينار ، ثم بجارية حسناء يقال لها جعفرة (٢) ، فينشد نصيب بين يدى المهدى قصيدته التي أولها :

آذن الحي فانصاعوا بترحال ... فهاج بعدهم شوقي وبلبالي

ثم يقول :

ما زلت تبذل لي الاموال مجتهدا ... حتى لأصبحت ذا أهل وذا مال
زوجتني يا ابن خير الناس جارية ... ما كان أمثالها يهدى لأمثالي
حتى توهمت أن الله عجلها ... يا ابن الخلائف لي من خير اعمالي

وهكذا ، وجد نصيب بين يدى المهدى كل ما كان يحلم به ..بل أكثر مما كان يحلم به عبد أسود مثله من حظ في الحياة .

ويظهر أن الحظ واكب نصيبا ، فكما أنه وجد بين يدى المهدى المكانة المميزة بالمال الوفير ، نرى الحال هذه تتكرر مع هارون الرشيد الذى ولاه كور الشام ، وقدمه على أكثر شعرائه ، (٣) فأفاد من ذلك مالا وفيرا ، وأهداه مقابل ذلك مديحا يتناقل جيلا بعد جيل :

قصدنا أمير المؤمنين ودونه ... مهامه موماة من الارض مجهل
على أرحبيات طوى السير فانطوت ... شمائلها مما تحل وترحل
الى ملك صلت الجبين كأنه ... صفيحة مستوف جلا عنه صيقل

الى قوله :

ورثت رسول الله عضوا ومفصلا ... وذا من رسول الله عضو ومفصل (٤)

وتكون علاقته مع الرشيد على أفضل وجه ، وتبقى مستمرة الى أن تؤدى علاقته بالقصور الى المراكة من بعد الرشيد ، ويبدأ بذلك مرحلة جديدة من المديح الذى دفع ابن المعتز الى اعتباره " فاكهة أهل الأدب " (٥)

---

(١) معجم الادباء ١٩/ ٢٣٥ ـ فوات الوفيات ٢/ ٦٠٢
(٢) فوات الوفيات : ٢/ ٦٠٢
(٣) طبقات الشعراء : ١٥٥
(٤) الاغاني : ٢٢/ ٤٠٢
(٥) طبقات الشعراء : ١٥٦

شعـــــــره :

عبر الطريق المؤدية الـى القصـر ، عبر الحيز الأكبر من شعر نصيب الأصغـر الى أن انتهى الى البرامكـة ، فاستقر عندهـم ، وكانت له معهم مودة وصلة عميقـــة حتى انه انقطع اليهم شعرا وعاطفة وهوى .

بدأت اولى أماديحه في المهدى ، الذى احتضنه ونتح له الباب على مصراعيه ومن هنا صاحبه الحظ ، وتدرج معه الى أن وصل الى الرشيد الـذى كان بحرا فـي العطاء والطل وفي المنصب حين ولاه " كور الشـام " وكان المهدى في المقابل يهديه القصائد المادحة

ورثت رسول الله عضوا ومفصـلا   وذا من رسول الله عضو ومفصـل

وقد مدح بعد الرشيد اسحاق بن الصباح الكندى ، وسليمان بن علي (١) الى أن استقـر عند البرامكة . وأبياتـه التالية خير معبر عن موقفـه منهم :

عند الملوك مضرةٌ ومنافــعٌ   وأرى البرامك لا تضرّ وتنفـع

انّ العروق اذا استسرى بها الثرى   أشر النبات بها وطاب المزرع

واذا جهلت من امرئ اعراقـه   وقديمه فانظر الى ما يصنع (٢)

ومدائح نصيب في آل برمك كثيرة ، والى جانب كثرتها ، وعمق عاطفتها ، تبدأ بمطالع غزليـة جميلة ، ثم حوار مع مية أو غيرها من الجوارى ، والى أن يتخلص الى لب الموضوع وهو المدح يمدح الفضل بن الربيع بن خالد فيقول له مبتدئا بالغـزل :

طرقتك مية والمزار شطيـب   وتتيبك الهجران وهي قريــب

لله مية خلـه لو أنــهـا   تجزى الوداد بودنا وتثيــب

وبينما هو مأخوذ بحب مية يتذكر سواده فيقـول :

طرب الفؤاد ولات حين تطرب   ان الموكل بالصبا لطـــروب

وتقول مية ما لمثلك والصبـا   واللون أسود حالك غربيـــب

وهكذا حتى يصل الى بيت القصيد وهو مدح البرامكة فيقـول :

والبرمكي اذا تقارب سنــه   أو باعدته السن فهو نجيــب

خرق العطاء اذا استهل عطاؤه   لا متبع منّا ولا محســـوب

يا آل برمك ما رأينـا مثلكـم   ما منكـم الا أغرّ وهـــوب (٣)

والى جانب المدح .. كان يجيد ابو الحجناء الغزل ، والهجاء ، والوصف ، ولا يقصر في شيء (٤)

---

(١) طبقات الشعراء : ١٥٦
(٢) المصدر نفسه : ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٣) الاغاني ٢٢/١٦،٤ ـ معجم الادباء ١٩/٢٢٧
(٤) طبقات الشعراء ١٥٥

ومن غزله الجيّد ينقل لنا ابن المعتز هـذه الأبيـات :

لقد سامني طرفي وقد ضرّ نفسه ... وأظهر ما أكننت بين الجوانح

فلم استطع سيرا لما بي من الهوى ... ولم يخف ما أضمرت والقلب فاضحي

فيا بؤس من تنأى عن الالف داره ... ويا بؤس من في القلب كالمتنـازح

وازداد شوقا حين ادنو متوحشا ... لغاد يوشك البين منـك ورائـح

وينزل اصحاب الخبرة من أهل الأدب شاعرية نصيب منزلة كبيرة اذ يقارنوه بغيـره من الشعراء، ثم يجعلون موازنة بينه وبين سحيم وبين نصيب الأكبر هـذا ما نستشفه من حوار الهلالي مع الاصمعي اذ يقول : " ما تقول في شعر الاسود ؟ فقـال : هو في عصرنا هذا أشعر من عبد بني الحسحاس في عصره . قال الهلالي : فأين شعره من شعر نصيب ؟ قال : هما في قرن واحد ، لان نمطهما واحـد ، ولكن ذاك متقدم الزمان، وهذا محـدث . " (١)

ومهما بلغ هذا الرأى من الصواب أو عدمه ، فان نصيبا وصـل منزلة لا بأس بها .. وسكبت بين يديه أموال لا حصر لهمـا ..

شخصيتـــــــــــه :

اذا كان المدح المتكسب في أكثره هو الطريق الرئيسية التي سلكهما نصيـب المهدى، كانت لا بد أن تظهر لنا وبوضوح شخصيتـه التي تتمتع بذكاء، استطـاع أن يجنبها مخاطر متعددة اعترضت حياة السود .. هـذا اذا اعتبرنا أن فـي التحايل على الحياة نفسها ومصاعبها نوعا من الذكاء والمقدرة . وهو بهذا السلوك كان مشابها لكثير من شعراء عصره وبشكل خاص من السـود ..

ونصيب هذا .. الذى تمتع بقسط وافر من الحرية في ظل عديد من الخلفـاء وتمتع بحظ لا بأس به من المال والحياة ... هل تخلص من عقدة اللون التي أرقت أكثـر شعراء طبقتـه ؟...

والدارس لشعر نصيب يرى ـ رغم كل ما وصل اليه ـ اشارات غير يسيرة تكمـن من ورائها هذه العقدة .. بل وتشعر بأنّات خفية كانت تصدر من اعماق الشاعـر

---

(١) طبقات الشعراء : ١٥٥

لتعلن الثورة على الظلم، والمطالبة بالمساواة بين أبناء البشرية ٠٠ ان لم تكن في امور الحياة الاخرى ففي الحب على الأقل ٠٠٠

وتقول ميّة ما لمثلك والصبا
شابَ الغرابُ وما أراكَ تشيب

واللون اسود حالكٌ غربيبُ
وطلابك البيضَ الحسانَ عجيبُ

أعلاقة اسابهن وانصبا
لا تهزئي مني فربّ عائب

أفنان رأسك فلفل وزبيبُ
هلا يعيب الناس وهو معيب (١)

فهو لا يجد أكثر من البيت الأخير دفاعا عن النفس، وعن الحب ٠٠

---

(١) الاغاني : ٢٢/١٥ ٤

ابراهيم بن المهدى

مولده ونسبه :

ابن شكلة ، لقب لابراهيم بن محمد المهدى بن عبد الله بن المنصور أبي جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ، أبو اسحاق أخو هارون الرشيد (١) • وشكلة أمه ، أمة كان أبوها من اصحاب المازيار ، يقال له شاه أفريد ، فقتل مع المازيار ، وسميت ابنته شكلة التي حملت بعد ورها الى المنصور ، حيث صارت أمة لزوجه التي ربتها ، وكانت قد بلغت أوج شبابها الذى نالت به اعجاب المهدى عندما رآها وطلبها من زوجه محياه فأعطته اياها ، فأولدها ابراهيم (٢)، وكانت ولادته غرة ذى القعدة سنة اثنتين وستين ومائة ، ونشأته في بغداد (٣) •

أوصافه وسيرته :

كان ابراهيم أسود حالك اللون براق ، عظيم الجثة ، حتى أنه كان يلقب بالتنين (٤)، وكان الى ذلك وافر الفضل ، غزير الأدب ، واسع النفس سخي الكف حتى أنه لم ير في أولاد الخلفاء أفصح منه لسانا ، ولا أحسن منه شعرا • (٥)

وأمير توفرت فيه هذه الصفات ، كان حريا أن يتبوأ أفضل المراتب ، وأن يعيش حياة الامراء بكل ما فيها من عز ونعيم ، لولا أنه كان ابن أمة ، جرت عليه من سوادها ، ومن وضاعة نسبها ما قعد به عن تلك الحياة • حتى أن اعتلاءه عرش الخلافة — فيما بعد — كان فيه شيء من التحدى ، أكثر مما هو اعتراف بكفاءته ، وأكثر منه كحق مكتسب لامير أبوه المهدى • ودليلنا على ذلك أنه أمضى شطر حياته الاولى بهدوء دون احداث ضجة من أى نوع كانت • فقد ولاه الرشيد امرة دمشق خلال ست سنوات حدث فيها انقطاع بعد السنتين الاوليتين بأمر من أخيه الرشيد • وقيل أن السبب في ذلك جفوة حدثت بين الاثنين ، بسبب ظلم الرشيد له بالميراث ، ثم في قطع رحمه واستنزاله عن ابنة عم له (٦) وتمود الامارة

---

(١) وفيات الاعيان : ابن خلكان ١/ ٣٩ — تاريخ بغداد : ٦/ ١٤٢

(٢) الاغاني : ١٠/ ١٠١

(٣) الاعلام : ١/ ٥٥ — وفيات الاعيان : ١/ ٣٩

(٤) وفيات الاعيان : ١/ ٣٩ — تاريخ بغداد ٦/ ١٤٢ — ثمار القلوب للنيسابوري ١٢٤

(٥) وفيات الاعيان ١/ ٣٩

(٦) الشعراء السود / ١٨٧

ثانية بعد زوال الجفوة، فتعود الحياة بطبيعتها لابراهيم المهدى، وهكذا حتى تقترب منه المحن، أو على الأصح يدفع اليها دفعا، وكان الأمر آنذاك للمأمون .

ثم نرى ابراهيم يتقلد امارة البصرة من قبل المأمون نفسه ، وكان آنذاك ابن نوح ابن ابي نوح (١) حيث كان المأمون متوليا أمر الخلافة ، ومفكرا بأمرها والى من ستؤول من بعده . فنراه ينتقي عليا ابن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الذى يبايعه الناس من بعده ، ثم يجرى بعض التعديلات فيبدل شعار الدولة ويجعله اللون الأخضر بدلا من الأسود ، الذى بقي طيلة حكم العباسيين شعارا لدولتهم . حدث هذا كله في خراسان، والعائلة العباسية في بغداد يبلغ بها الغضب أشده حين ترى الامر يخرج من يديها الى العلويين ، فيسووءها ذلك ، بل وتنكره أشد الانكار " ودبّ الهاشميون بعضهم الى بعض وخلعوا المأمون وعقدوا الامر لابراهيم بن المهدى في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة سنة احدى ومائتين . " (٢) حتى أنهم لقبوه بالمبارك وبالمرضي . وهكذا وضع لابراهيم بن المهدى على قوخة بركان الخلافة آنذاك ، والعصبيات على أشدها .. وكل يحاول بما أوتي من قوة وبأس أن يجمع حوله أكبر عدد من الانصار ليوجه الضربة القاسية للطرف الآخر . وخاض ابن شكلة عددا من الثورات انتصر في بعضها كثورة الرويبضة، وثورة أسد الحرابي ، وثورة المهدى بن علوان الشارى وثورة أهل الكوفة (٣) ثم قاتل الحسن بن سهل وكان أميرا من قبل المأمون . الا أن عز هذه الانتصارات لم يدم طويلا، فما لبث أن وجه له المأمون حميد الطوسي الذى قاتله وهزمه (٤) . وكان الاستخفاء بعد ذلك وجهة ابراهيم بن المهدى، خوفا من بطش الحكام .. الى أن دخل المأمون بغداد ، وابراهيم ما يزال مستقرا متخفيا ، حيث أقام في استتاره ست سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام (٥) ذلك أن المأمون أهدر دمه وأرسل في البحث عنه الى أن ظفر به . فقام بين يديه يطلب منه العفو ويقول قوله المشهور : " ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن

---

(١) الوزراء والكتاب / ٣١٢ ٢ ـ الوزراء والكتاب ٣١٢ ـ ضحى الاسلام ١٤
(٣) الخليفة المغني / عن الشعراء السود ص ١٨٩
(٤) تاريخ بغداد ١٤٢/٦
(٥) الاعلام ١/ ٥٥ ـ ٥٦

تداوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونه ، فان عفا فبفضله ، وان عاقب فبحقه (١) ثم أنشده قائلا :

ان أكن مذنبا فحظى أخطأت ... فدع عنك كثرة التأنيب
قل كما قال يوسف لبني يعقوب ... لما أتوه لا تثريب

فقال المأمون : لا تثريب (٢) . وفتحت بذلك صفحة جديدة بين الاثنين ، رد خلالها المأمون لعمه أمواله ، وأكرمه ونادمه ، ورتبه في مشايخ بني هاشم (٣) وابتعد الخليفة المخلوع عن السياسة ، وعاد الى سابق عهده في الغناء الذى برع فيه ، واشتهر حتى قيل عنه : "اذا ضرب وغنى لاحدهم في الصحارى والصائد والمتنزهات وقفت له الطير ، وعكفت عليه الوحوش حتى تكاد تؤخذ بالأيدى . " (٤) حتى أن أكثر ما نقلته كتب الأدب عن الخليفة المغني ولعه بالعزف والغناء حتى قال اسحاق الموصلي عنه : " ما ولد العباس بن عبد المطلب بن عبد الله بن العباس رجلا أفضل من ابراهيم المهدى ، فقيل له : صح ما تبذل له من الغناء ؟ فقال : وهل تمّ فضله الا بذلك (٥) حتى أن شهرته في هذا الميدان كانت مجالا رحبا للتهكم والسخرية اللاذعة التي أصابه بها المعارضون له في الحكم ، ومنفذا سهلا للخروج عن طاعته . فقد نقل عن بعض أهل بغداد قولهم حين احتبس الخليفة العطاء عن أعرابه من السواد : " ان لم يكن المال فأخرجوا لنا خليفتنا فليغن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل ذلك الجانب ثلاثة أصوات فيكون عطاء لهم " . (٦) .

وكان غناء ابراهيم لأخيه الرشيد ، ثم للثلاثة من بني أخيه الخلفاء وهم الأمين والمأمون والمعتصم ، حتى أن المعتصم طرب يوما لغنائه فقال : أحسنت يا أمير المؤمنين . فقال له ابراهيم : عربدت يا أمير المؤمنين . (٧)

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٦٠٤ — تاريخ بغداد ٦/١٤٥
(٢) تاريخ بغداد ص٦ ٦/١٤٥
(٣) ثمار القلوب ١٢٤ — ١٥٤
(٤) المصدر نفسه ١٢٤ — ١٥٤
(٥) الاغاني ١٠/١٠١
(٦) تاريخ بغداد : ٦/١٤٤
(٧) ثمار القلوب : ١٢٤ — ١٥٤

وهكـذا .. وبعد أن استقرت به الحال ، وطلق أمور السياسة والحكـم ، قضى بقية أيام عمره بزى المغنيين .

شعـــره :

هـذه الحياة الحافلة بالاحداث المضطربة، والتي شغلت جزءا لا بأس به من حياة ابراهيم بن المهدى، لم تستطع أن تستغرق شعره كله ، بل لم تأخذ منـه بشكل مباشر — سوى حيز ضيق كان يشتمل اما على هجوم مباشر لمن غدره من أهل قرابته وصحبته ، واما على عتاب وشكوى من هؤلاء ، ومن الزمان الذى تآمر عليه بدوره مع هؤلاء . ولكننا نستطيع أن نلمس عمق هذه الشكوى من خلال شعره الذى يكشف عن كثير من ذاته ، ويحمل بين طياته حكمة تصدر عن آلام عميقة، عمق الجرح الـذى أحدثته به الأيام ..

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يشب ... ان الحريص على الدنيا لفي تعب

مالي أراني اذا طالبت مرتبة ... فنلتها طمحت عيني الى رتب

لو كان يصدقني ذهني بفكرته ... ما اشتد غمي على الدنيا ولا نصبي

أسعى وأجهد فيما لست مدركه ... والموت يكدح في زندى وفي عصبي

بالله ربك كم بيتا مررت بـه ... قد كان يعمر باللذات والطرب

طارت عقاب المنايا في جوانبـه ... فصار من بعدها للويل والحرب

فامسك عنانك لا تجمح به طلـح ... فلا وعيشك ما الارزاق بالطلب

قد يرزق العبد لم تتعب رواحله ... و يحرم الرزق من لم يوت من طلب

يا ثاقب الفكر .. كم أبصرت ذا حمق ... الرزق أغرى به من لازم الجرب (١)

وليس من غرابة في الأمر أن يهتم ابراهيم بن المهدى بهذه الامور .. فهو عبد ومثله كان يجب أن يكون — لولا هذه الوصمة — خليفة يتمتع بلذة الحكم كباقي الخلفـاء ويحلم باستقراره ، كما حلم به غيره من أبناء قرابته وحققوه .. وكونه عبدا وابن أمة سوداء، ترك في نفسه عقدة لم تكن فقط سببا في تكاثر المعارضين من حوله ابـان خلافته ، بل كانت سببا في فتح جرح عميق، زاد في عمقه ما كان يلاقيه من أقـرب

(١) تاريخ بغداد : ٦ /١٤٧

المقربين اليه وهم أعمامه • فهذا هو المأمون يقول لابراهيم بعد العفو عنه : أنت الخليفة الأسود ؟ فيجيبه ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، أنا الذي مننت عليه بالعفو ، ثم تمثل بشعر سحيم :

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له . عند الفخار مقام الاصل والورق
ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما . أو أسود اللون اني أبيض الخلق

وهاذا يجد العبد الاسود غير التحلي بالصفات الخلقية يغطي بها ما يصمه به الناس من عيب السواد ••

ولابراهيم بن المهدي أشعار في الوصف ، •• منها ما كان في وصف مظاهر الطبيعة ، ومنها ما كان في وصف المرأة ، وما جرت على قلبه المحب دائما من لوعة الحب والغرام •

فمن النوع الأول ، وصفه لباقة نرجس كانت في يد المعتصم ، وطلب منه أن يصفها له فقال :

ثلاث عيون من النرجس . على قائم أخضر ملس
يذكرني طيب ريا الحبيب . فيمنعني لذة المجلس

ومن النوع الثاني ، ما قاله في جارية حسناء ، كانت توفيه حقه من الرعاية والخدمة ، أيام كان مختبئا ، فجلّ مقدارها في نفسه الى أن قبّل يوما يدها ، فقبلت الأرض بين يديه فقال :

يا غزالا لي إليه . شافع من مقلتيه
والذي أجللت خده . فقبلت يديه
بأبي وجهك ما أكثر حسادي عليه
أنا ضيف وجزاء الضيف احسان اليه (١)

أما رثاؤه •• ففيه من العاطفة واللوعة ، ما يسمه بالصدق المطلق ، خاصة اذا كان المرثي واحدا من أولاده •• فما قاله في رثاء ابنه الأكبر أحمد :

---

(١) الاغاني ١٠/ ١٠١

يثوب الى أوطانه كل غائب	وأحمد في الغياب ليس يؤوب
تبدل دارا غير داري وجيرة	سواي، وأحداث الزمان تنوب

الى أن يقول :

سأبكيك ما أبقت دموعي والبكا	بعيني ماء يا أخي ويجيب
واني وان قدمت قبلي لعالم	بأني وان أبطأت عنك قريب

مهما يكن من أمر .. فقد اعتبر ابراهيم بن المهدي من المجيدين في الشعر(١) ومن الموصوفين بغزارة الأدب (٢) . وخبرته في هذا المجال، كانت تجعله يوجه النصح لمن هو بحاجة اليه، في هذا المجال، ومن هذا القبيل ما قاله لكاتبه عبد الله بن صاعد : اياك وتتبع وحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة، فان ذلك هو العي الأكبر، وعليك بما سهل، مع تجنبك ألفاظ السفل " (٣) .

ومن كان هذا مذهبه في الكتابة .. كان لا بد أن يترك للاجيال حلو الشعر وجيده، قبل أن تدركه المنية في يوم الجمعة سنة أربع وعشرين ومائتين بسر من رأى، بعد أن صلى عليه ابن أخيه المعتصم (٤)

شخصيته :
=========

تدخل مع ابن شكلة بابا جديدا ولجه الشعراء السود لأول مرة، ذلك أنه كان من المستحيل على أي منهم أن يحلم بالوصول الى منصب حكومي يقلده اياه أصحاب الشأن من السادة، مهما أوتي من الذكاء والقدرة على القيام بأعباء ذلك المنصب، فكيف الحال بنا حين نرى واحدا منهم يتقلد منصب الخلافة — على ما فيه من علو منزلة — كانت تقعد بوجودهم عن الوصول اليها .. لا بد أن ظروفا وأسبابا تضافرت حتى حدث المحظور، وولي ابن شكلة سدة الخلافة، فأحدث في التقاليد شرخا عظيما

هذه الظروف أكسبت شخصية هذا الخليفة العبد مزيجا من القوة والضعف، من التصميم والتراجع، من التحدي والاستكانة .

(١) الاعلام : ٥٦/١
(٢) تاريخ الطبري ٦٠٣/٨
(٣) الزهر ٢٣٤
(٤) وفيات الاعيان ٤١/١

ثية استمدها من امه لأبيه ، وضعف ظ بعده ضعف اعتقه من لسبته الأمة السوداء .

تصعد رغمه الى قمة الخلافة رغم كثرة المناوئين ، وتراجع أملته وأجبرته على القوة العظيمة التي وقفت في وجهه تذكره بماضي عبوديته .. وسواده ..

تعد دفعه الى أن يضرب بالأعراف والتقاليد عرض الحائط ، فيتربع على عرش مهزوز معرض للزوال في اية لحظة ، ثم تراجع أقرته قوى العصر ..

هذا المزيج من الصفات المتناقضة خلقت من " ابن شكلة " شخصية تستحق الوقوف والدراسة شخصية مهما يحاولت الوصول الى القمة ، عادت وأزعلت نصرخات تعيش في أعماقها ، تذكرها ببساطة العيش وحلوه المتجلي في الغناء .

فهجرت الحكم والحكام الى العزف والغناء ، وعادت شخصيته تتلبسها البساطة ويكتنفها الظرف ، لكنها تخبئ في اعماقها الألم والحزن ..

علي بن جبلة

نسبه :

هو علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن، أبو الحسن الشاعر المعروف بالعكوك (١) وقيل في رواية أخرى، علي بن جبلة بن عبد الله الأبناوي، نسبة الى أبناء الدعوة العباسية، ولقبه العكوك (٢) وكان قد لقبه به الأصمعي ، وهو ينشد اماديحه بين يدي الرشيد (٣) ٠

وعلي بن جبلة من أبناء الشيعة الخراسانية ، ولد في الحربية من الجانب الغربي سنة ستين ومائة للهجرة، ثم نشأ في بغداد (٤) ٠ كان علي بن جبلة أسود اللون، أبرص، وقد جمع الى سواد لونه ودمامة شكله كفافة البصر ٠ فمن قائل أنه ولد أعمى (٥) ومن قائل أن بصره كان قد كف وهو طفل صغير في السابعة من العمر اثر اصابته بمرض الجدري (٦) ٠ وكانت عامته قد زادت من عطف وحنان أبيه عليه ٠٠ اذ ألحقه بمدرسة ليعلمه فيها ما يتعلمه الصبيان ممن هم في مثل سنه ، ثم يوجهه الى أهل العلم والأدب ، فيأخذ عنهم فروع العلوم والمعرفة (٧) يساعده في ذلك ما أوتي من فطنة وذكاء ٠ حتى أذكى موهبته الشعرية وصقلها ، فدخل أبواب الخلفاء والأمراء بهذا الزاد الوحيد ، الذي كان أيضا المصدر الوحيد في سعة رزقه ، وفي رفعه الى منزلة حسده عليها كثير من الشعراء، فقد كان شاعرا مطبقا فصيحا بليغا (٨) وبقدر ما رفعه شعره في بادئ الامر ، بقدر ما كان

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٩/١١ ــ وفيات الاعيان ٣٥٠/٢ ــ البداية والنهاية ٢٦٧/١٠

(٢) الاغاني ٢٨٧/١٦ ٠ والعكوك هو القصير السمين ، أو الغليظ السمين

(٣) سمط اللالئ ٣٢٠

(٤) الاغاني ٢٨٧/١٦

(٥) وفيات أعيان ٣٥٠/٢

(٦) الاغاني ٢٨٧/١٦ ــ البداية والنهاية ٢٦٧/١٠ ــ تاريخ بغداد ٣٥٩/١١
سمط اللالئ : ٣٢٠

(٧) شعر علي بن جبلة

(٨) البداية والنهاية ٢٦٧/١٠

مصدرا للمصائب التي أصيب بها في آخر أيام حياته ، حتى أنه كان سببا في القضاء عليه ، وانتهائه من الوجود .

كان أول دخول علي المجتمع السياسي ، دخوله مادحا لخلفائه وأمرائه حيث أنشد أولى قصائده بين يدي الرشيد ، الذي اعجب به أيما اعجاب وأجزل له العطاء (١) .

ومن بعد وفاة الرشيد نرى عليا يتقلب في مدح العائلة العباسية الى أن تبرز اسماء على رأس قائمة ممدوحيه ، هذه الأسماء طالما اشتهر اصحابها بما كان لهم من علو المنزلة والشأن آنذاك . وكان على رأس هذه القائمة أبو دلف العجلي القاسم بن عيسى العجلي ، حتى قيل أنه استنفذ شعره في مدحه (٢) . وكان مدحه هذا سيفا ذا حدين ، الأول مصدر سعادته وعيشه في بحبوحة ورغد ، والثاني كان مصدر شقاء ثم موت .. وكيفية تعرف الشاعر على ممدوحه هذا ، وتوطد العلاقة بينهما . يحكيها الشاعر نفسه فيقول : " زرت أبا دلف في الجبل ، فكان يظهر من بري واكرامي والتحفي بي أمرا عظيما مفرطا ، حتى تأخرت عنه حياء ، فبعث الي معقلا : وقال : يقول لك الأمير : قد انقطعت عني ، وأظنك استقللت بري ، فلا يغضبك ذلك ، فاني سأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعني الا الافراط في البر ، وكتبت اليه :

هجرتك ولم أهجرك من كفر نعمة	وهل يرتجى نيل الزيادة بالكفر
ولكنني لما أتيتك زائـــــــرا	فأفرطت في بري عجزت عن الشكر
فمن الآن لا آتيك الا مسلمـــا	أزورك في الشهرين يوما وفي الشهر
فان زدتني برا ، تزايدت جفوة	ولم تلقني طول الحياة الى الحشر

ولما وصلت القصيدة أبا دلف قال : قاتله الله ما أشعره وأرق معانيه ، ثم بعث بالابيات وصيفا وبعث معه لعلي بألف دينار " . (٣)

ولأول مرة نلتقي — على صعيد الشعراء السود = أو لنقل أغلب الشعراء المادحين — من يخجل من كثرة الأعطيات .. الا أننا نحس أن محبة وودا عميقـــا

---

(١) سمط اللآلي : ٢٢٠
(٢) الاغاني : ٢٨٧/١٦
(٣) نهاية الأرب : ١٨٦/٣

كان قد نشأ بين الاثنين، زاده تقربا والفة المنزلة التي منحها أبو دلف لعلي مقابل مدائح طوقت شهرتها وشهرة ممدوحها الآفاق • وبالتالي، أثارت للشاعر الكثير من المتاعب على مستوى المجتمع البغدادي •• ومن أفضل بل وأروع مدائح علي بن أبي دلف القصيدة التي يبدؤها بغزل تقليدي •• ثم يصل الى بيت القصيد :

زاد ورد الغي عن صدره	وارعوى اللهو من وطره
ندمي ان الشباب مضى	لم أبلغه مدى أشره
ودع جد قحطان أو مضر	في يمانية وفي مضره
وامتدح من وائل رجلا	عصر الآفاق من عصره

الى أن يقول :

انما الدنيا أبو دلف	بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف	ولت الدنيا على أثره
كلُّ من في الأرض من عرب	بين باديه الى حضره
مستعيرٌ منه مكرمةً	يكتسبها يوم مفتخره (١)

فطالما جعله أصل المكارم، وكل من سواه يستمد منه فرع المكرمة فماذا ابقى من زاد المدح لغيره، من سواه يتصل بهم واحدا تلو الآخر ••

•••

ان ذكاء علي وفطنته ، كانتا دائما حديث الرواة ، لذلك كان يستخدمهما للتخلص من المآزق التي قد يسببها له شعره فيقنع بها الممدوحين الآخرين •• فاذا ما سأله حميد بن عبد الحميد الطوسي : " ما عسى أن تقول فينا ، وما أبقيت لنا بعد قولك في أبي دلف : انما الدنيا أبو دلف " ••• نرى عليا يجيبه قائلا : " أصلح الله الأمير ، قد قلت فيك ما هو أحسن من هذا ، ثم ينشده :

انما الدنيا حميد	وأياديه الجسام
فاذا ولى حميد	فعلى الدنيا السلام (٢)

وتكون الجائزة من نصيبه ، بعد أن يقتنع حميد — على ما يبدو — بحسن نواياه • ولكن اين السبيل لاقناع المأمون ، بعد أن استنفذ طاقة المدح في غيره ، والمأمون في قمة غضبه ، ويرسل المخبر تلو المخبر بحثا عن علي ، وعلي يهرب من بقعة الى أخرى ومن ملجأ الى آخر ، والمأمون ما يزال يجِّدُ في طلبه حتى يظفر به فيأمر أن يؤتى

(١) نهاية الارب ٤/٢٣١ — ٢٣٢ — ٢٣٣
(٢) وفيات الاعيان ١/٢٥٢ — نهاية الارب ٣/٢٨٦

به قليلا ، ولما يمثل بين يديه ، يصب جام غضبه عليه فيقول : يا ابن اللخناء ..
والله ما أبقيت أحدا حيث تقول :

كلُّ من في الارض من عرب	بين باديه وحاضره
مستعير منه مكرمة	يكتسبها يوم مفتخره

لقد جعلتنا ممن يستعير المكارم والافتخار منه ؟ ومع هذا فلا استحل قتلك بهذا ..
ولكن بشركك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل :

أنت الذى تنزلُ الايامَ منزلها	وتنقلُ الدهرَ من حالٍ الى حال
وما مددت مدى طرفٍ الى احد	الا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله يفعله ، ثم يأمر باخراج لسانه من قفاه ، فأخرجوا لسانه (١) . وهناك
رواية اخرى تقول بأن عليا مات حتف انفه ، بعد أن ظل متواريا عن انظار المأمون (٢)
وكان ذلك سنة ثلاث عشرة ومائتين بمدينة السلام (٣) .

شعره :

اذا كان الشعر هو الذى رفع علي وجلب له سعة العيش ..فلقد كان هو
السبب أيضا في دنو أجله . ورحيله عن الدنيا .. تاركا لنا حصيلة شعرية ذات الوان
متعددة ، كان المدح رائدها ، والرثاء من اعلامها البارزة . ومن جيد رثائه ، مما
يُذكر له من مرثيته في حميد الطوسي وفيها يقول :

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع	وما صاحب الايام الا مفجع
أصبنا بيوم في حميد لو أنه	أصاب عروش الدهر ظلت تضعضع
بكى فقده روح الحياة كما بكى	نداه الندى واين السبيل المدقع

وله أشعار في الغزل ، وفي الوصف .. وشعره الغزلي نوعان تقليدى يفتتح
به قصائده في الموضوعات الاخرى ، وخاصة المدح . ومثاله قصيدته التي امتدح
فيها أبا دلف بقوله في أولها :

ذاد ورد الغي عن صدره	وارعوى اللهو عن وطره ..

---

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٢٦٨ — نهاية الارب ٣ / ١٨٦
(٢) الاغاني ١٩ / ٢٨٧
(٣) تاريخ بغداد ١١ / ٣٥٩ — وفيات الاعيان

ثم المقطعات الشعرية ، التي يتحدث فيها عن تجاربه الذاتية في الحب ، ووصف جمال المحبوب ، ومن هذا القبيل ما ذكره ابن المعتز في طبقاته تحت عنوان : ومما يستحسن لعلي بن جبلة في الغزل قوله :

اني ليقنعني تعهد شكلـة	ان حال دون لقاء شكلة حائـل
ويزيدني كلفا بها هجرانهـا	ويسرني عنها الحديث الباطـل
واذا تكلم عاذل في حبهـا	أغرى الفؤاد بها ورقة العاذل
من اين ما استحسنت محاسن وجهها	بهر العيون بها هلال ماثـل
شجيت خلالها بساق خدلـة	وشجيت عمدا بالذى هو قائل (١)

أما في الوصف .. فلعلي صورة مبتدعة وجميلة في الوقت نفسه - عن الطيف ، طيف الحبيب الذى يختلس ثوان من الزمن يزوره فيها ، ثم لا يلبث أن يرحل مسرعا بعد أن يثير في نفس المحبوب الشوق والهيام :

بأبي من زار مكتتمـا	حذرا من كل واش جزعـا
زائر نم عليه حسنـه	كيف يخفي الليل بدرا طلعـا
رصد الغفلة حتى أمكنت	ورعى السامر حتى هجعـا
ركب الاهوال في زورتـه	ثم ما سلم حتى ودعـا (٢)

لقد رحل علي بن جبلة ، بعد أن خلف وراءه ذكرى طيبة النشر ، يعبق أريجها من خلال ابياته ، التي ضمنها مواضيع شعره السابقة ، بعد أن رسخ قدمه بثبات على أرض الشعر .. وانتزع اعترافات كثيرة تؤيد شاعريته حتى أن أبا تمام كان يود لو أن له بيت علي التالي مقابل ثلاث قصائد من شعره يتخيرها وينتحلها مكانـه :

وردّ البيض والبيض الى الاغماد والحجب (٣)

أما الجاحظ فيقول عنه : " كان أحسن خلق الله انشادا ، ما رأيت مثله بدويا ولا حضريا (٤) والدمشقي يصفه بالفصاحة والبلاغة (٥) وصاحب السمط يقول عنه :

---

(١)

(٢) طبقات الشعراء ١٧١
(٣) الاغاني ١٩/٢٨٧
(٤) تاريخ بغداد ١١/٣٥٩
(٥) البداية والنهاية ١٠/٢٦٧

"كان شاعرا مطبوعا عذب اللفظ جزلـه (١) •

شخصيتـــــــــــه :

أسود قصير دميم ، أبرص كفيف سعيـــن ، كيف يمكن أن يواجه مجتمعـــا له قيمه الخاصة ، وله عاداته وتقاليده المتوارثة •• هو في خيار صعب بين التمـرد على هذا المجتمع ، وبين مجاراته بما يملك من وسائل •• سبقه اليها كثير من شعراء طبقته عندما أرادوا الوصول الى أهل النعمة واليسار من حكام العصر ••

وهذا ما كان •• فقـد دخل الحكوك القصر العباسي منشدا ومادحا ، وكانت اولى قصائده بين يدي الرشيد ، وكانت هذه هي المؤشر الذي سمح له بتخطـــي العقبات ، كما كانت المؤشر لبروز شخصيه الحكوك المتوازنة التي استطاعت دخـــول القصر بصمت ، ودون أن تثير ضجة يمكن أن تسبب لها متاعب • فلم نره حاقدا ولا جبارا رغم ما به من عاهة يرافقها سواد ونسب وضيع •• بل محاولا الاستمرار في الحفـــاظ على مكانته بين الحكام • الى أن كانت النهاية حين وجد في الطـرف الآخـر مــــن وقف له بالمرصاد ، ورفض عواطفه حين أحس سطحيتها بالنسبة اليه ، وعمقها وصدقهـا عند غيره •• آنذاك •• لم تأت رياح الحكوك بما يشتهي ، بل حولها المأمون اعصارا استطاع اقتلاعه من مكانه ثم القضاء عليه ، برغم محاولاته الدائمة للابقاء على التوازن في علاقته مع حكام القصر ، خوفا من مثل هذه النهايـة ••

---

(١) سمط اللآلي • ٣٢٠

أحمـد الرشيـد الغسانـــي

نسبـــــــــه :

هو أحمد بن علي بن ابراهيم بن الزبير الغساني الأسواني، وكنيته أبـــو الحسن، ولقبه الرشيد (١) • وفي رواية أخرى تتعمق في نسبه فتقول عنه : أحمد بن علي القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاضي الرشيد أبي الحسن علي بن القاضي الرشيد أبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الاسواني (٢) حيث كان مولده في اسوان، في بيت كبير من صعيد مصر •

سيرتـــــــه :

بدأ الرشيد حياته في مسقط رأسه اسوان، الى أن هاجر منها الى مصـــر فأقام فيهـا، واتصل بملوكها، ومدح وزراءها (٣) وكان ذلك بعد مقتل الظافـــر الفاطمي وجلوس الفائز • وله في رثاء الظافـر قصيدة، كانت سببا في فتح أبـــواب الرزق، بعد طول فقر لقيه في الصعيد :

ما للرياض تميل سكـــرا   هل سقيت بالمـــزن خمـرا
جارى الملوك الى العـــلا   لكنهم نامـوا وأســـرى

الى أن قـــال :

أفكر بلاء بالعــــراق   وكربـلاء بمصر أخـــرى (٤)

بعدها عاد الى منزله بمال وفير، حصل عليه من اعطيات القصر آنذاك • كان أحمد الرشيد يحمل وراء دمامة شكله ووراء سواده، صفات متميزة بوأته مراكز لم يصل اليها أحد قبله من الشعراء، اذا استثنينا ابراهيم بن المهدي •• لما كان يحمل من نسب الملوك •• فهو الى جانب أنه كيان أسود اللون، غليظ الشفـة، قصيرا، مبســـوط الأنف كخلقة الزنوج (٥) فقد كان اديبا متفقها، عارفا بالهندسة والطب والموسيقـــى والنجوم، متفننا، من أهل الفضل والنباهة والرياسة (٦) • وقد رشحته هذه الصفات

---

(١) الاعلام ١٦٨/١ ـ معجم الادباء ٥١/٤
(٢) وفيات الاعيان ١٤٤/١
(٣) معجم الادباء ٥٥/٤
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١٤٦/١
(٥) الاعلام ١٦٨/١
(٦) المصدر السابق ١٦٨/١ ـ معجم الادباء ٥٢/٤

لان يولى — في بادئ الامر — النظر بثغر الاسكندرية والدواوين السلطانية وذلك بخير اختياره (١) • ثم انفذه الحافظ الى اليمن فلقب قاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن (٢)

واستمر حسن الطالع مرافقا لتحركات الرشيد • وما ان استقرت الاحوال حتى ازداد طموحه لتحقيق أمل بعد وأنه ظل يراوده لفترة كبيرة •• وينتظر اللحظة المناسبة لتحقيقه • ذلك أن نفسه " سمت الى رتبة الخلافة فسعى اليها ، وأجابه قوم فسلموا عليه بها ، وضربت باسمه نقود • " (٣)

وهكذا •• استطاعت نفسه التواقة الى المجد من أن تحقق حلمها الاول في عالم السياسة ، فتعتلي قمة الخلافة ، بالرغم من عقدة السواد التي ستكون — فيما بعد — سببا رئيسيا في محنته ، ومحنة غيره من الشعراء السود • لكن الامر لم يطل به •• فسرعان ما وصل خبر استلامه الخلافة الى صاحب مصر ، فأرسل اليه من أحضره مكبلا ، وأمر بأن يحبس في المطبخ الذي كان يتولاه قديما •• الا أنه عاد فأفرج عنه بعد توسط من قبل أخيه المهذب بن الزبير (٤) •

ويبدو أن هذه الفترة القليلة التي استلم فيها سدة الخلافة لم تكن لتروي غله المتعطش للعلو •• لذلك نراه يتحين فرصة أخرى ليحقق مآربه •• وتسنح الفرصة عند استلام العاضد أمر الخلافة ، وعندما يحاول شيركوه اقتحام مصر •• نرى الرشيد يميل الى حركته فيكاتبه، وينضم اليه (٥) • ويقوم الوزير شاور بالتصدي لهذه الحملة المناوئة ، ويرسل من يتعقب الرشيد ، الذي يختفي في الاسكندرية هاربا من بطش شاور • ويتفق التجاء السلطان صلاح الدين الى الاسكندرية ومحاصرته فيها آنذاك ، فيخرج الرشيد راكبا ، متقلدا سيفه ، وشاور يشتد في طلب الرشيد حتى يظفر به فيأمر باشهاره على جمل ، وعلى رأسه طرطور ، ووراءه جلواز ينال منه ، فطيف به على هذه الحال ثم صلب شنقا على الاثر ، ودفن في الاسكندرية الى ان نقلت رفاته

---

(١) وفيات الاعيان ١ / ١٤٤ — معجم الادباء ٤ / ٥٤
(٢) الاعلام : ١ / ١٦٨
(٣) الاعلام ١ / ١٦٨ .
(٤) المصدر السابق ١ / ١٦٨
(٥) المصدر السابق ١ / ١٦٨

الى القراءة (١) • وهكذا ومن حيث طمحت همته العالية الى الوصول الى أعلى المراتب ، كان القدر بالمرصاد يترصد وثباته ، ويفتح العيون عليه ، لتنال من آماله وطموحاته ، قبل أن تمتد اليد الاخرى فتنال من البقية الباقية من عمره •
ورغم أن عقدة اللون لم تكن لتشكل مشكلة نفسية كبيرة تعيق من تحركات الرشيد ، الا أنها كانت سببا في نيل حساده منه ، هؤلاء الذين لم يروا سوى هذه المنقصة فيه — وفق نظرهم — ليصبوا حسدهم وغلهم فوق رأس هذا الشاعر الاديب •• ومن هذا القبيل ما قاله فيه ابن قادوس :

ان قلت من نار خلقت ... وفقت كل الناس فهما

قلنا صدقت في الذى ... أطفاك حتى صرت فحما

كما يروى •• أنه لما توجه الرشيد الى اليمن من قبل الخليفة الحافظ، قال فيه بعض شعراء اليمن قصيدة بعثوا بها الى صاحب مصر منها :

بعثت لنا علم المهتدين ... ولكنه علم أسود (٢)

الناتج الأدبي والشعري :

لم يكن الشعر هو الميدان الوحيد الذى طرقه الرشيد الغساني، وانما كان عالما متفقها في كثير من العلوم — كما ذكرت كتب الادب ••

فهو أديب متفقه ، عارف بالهندسة ، والطب ، والموسيقى ، والنجوم (٣) •
واعتبره الحموى "كاتبا ، شاعرا ، فقيها ، نحويا ، لغويا ، ناشئا ، عروضيا ، مؤرخا منطقيا ، مهندسا ، عارفا بالطب والموسيقى والنجوم، متفننا • " (٤) وبالغ بعضهم فاعتبره "أسود الجلدة ، وسيد البلدة ، أوحد عصره في علم الهندسة ، والرياضيات ، والعلوم ، والشرعيات ، والآداب الشعريات • " (٥)

أما شعره •• فقد توزع بين المدح وبين الشعر الذاتي الذى يحكي فيه بعض تجاربه الشخصية •• وفي قصيدته التي أجاب بها أخاه المهذب، والذى بدأها بالغزل ، مصداق ذلك :

---

(١) الاعلام ١٦٨/١
(٢) وفيات الاعيان : ٥٢/١
(٣) الاعلام : ١٦٨/١
(٤) معجم الادباء : ٥٧/٤ — ٥٨
(٥) وفيات الاعيان : ١٤٤/١/١ •

يا ربع ، أين الاحبة يمموا رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم
وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم وضياء نور الشمس ما لا يكتم

الى أن يبدأ بسرد الحكمة التي علمتها له الحياة :

جار الزمان عليّ ، لما جرتم ظلما ، وطال الدهر ، لما طلتم
وغدوتُ بعد فراقكم ، وكأنني هدف يمرّ بجانبيه الاسهم
ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة قلّ الصديقُ بها وقلّ الدرهم
في معشر خلقوا شخوصَ بهائم يصدى بها فكرُ اللبيب ويبهم (١)

أما في الادب فكان انتاجه غزيرا ، الا أنه لم يكن أكثر حظاً من انتاجه الشعري من حيث استمرارية البقاء .. فقد تناقلت كتب الادب مؤلفاته الكثيرة التي عددت منها : كتاب أمنية الألمعي ومنية المدعي — وكتاب المقامات ، كتاب جنان الجنان وروضة الاذهان في أربع مجلدات تشتمل على شعر شعراء مصر كلهما ، ومن طرأ عليهم ثم كتاب الهدايا والطرف ، وشفاء الغلة في سمت القبلة ، ثم رسالة وتحوى خمسين ورقة وديوان شعر نحو مائة ورقة (٢) .

شخصيته :

من خلال أحداث حياة الرشيد الغساني ، التي كانت بحثا دائما عن السلطة ، شعرنا بشخصيته القوية التي اعتمدت العلم والمعرفة والقيم الاخلاقية وسيلة ارتقى بها درجات الحكم .. في الوقت نفسه الذى كان المجتمع يقف متربصا به ، مثلما تربص من قبل بالخليفة ابراهيم بن المهدى حين سمت نفسه الى الخلافة . حتى أهل العلم والأدب ، وهم ينقلون أخبار هذا الأديب المتفقه ، ويعددون مآثره في ميادين العلوم المتنوعة ، كانت لهم غمزات لم يكن من مبرر لها سوى تلك النظرة الوضيعة للتي كان ينظر بها الى السود عامة دون تفريق وكأنهم — من خلال ذلك — يلفتون النظر الى استثناءات الحياة ، وما تحمله في بعض الأحيان من مفاجآت .. " فهو أسود الجلدة وسيد أهل البلدة " وهو " على جلالته وفضله ... أسود الجلدة جهم الوجه .. " وكأنهم استكثروا على أسود مثله أن

(١) معجم الادباء : ٤/٥٧ — ٥٨
(٢) المصدر نفسه : ٤/٥٧ — ٥٨

يتبوأ سدة الخلافة بعلمه ٠٠ وقد أنزعهم أن تطمح جلدة سوداء، مهما حملت وراءها من بيض الفعال ، الى نيل المحظور لا سيما السلطة التي كانت وقفا على جماعة معينة ٠ الا أنه رغم الاعتبارات كلها ، والمعوقات جميعها ، استطاع أن يحقق بعض طموحاته ، وأن يصل ولو لفترة ، وأن يسجل موقفا مشرفا لابناء جلدته ٠ وهذا ان دل على شيء فانما يدل على همته العالية ، ومقدرته في جوانب العلم المتعددة ٠

الباب الثاني

الغزل عند الشعراء السود

مقدمة :

ماهية الحب والغزل :

حين قال أفلاطون عن تلك العاطفة التي اصطلح على تسميتها بالحب أو الهوى : " ما أدري ما الهوى غير أني أعلم أنه جنون الهي لا محمود ولا مذموم " (١) فهو يحاول ايجاد تعريف يستطيع من خلاله أن يصور كنه هذه العاطفة التي سميت بالحب أو الهوى • وحين يقول عنه ابن حزم الاندلسي معرفا ومرشدا : " الحب أعزّك الله أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة ، اذ القلوب بيد الله عزّ وجلّ • " (٢) نراه يكرر المحاولة لايجاد صيغة أكثر اقناعا والتصاقا بالنفس فيذهب الى ايجاد مسوغ معقول لرأيه ، اذ القلوب بيد خالقها ، واذ هي موطن ذاك الحب ومهبطه •

وهذه العاطفة التي ولدت بولادة الانسان ، ونمت بنموه ، وتطورت بتطوره فاكتملت باكتماله ، برزت جلية واضحة في ابهى صورها بين الرجل والمرأة • فكانت نقطة البدء ، أو بدء التكوين لعواطف اخرى تتدرج تحت بابهما ••

واذا آمنا مع ابن حزم بأن عاطفة الحب لا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة رحنا نبحث عما كتب حول هذا الموضوع، ونقلب وجوه أقواله وفلسفته حول هذه العاطفة نرى الرجل بعد ذلك يسعى الى كسب ود المرأة بطرق شتى ، فيبرع ويخترع ويتفنن في الأساليب التي يراها كفيلة بالوصول الى قلبها •• هناك •• يبثها لواعج قلبه وآلام حبه وآماله ، يبثها أحاديث الهوى والهيام ليعبر لها عن أسرار جمالها في نفسه ، ويتوجها ملكة على القلب • فتاريخ الامم والشعوب حمل ولا يزال يحمل الينا الوان الحب وقصصه المشهورة • وينقل على لسان أدبائه وشعرائه وفلاسفته وصفا دقيقا للمرأة • وهذا ما يفسر اهتمامهم بها ، فقد أحبوها وتعلقوا بها ، فأيقظت

---

(١) كتاب الزهرة : للاصفهاني ـ النصف الاول /١٥

(٢) طوق الحمامة : ابن حزم الاندلسي / ج١ ـ ص ٤١

روح الشعر فيهم ، وألهمتهم الوحي والعبقرية • وغدا الشاعر العربي ، في صحرائه المترامية الاطراف ، وضمن ظروف الحياة القاسية فيها ، غدا الرفيق الدائم لهـا ، وصاحب الحظوة لديها لا سيما في عطه الفني • وغدت هي حديث القلب المفرح تارة والشجي تارة اخرى ، هذا الحديث الذى حمل بين جنباته حلاوة الوصل واللقاء كما حمل مرارة التمنع والحرمان ، وكان حديث العواطف والمشاعر الرقيقة ، وحديث الحب والهيام الى أن اطلق عليه — فيما بعد — الغزل ، وقد يحلو لآخرين ان يسموه النسيب والتشبيب • ودقة المعاني لهذه الالفاظ الثلاثة تعطيه معاجم اللغة فيقول لسان العرب عن الغزل انه : " حديث الفتيان والفتيات ومغازلة النساء : اى محادثتهن ومراودتهن " • (١) وعن التشبيب : " التشبيب بالشعر هو ترقيق أوله بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار وتأريثها " ، ويقال : شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب والتشبيب : النسيب بالنساء • وعن النسيب فيقول : نسب بالنساء يَنْسُبُ ويَنْسِبُ اى شبب بهن في الشعر وتغزل (٢) • أما تاج العروس فالغزل فيه هو : " محادثة النساء ولحله من معانيه ، والمعروف عند ائمة الادب وأهل اللسان أنّ الغزل والنسيب هو مدح الاعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر ونحو ذلك " (٣) والتشبيب " هو في الاصل ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ويكون في ابتداء القصائد ، وسمي ابتداؤها مطلقا ان لم يكن فيه ذكر الشباب " (٤) ونسب الشاعر في المرأة، شبب بها في الشعر والغزل ، وذلك في أول القصيدة ثم يخرج الى المديح • ونسب بها اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا وغير ذلك (٥) ونسب الشاعر بالمرأة ونسب الرجل هما جميعا من الوصف لان من نسب رجلا فقد وصفه بأبيه أو ببلده أو نحو ذلك ، ومن نسب بامرأة فقد وصفها بالجمال والصبا والجودة وغير ذلك " • (٦)

---

(١) لسان العرب مادة غَزَلَ ، المجلد ١١ / ٤٩٢
(٢) المصدر نفسه = المجلد ١ / ٧٥٦
(٣) تاج العروس ج٨ / ٤٣
(٤) المصدر نفسه ج١ / ٣٨
(٥) المصدر نفسه ج١ / ٤٨٣
(٦) المصدر نفسه ١ / ٤٨٣

روح الشعر فيهم ، وألهمتهم الوحي والعبقرية • وغدا الشاعر العربي ، في صحرائه المترامية الاطراف ، وضمن ظروف الحياة القاسية. فيها ، غدا الرفيق الدائم لهما ، وصاحب الحظوة لديها لا سيما في عطه الفني • وغدت هي حديث القلب المفرح تارة والشجي تارة اخرى ، هذا الحديث الذى حمل بين جنباته حلاوة الوصل واللقاء كما حمل مرارة التمنع والحرمان ، وكان حديث العواطف والشاعر الرقيقة ، وحديث الحب والهيام الى أن اطلق عليه — فيما بعد — الغزل ، وقد يحلو لآخرين ان يسموه النسيب والتشبيب • ودقة المعاني لهذه الالفاظ الثلاثة تعطيه معاجم اللغة فيقول لسان العرب عن الغزل انه : " حديث الفتيان والفتيات ومغازلة النساء : اى محادثتهن ومراودتهن " • (١) وعن التشبيب : " التشبيب بالشعر هو ترقيق أوله بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار وتأريثها " ، ويقال : شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب، والتشبيب : النسيب بالنساء • وعن النسيب فيقول : نسب بالنساء يَنْسُبُ وَيَنْسِبُ اى شبب بهن في الشعر وتغزل (٢) • أما تاج العروس فالغزل فيه هو : " محادثة النساء ولعله من معانيه ، والمعروف عند ائمة الادب وأهل اللسان أنّ الغزل والنسيب هو مدح الاعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر ونحو ذلك " (٣) والتشبيب " هو في الاصل ذكر أيام الشباب واللهو والغزل ويكون في ابتداء القصائد ، وسمي ابتداؤها مطلقا ان لم يكن فيه ذكر الشباب " (٤) ونسب الشاعر في المرأة، شبب بها في الشعر والغزل ، وذلك في أول القصيدة ثم يخرج الى المديح • ونسب بها اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا وغير ذلك (٥) ونسب الشاعر بالمرأة ونسب الرجل هما جميعا من الوصف لان من نسب رجلا فقد وصفه بأبيه أو ببلده أو نحو ذلك ، ومن نسب بامرأة فقد وصفها بالجمال والصبا والجودة وغير ذلك " • (٦)

---

(١) لسان العرب — مادة غَزَلَ ، المجلد ١١ / ٤٩٢
(٢) المصدر نفسه — المجلد ١ / ٧٥٦
(٣) تاج العروس جـ٨ / ٤٣
(٤) المصدر نفسه جـ١ / ٣٨
(٥) المصدر نفسه جـ١ / ٤٨٣
(٦) المصدر نفسه ١ / ٤٨٣

فالغزل محادثة النساء ، والتشبيب النسيب بالنساء ، والنسيب هو التشبيب بهن ... وهكذا تتداخل معاني الالفاظ بعضها ببعض لتعطي في النهاية معنى واحدا يدور حول الحديث المتعلق بالنساء من وصف لهن ولجمالهن ، وما يثير هذا الجمال في النفس . وتذكر لايام وصلهن الخالية وما تثير من حنين اليها ، وبكاء على ما دثر منها .. واشراقة أمل لما يمكن أن يعاد من ذاك الوصل ..

وحديثنا عن المعاني التي تشير اليها الفاظ الغزل والنسيب والتشبيب يجرنا الى الحديث عن مسيرة الشعر الغزلي منذ جاهليته حتى العصر العباسي ، وهي الفترة التي تدرج فيها الشعراء السود موضوع هذه الدراسة، وعن تطور هذا الفن خلال مسيرته ، والاسباب الداعية لهذا التطور .. كما تجرنا الى تبيان النقاط التالية التي استدعتها طبيعة البحث في الشعر الغزلي عامة، والشعر الغزلي عند السود بشكل خاص :

١ ــ ماهية الحب أو العشق

٢ ــ مكانة المرأة لدى الشاعر العربي ، وتطور هذه المكانة الزمني

٣ ــ مظاهر هذه العلاقة ، والمسالك التي سلكتها .

ماهية الحب :

الحب نقيض البغض ، وهو الوداد والمحبة ، وكذلك الحِب بالكسر ، والمحبة اسم له .. وتقول : تحبب اليه أي تودد ، والحُباب أيضا الحب ، وهنا يستشهد ابن منظور على ذلك ببيت من شعر أبي العطاء السندي :

فوالله ما أدرى، واني لصادق أداءٌ عراني من حُبابك ام سحر (١)

أما العشق ، فهو فرط الحب ، أو هو عجب المحب الى محبوبه (٢) .. وقيل أيضا العشق مشتق من العَشَقَة وهي شجرة تسمى اللبلاب تخضر ثم تصفر وتذوي (٣) .. وهكذا العاشق من تفتح الى اصفرار الى ذبول .. ولهذا فضل بعضهم الحب "لان العشق فيه افراط " (٤)

---

(١) لسان العرب ج١ / ٢٨٩

(٢) المصدر نفسه ج١٠ / ٢٥١ ــ ٢٥٢ ــ تاج العروس ج٧ / ١٣

(٣) المخصص ــ ابن سيدة ج٤ / ٥٩ ــ ٦٠ ولسان العرب ١ / ٢٨٩

(٤) لسان العرب وتاج العروس

وتحديد هذه العاطفة التي ربطت بين الرجل والمرأة ، والتي اطلق عليها اسم الحب تارة واسم العشق تارة أخرى ، ومن ثم ايجاد تعريف لها وتحديد ماهيتها كان أمرا شاقا على الدارسين والفلاسفة الاوائل رغم انهم حاولوا أكثر من مرة تحديد ذلك ، وكان كل واحد منهم اذا ما ذكر اشياء من هذا القبيل خفيت عليه أشياء أخرى حتى تعددت النظرات الى تحديد ذلك ، وان كانت كلها تعود فتجتمع عند المعنى اللغوى للكلمة • ذلك أنه من "أشق الامور تعريف المعنويات ووصف الأمور المجردة البعيدة عن الادراك بالحس ، ففيها تختلف الأفهام وتتعدد الآراء " (١) •

وطالما أننا في صدد دراسة الغزل عند طائفة معينة من الشعراء ، والغزل طريقة للتعبير عن الحب بوجوه متعددة ، فلا بأس أن نلقي نظرة على آراء الأوائل الذين اهتموا بدراسة هذه العاطفة •• وأفردوا لها كتبا ضخمة ما تزال تحتمر جوهرة ثمينة تتوسط عقد المؤلفات العربية • خاصة أن أشعار الغزل تشكل الجزء الأكبر من تراثنا الشعرى ، ومن ثروتنا الأدبية •

وأول ما يشدنا الى ذلك الدراسة العربية الاولى التي أفردت لموضوع العشق وهي رسالة الجاحظ في "العشق والنساء" (٢) فهو يعرف العشق بأنه "اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه الحب (٣)" وهو بعد أن يتأمل شأن الدنيا يجد "أن أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطلبيه" (٤) •

وابن داوود من الأوائل الذين تناولوا هذا الموضوع بالدراسة في كتابه "الزهرة" مشيرا من خلاله الى الاتجاهات السائدة في فهم طبيعة العشق أو المحبة وحصرها في مجالات ثلاثة هي :

- الاتجاه الاسلامي
- الاتجاه الفلسفي
- الاتجاه الصوفي

---

(١) دراسة الحب في الادب العربي ج٢ / ٥٩ — ٦٠
(٢) مجموعة رسائل الجاحظ / ص٢٦٦
(٣) المصدر نفسه /٢٦٦
(٤) المصدر نفسه /٢٦٧

أما الاتجاه الاسلامي فيشير اليه برواية حديث عن السيدة عائشة عن النبي (ص) أنه قال : "الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف (١) " وكأنه من خلال استشهاده بهذا الحديث الشريف يريد أن يعطي المحبين الأمان بهذا المؤيد الديني • وهذه ناحية مهمة كان يلجأ اليها الدارسون لطبيعة الحب والعشق ، ليبينوا بالتالي صحة آرائهم بما يوافق احكام الشريعة والمشرّع •

واذا ما بحث ابن داود في حقيقة العشق " لمَ وقع ، وكيف وقع اذ قد صح كونه عند العامة وخفي سببه على الخاصة " •(٢) واذا ما أورد الاتجاهات السائدة في فهم طبيعة العشق ، نراه يخرج النظرية الى حيّز التطبيق فيبين لنا مراتب العشق حيث تتفاوت قوة وضعفا من شخص لآخر مشيرا الى أن الحب يتولد من النظر أو السماع فيقول تحت باب " من كثرت لحظاته دامت حسراته " : " ربَّ حرب جنيت من لفظة وربَّ عشق غرس من لحظة " (٣) • ثم يسترسل ليبين مراتب العشق " الأحوال التي تتولد عن النظر والسماع الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة والمودة سبب الارادة ، فمن ودّ انسانا ودّ أن يكون له خلاً ، ومن ودّ غرضا ودّ أن يكون له ملكا • ثم تقوى المودة فتصير محبة والمحبة سببها للطاعة " • والمحبة بدورها ترتفع لتصير خلة وتقوى الخلة فتصير عشقا ثم يزداد العشق فيصير تيّما " ثم يزداد التيتم ليصير ولها " والوله هو الخروج عن حد الترتيب ، والتعطل عن أحوال التمييز حتى تراه يطلب ما لا يرضاه ويتمنى ما لا يهواه " (٤) •

وكما حدد ابن داود مراتب العشق ، نرى ابن حزم يتطرق الى البحث في ماهية الحب فيرى أنه " اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع " (٥) وهو " استحسان روحاني وامتزاج نفساني • " ثم يبين

---

(١) الزهرة ـ النصف الاول / ١٤

(٢) النصف الاول من الزهرة / ١٤

(٣) المصدر نفسه / ٨

(٤) المصدر نفسه / ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١

(٥) طوق الحمامة = ابن حزم الاندلسي / ١٢

العلة التي توقع الحب فيراها في "أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن ويميل الى التصاوير المتقنة • فهي اذا رأت بعضها تثبت فيه (١) "

وهذه المجموعة من التعريفات • التي تبحث في ماهية الحب • والذى هو صدى للنفس الداخلية ، تحاول أن تضغط كنه هذه العلاقة وفق قواعد وأسس معينة •• وما أبعد أن تعرف علاقة الحب وفق قواعد علمية واضحة • وما أبعد أن تعرّف العاطفة وفق قواعد العلميين والمنطقيين • فهي قبل أى شيء احساس •• والاحساس يترجم الى شعر — لا سيما اذا اعطي صاحبه حظاً من الشاعرية • والغزل أو الحديث عن المرأة على وجه الاجمال كان وثيق العلاقة بالشعر منذ نشأته الاولى ، ومن هنا كان الشعر يحمل في عصوره المتعاقبة وثائق لتطور هذه العاطفة ودلائل لا تجاهاتها ومعانيها (٢)

وقبل الابتعاد عن دائرة التعاريف لهذه العاطفة لا بأس أن نمرّ بـ "مصارع العشاق " فربما وجدنا فيه ما فقدناه في تعريف ما مرّبنا من قبل • الا أنه أكثر ما نستطيع التركيز عليه في هذا الصدد هو ما نقله ابن السراج في كتابه عن تعريف لماهية الحب أطلقها حكماء وفلاسفة وأدباء في هذا السبيل دون تعليق منه عليها أو تأييد مباشر لها • ومن ثم يكتفي بايراد أحداث وقصص تدور حول العشاق والمحبين ، فكان منهجه في الكتاب منهج مخبر أكثر منه منهج باحث أو مؤلف •• وأكثر ما يجذب الانتباه مما أورده ابن السراج هو ما رواه عن اجتماع المأمون بيحيى بن أكثم ضمن جلسة أدبية ، وسؤاله اياه عن العشق فيجيب أكثم : " هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه " ويعترض ثمامة بن الاشرس الذى كان من بين الجلساء — على هذا التعريف محاولا ايجاد تعريف أكثر شمولية — برأيه — واقترابا من الحقيقة

---

(١) طوق الحمامة / ١٥

(٢) دراسة الحب في الادب العربي د • مصطفى عبد الواحد ج٢ • وقد أورد المؤلف ملاحظته حول لفظ الحب ثم العشق فرأى ان السراج وابن داود استعملا لفظ العشق ، في حين استعمل ابن حزم لفظ الحب في الموقع نفسه ويرد ذلك الى اشتهار لفظ العشق في البيئة العراقية • أو لدقته اللغوية • وقد أشرت في حينه الى المعنى اللغوى لكل من اللفظين كما وردا في معاجم اللغة •

فيقـول : " العشق جليس ممتع وأليف مؤنس ، وصاحب ملك • مسالكـه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرهـا ، والعيون ونواظرها والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها وقود تصرفها ، توارى عن الأبصار مدخلـه وعمي في القلوب مسلكه (١) • ويظل تطامة نتيجة لذلك جائزة من المأمون وما أظـن في هذا التعريف تصويرا حقيقيا لماهية العشق • بل لا يعـدو أن يكون وصفـا لاحوال العشاق ••

بعد هـذه الجولة فـي أمهات الكتب الأدبية التي بحثت في موضوع الحـب وماهيته وأحواله ، هل استطعنا التوصل الى تعريف مضبوط للحب يصح أن يكـون قياسا فيما بعد ؟ •• وهل استطعنا أن نضع النقاط على الحـروف المكونة للتعريف؟ •• ثم بالتالي هل نستطيع أن نضع الحب في قالب جامـد من التعريفات ؟ ••

ربما يكون الجميع قد أعطونا فكرة عامة ، بـل وصفا شامـلا لهذه العاطفـة التي حيرت الفلاسفة والادباء ، وربما يكونوا قد لامسوا ـ بتعريفاتهم ـ طرفا مـن الحقيقة أو الحقيقة كلها بحسب ما يزعمون •• وربما لن نستطيع الوصول الى حقيقـة كاملة لتعريف هذه العاطفة وتحديد ماهيتها ، ولو أوردنا ما قاله أهل الرأى في هـذا المجال ، وأعملنا فيه البحث والتمحيص • خاصة اذا ما آمنا بأن الحبَّ يلتصق بالنفس أكثر مما يلتصق بالجسد • وعالم النفس عالم واسع رحـب غير محدود من الصعـب تحديده بحدود ، أو سكبه في قالب مادى قابل لوضع النظريات وتطبيقاتها • واذا مـا آمنا مع الشعراء ـ الذين هم أكثر من تحدث عن هذه العاطفة حديث معانـاة وتجربة ـ اذا ما آمنا معهم " بأن الهوى يهوى من سمـاء

القلـب
بـلا شـروط
وينفلـت من فضائـه
بـلا مساومـة
ويتسلل الـى النفس
بـدون قيـود (٢)

---

(١) مصارع العشاق / ٣٢٢
(٢) لأنك حبيبتي / مجموعة شعرية لأسعد علـي / ٥٦ ـ ٥٧

اذا ما آمنا بذلك ، وقفنا عند هذا الحد من الدراسة النظرية لماهية الحب ، لنعود ونجد تطبيقاتها العملية اكثر وضوحا في تجربة الشعراء السود ، ولا سيما ان غزل هؤلاء كان له طابعه الخاص ، وكان من لهنة مختلفة " كان هؤلاء يختلفون عن اخوانهم من شعراء الغزل الآخرين بالمضمون أكثر من الشكل . وهذا الاختلاف هو الذي دفعهم الى تكوين نظرة الى الحب والعشق مغايرة في اكثر ملامحها للنظرة التقليدية .. وهذا ما سيتضح في الفصل الخاص بالغزل ..

ولا بد لنا قبل الخوض في ذلك من القاء نظرة سريعة الى مسيرة الشعر الغزلي ومكانة المرأة في العصرين الجاهلي والاسلامي ، ولا سيما أن شعراءنا السود منهم من عاش في الجاهلية .. ومنهم من كان مخضرما ، ومنهم من عاش الاسلام بعصريه الاموي والعباسي .

مسيرة الغزل ومكانة المرأة من خلاله :

مسيرة الحب مع المرأة منذ الجاهلية وحتى الآن ، يذكرنا بدورها الكبير ذي الاثر العظيم في الشعر العربي ، منذ أن تفتحت فتاة تهفو اليها القلوب ، وشابة تلهم العقول الفكر الخلاق المبدع ، وحبيبة توحي وتحرك وتثير . الى ان أيمحت أما تنشئ أجيال الحاضر والمستقبل ، وتُعِدُّ أبطال الغد المشرق في اكثر من مجال .. لقد رنت اليها العيون ، وتطلعت ومالت اليها القلوب ، تريد أن تبثها حديث الوجد والهيام ، حديث الحب والغرام . فصار هذا الحديث فنا من أعرق فنوننا الشعرية وأحبها الى القلب وصارت له مكانة سواء من حيث الكم والكيف في الشعر العربي ، ومن حيث تصوير خبايا النفس ومكنوناتها ، فكان انعكاسا لذاتية الشاعر العربي رسم عليها كل تضاريس قلبه وحدد فوقها مواقع حبه ..

لقد أحب العربي منذ عصوره الاولى المرأة ، وتغزل بها ، فكان غزله هذا تعبيرا عن ذلك الحب ، وتجسيدا لذلك الاعجاب بجمالها الخُلقي والخَلقي ، ووسيلة للوصول الى قلبها مهما كلفه هذا الوصول من مشقة حتى أنه في كثير من الاحيان اتخذ من المقدمات الغزلية في قصائده وسيلة للعبور الى افانين اخرى في القول ... فاذا ما اراد الفخر او المدح او الوصف او حتى الرثاء نراه ينتقل الى ذلك عبر مقدمة يفرغ فيها شحناته العاطفية كلها ، من تذكر الاحباب الذين رحلوا وتركوا الحسرات والآهات الدامية .. ومن وصف لديار الاحباب التي كانت بالأمس مأهولة فرحة سعيدة بمن فيها .. ثم وصف للحبيبة وصفا يأتي على كل عضو فيها من الرأس حتى القدمين ،

وفق مقاييس كانت هي المقياس الامثل والشرط الأكمل للجمال • هذا الجمال الذى أدركوه من خلال طبيعة بلادهم بصحرائها المترامية ، وشمسها المشرقة الساطعة وسمائها الصافية المتلألئة ، ونخيلها الباسق ، وحيواناتها المتعددة الاليف منها والمتوحش ، فوصفوا ذلك كله وصفا دقيقا متكاملا ، ثم انتقل ادراكهم الجمالي الى المرأة فجسدوا ذاك الجمال وصاغوه في قالب استحال بفعل السحر لديهم امرأة مشرقة الوجه فاستعاروا اشراقة شمس الصحراء لصباحة وجهها •• وسواد الليل لسواد شعرها ، وعذوبة الغدران لحلاوة ريقها ، وطول النخلة لقامتها الفارعة ، وحمرة البلح لخدها الاسيل الأملس ، ورشاقة الغزلان لمشيتها وحركتها •• ودعج عيون المهى لبريق وجمال عينيها ، نقلوا جمال الطبيعة الصامت فأحالوه من خلالها كلاما واغانا ، ونشيدا عذبا يتغنى به الندامى ، وربط عكسوا الآية فاستعاروا بعضا من مواطن الجمال لديها للطبيعة الصامتة • فغدت الطبيعة جميلة جمال المرأة ، بل مستمدة كل جمالها وجاذبيتها من سحرها وفتنتها . والواقع أن الوصف الحسي للمرأة كان الطابع المميز للغزل في العصر الجاهلي ، ونظرة فاحصة للمعلقات والشعر الجاهلي عموما تذهب الى تأكيد هذا • تذهب الى ان الشاعر العربي حين أحب ، غلب عليه هذا الحب وشغل قلبه ولسانه •• فجاءت أشعاره تجسيدا لذلك ، ووصفا دقيقا لحاله وحال الحبيبة معه ، متطرقا من خلال هذا الوصف الى وصف اكثر دقة لاعضائها فرأى مقومات جمال المرأة آنذاك متمثلة في الوضاحة والصباحة والهيف والرشاقة وأحب أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ، ممتلئة الردفين ، بارزة النهدين •• " فالذوق العربي في دقة الخصور وبروز الارداف ذوق محمود يزكيه حب التنسيق كما يزكيه تكون وظائف الاعضاء " • (١) والمرأة عند امرىء القيس هي المقياس لما أراده العرب الاوائل من اوصاف للمرأة المثال •• وهي — في الوقت نفسه — الاوصاف التي تحاور عليها الشعراء من بعده مع تغيير طفيف في التفصيل واتفاق في الشكل العام • وفتاة امرىء القيس غرّاء فرعاء مهفهفة بيضاء ، مصقولة الصدر كالمرآة ، اسيلة الخد ، عيناها كعيني بقر وحشي ، وجيدها كجيد الظبي الاغر وقد زينته بالحلى ، فبدا اجمل منظرا واشهى مقبلا •• أما شعرها فهو كثيف كعذق النخلة المتشعب وفاحم كليل مدلهم •• وأما لونها فأبيض ناصع مائل الى الصفرة ، ومشرق اشراقة تضيء ظلام الليل ، بنانها لطيف دقيق ، وساقها بيضاء لدمة مستديرة ، وهي الى جانب ذلك كله مترفة منعمة ينم عن ذلك تأخرها في النوم •

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي د • أحمد الحوفي / ٢٨

هذه هي مقاييس الجمال الجسدي عند امرئ القيس، وهي مقاييس عامة تعارف عليها الشعراء العرب قديما بشكل عام •• مع اضافات بسيطة، ولمسات فردية تميز بها شاعر عن آخر، وتتفاوت جرأة وعفة بين شاعر وآخر، الا أنها تقترب في الخط العام من المقياس الاصلي • لكننا لا نعدم من بين تلك الاصوات المتغنية بأوصاف المرأة الجسدية ،، اصواتا خافتة تغنت بجمال المرأة الخَلقي، وانجذبت الى جمالها النفسي، لكنها مع ذلك لم تستطع سبر غور هذه النفس، والتعرف على حقيقتها فبقيت طافية على السطح • ومع ذلك تبقى محاولة •• كما لا نعدم في هذا المجال من كانت المرأة عنده وسيلة للوصول الى غاية أفضل وليست غاية تقصد لذاتها •• وسيلة لتحقيق الطموح، وطموحا تمثل في نيل الغاية • وعنترة في هذا المجال الفارس المجلي الذي رأى في لمعان واشراقة ابتسامة عبلة لمعان السيوف القاطعة •

وجاء الاسلام •• وعمت تعاليمه البلاد، فتغيرت بمجيئه مفاهيم وقيم، وشيدت فوق دعائمه حضارة رائعة عمت المشرق والمغرب • وقام على انقاض المجتمع الجاهلي مجتمع اسلامي شرّع دستوره كتاب سماوي ضم بين دفتيه احكاما وتشريعات رسمت بموجبها صورة للمجتمع الافضل الذي تسوده الحرية والعدالة الاجتماعية، فلا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى • وازدهرت الحياة وهي تحبو جنبا الى جنب مع تشريعات الدين الجديد •• فكيف الحال مع الحب في ظل الدين الجديد، وكيف كان موقف الاسلام من هذه العاطفة ؟ •• وكيف تابع الشعراء مسيرة الغزل وفق احكامه ؟ •• وبالتالي فنحن نتساءل هل خفت حدة هذه العاطفة ؟ هل خمدت جذورها ؟ أم تابعت نموها بأمان وأينعت ثمارها باطمئنان ؟ •••

لا شك في ان الفتح الجديد وسّع من أفق الحياة الجاهلية التي كانت مرتبطة أشد الارتباط بطبيعة الصحراء البكر، ومن طبيعة المجتمع الجاهلي المعزول وراء حدود القبيلة •• وحمل معه تعاليم هي بمجملها غريبة على هذا المجتمع، ولم يكن دخولها هذا العالم المغلق سهلا •• كما لم يكن انتشار مبادئه في العقول المحدودة التفكير سريعا وعميقا • حتى اننا لا نعدم في صدر الاسلام من وقف من الشعراء متذبذبا بين العالمين، عالم الجاهلية الذي بدأ بالاندثار تحت وطأة ضربات الدين الجديد • وعالم الاسلام الذي بزغت شمسه فمست كل شيء، وبدأت التغلغل شيئا فشيئا في اعمق الاعماق • وهذا ما حدث بالنسبة لفن الغزل اذ انه تضافرت اسباب عديدة للاكتفاء بالصورة التقليدية والاوصاف الكررة التي خطها شعراء العصر الجاهلي والذي كان منهم من عمر مع العابرين الى عالم الاسلام وحاول الاندماج مع تعاليمه وتقاليده • ولذلك

" بقيت نظرة الشعر في صدر الاسلام الى المرأة هي النظرة الحسية نفسها التي تحفل بالمفاتن وتصف ما يطلع الحسن • " (١)

ولما استقر الدين الجديد ، وتوطدت دعائمه ، وتغلغلت تعاليمه الى اعمق اعماق القلوب ، واستقرت بالتالي حركة الفتوح فاتخذت الحياة الاجتماعية آنذاك وجهة جديدة في كل شيء •• في العقيدة •• في النظرة الى الحياة •• وبالتالي الى المرأة •• في طريقة التفكير •• حتى تعدى هذا الجديد الحياة الى الشعر بشكل عام •• والى الغزل بشكل خاص •

لقد احترم الاسلام الحرية الفردية شرط الا تكون عائقا امام حرية الجماعة وبالتالي احترم عاطفة الحب ، وعمل على تصعيدها والسمو بها من عالم الرذيلة الى عالم الفضيلة •• ومن عالم الشهوات والرغبات غير المحدودة الى عالم العفة والجنة الموعودة • صعّد الميول والاهواء والرغبات وأطلقها في عالم الحب الرحب الذى لم يقتصر ـ كما كان في بدايته ـ على العاطفة المتبادلة بين الرجل والمرأة •• بل عدد صورها ، وعمّق مفهومها • فأمدّ الشعراء بأفكار جديدة جالوا فيها • وأمدهم بعواطف جديدة فكتبوا عنها •• وعرّفهم بذواتهم فعكفوا يتعمقون هذه الذات ويتأملونها يجولون فيها جولات داخلية • فأغنوا أشعارهم بما في ذواتهم من عوالم خلاقة مبدعة ••

وجاء العصر الاموى ، وما يزال حظ الشعر الغزلي في اتساع بعد أن استقرت الامور في البلاد ، وانتقلت السلطة من الحجاز الى الشام ، وبدأ المسؤولون فيها يديرون دفة الحكم بعد أن " عمل معاوية بدهائه على جمع القرشيين من اطراف البلاد العربية ودفعهم الى الحجاز لعلهم يجتمعون فيه فلا يخرجون على ان يؤمن رزقهم ومتاعهم من بيت المال ، وبذلك حبست الطبقة الارستقراطية من الحجازيين داخل الحجاز وأصبحت تعيش في رخاء ويسر لا هم لها من الحكم ولا تستطيع

---

(١) دراسة الحب في الادب العربي ١ / ٢٣

أن تنصرف الى نفسها وشؤونها الداخلية وأن تعقد مجالس الطرب • " (١) وهذا ما أعطى العصر دفعة قوية جديدة كانت آثارها وجود عدة مدارس غزلية • تجلت في تراثها الشعري الضخم أبرز مظاهر الشعري الغزلي على امتداده منذ الجاهلية، كما تجلت في الشعر الغزلي أبرز مظاهر العلاقة العاطفية بين المرأة والرجل والمسالك التي مرت بها ، والأسس التي بنيت عليهما •

مظاهر الحب في الشعر الغزلي :

هذه العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مسيرتها الطويلة برزت بشكل واضح في المدارس الغزلية التي اختطت كل واحدة لنفسها طريقا تسلكه وتعبر من خلاله الى المرأة والى ارتباطها مع الرجل •• وتلتزم بمبادئه •• حتى أننا نستطيع أن نتبين الخطوط العريضة لكل مدرسة، ومن ثم خصائصها التي امتدت خلال مسيرة الشعر الغزلي فكان أبرزها :

١ — مدرسة الغزل العذري : نسبة الى بني عذرة الذين ينتسبون بدورهم الى " عذرة بن سعد هزيم بن زيد بن ليث بن اسلم بن لحاف بن قضاعة (٢) وقد اشتهروا بعفافهم في العشق • ونشوء هذا النوع من الغزل ما هو الا نتيجة التفاعل المؤثر والمتأثر والعميق بين عاطفة الحب وتعاليم الاسلام • فمن تلاؤمهما نشأ هذا النوع من الغزل، واشتهر زعماؤه في البلاد بحبهم لواحدة من بنات حواء ، قصروا حبهم وعواطفهم عليها ، وكابدوا آلام هذا الحب بصبر ، فلم يحفلوا برغبات الجسد أو شهواته بل سمت عواطفهم فوق كل ذلك لتصور ذلك الحب الروحي • وقد أطلق على هذه المدرسة اسم " المدرسة البدوية " أيضا نظرا لأن شعراؤها من أهل البادية، ورأوا أنها تعتمد في الغالب على الوفاء واليأس والأسى

(١) الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية لمجموعة من الادباء ٣٧/
(٢) الغزل في العصر الجاهلي ١٤٦/
(٣) حديث الاربعاء ٢/ ١٥ — ١٨

(٢) مدرسة الغزل الجنسي أو "الادب المكشوف (١) : ورواد هذه المدرسة لم يروا في الحب قيدا يقصرهم على حب امرأة واحدة بل تنقلوا كالفراشة من زهرة الى اخرى، فكانوا بذلك على النقيض من زملائهم شعراء المدرسة السابقة . لقد رحل رواد هذه المدرسة أينما حط الجمال رحاله ، فتركوا لشواتهم العنان ، وأطلقوا عواطفهم دون تحرج أو خجل .. وقد عرف بعض الباحثين هذا النوع من الغزل فقالوا : هو " الغزل الحسي المادي الذى أساسه حب ممتزج به ميول شهوانية أو عواطف خالية من التحرج ، وأوصاف ربط لا يرضى عنها الا أنصار الأدب المكشوف"(٢) وزعيم هذه المدرسة آنذاك عمر بن أبي ربيعة، الذى أتيح له ، بما لديه من مال وجاه وثروة ، وأسباب اللهو والغزل ، التفرغ لهذا النوع من الحياة . وشعراء هذه المدرسة هم في الغالب من المترفين من أهل الحضر ، مع استثناء لبعض روادها لاسباب أخرى سيأتي تفصيلها .

٣ ـ المدرسة التقليدية أو الصناعية : (٣) ورواد هذه المدرسة من الشعراء الذين لم يؤتوا حظا من الحب العميق، وان كان لهم حظ وافر من الشاعرية، وبالتالي لم تصدر أشعارهم في هذا المجال عن تجربة شعرية، أو معاناة صادقة وانما قلدوا أصحاب المدرستين السابقتين فجاءت أشعارهم لوحة فنية خالية من حرارة العاطفة وصدقها وعمقها ..

وهكذا يتباعد خطا الشعر الغزلي الجاهلي والاسلامي حينا لتتقارب أحيانا أخرى، أو لتتداخلان فتسيران جنبا الى جنب .. فاذا ما أردنا أن نحدد العناوين الرئيسية لهذين الخطين ، اللذين ينضوى تحت لوائهما الشعر العربي الغزلي عموما استطعنا تحديدها كالتالي :

---

(١) الغزل منذ نشأته : ٣٧

(٢) الاصول الفنية للأدب عبد الحميد حسين / ٧٤

(٣) الغزل منذ نشأته / ٣٨

١ — الوقوف على الأطلال ، وما يتبعه من مشاهد التحمل والارتحال • وقد بدأ هذا الشعر صادقا نابعا عن معاناة صادقة أيضا • فحين كان الجاهلي يبكي الأطلال ، ويتذكر أحبته الذين كانوا لزمن قريب آهلين الديار ، كان يحكي تجربة حب عاشها بحلوها ومرها ، وبتقادم الزمن ، ومجيء الاسلام •• • واستقرار حضارة جديدة بزغت ببزوغه ، أصبح هذا الباب يولج لفنيته فقط دون أن يكون فيه شيء من صدق التجربة ، وأصالة المعاناة ، لذلك نستطيع أن نولج تحت هذا الباب الغزل التقليدي ، الذى رأيناه قد اكتمل ونضج في العصر الاسلامي •• وان كان هذا لا يمنع من افراد فصل له مستقل فيما يتعلق بتجربة الشعراء السود التي تنضوى تحت هذا اللون ••

٢ — الغزل العذرى •• وما يتبعه من تصوير دقيق لاعضاء المرأة الجسدية وأحيانا يتعداه الى وصف الجمال النفسي والخلقي للمرأة •• هو في الاساس يقوم على وصف حال المحب ، وما جر اليه هذا الحب من تبعات ••
(الجنسي)

٣ — الغزل المكشوف : وهو تلك الصرخة الشهوانية التي أطلقها بعض الشعراء ضاربين بعرض الحائط الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع وغير مبالين بالقيم الاخلاقية • وشعارهم في ذلك اللذة وربيبها الذى يسلد عيهم دائما فيلبون الفداء دون قيد أو شرط ••

على أننا نلاحظ أن خيطا ما يربط بين هذا النوع من الغزل وبين ما اصطلح على تسميته بالغزل الكيدى — وخاصة عند الشعراء السود — هذا الغزل الذى عرف الغرض منه بأنه " الكيد والاغاظة " وتجريح الخصم والنيل من عرضه " (١) وسنرى ان هذا النوع من الغزل كان واضحا لدى بعض الشعراء السود الذين وجدوا فيه نوعا من التعويض لذواتهم وشخصياتهم المقهورة ، ونوعا من الانتقام والتحدى والرفض لمجتمعهم ، وربما اختلفوا في هذه النقطة عن غيرهم من رواد هذه المدرسة •

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي / ٢٧٣ •

الفصـــــــل الأول

الأطـلال عـند الشعـراء السـود

الأطلال والطلول جمع مفرده الطلل ، والطلل ما شخص من آثار الديـار والرسم ما كـان لاصقا بالارض ، وقيل : طلل كل شيء شخصـه (١) .

واذا كانت الأطلال هي بقايا آثار لما أهل بالسكان من قبل ، وكانت بقايـا سقّع رواكد جثـم ، فما الذى دفع الشاعر العربي الى الاهتمام بهـا ، والتـــودد اليها ، بحيث أعطاهـا مـن ذاتـه ووهبها من كيانـه الشيء الكثيـر ؟ ... ثم لماذا يتحدث الانسان عموما عن أثر شَخْصٍ أو رسم بقي ؟ .. لماذا يتحدث عن مكـان خـاو لا أثر لحياة فيـه ؟ لمَ يخاطب حجارة صماء لا تسمع ولا تجيب ولا تتجاوب؟ .. لا بـدّ أن في هذا الأثر أو ذاك الكثير من خبايا النفس .. فيه الكثير من ذات الشاعر وذكرياته ، وهذا ما أكسب الحديث عنها طابع الحزن والشجون والألم . وهي حديث عن الايام الخالية حين كان شمـل الأحبة ملتئما .. مقربـا باللقاء وحـلاوة المناجاة ، وسعادة الوصل ، ثم يتبدل كل شيء حين يلـوح في الافق غراب البيـــن مهـددا بالتفرق والتشتت ... وما هي الا ليلة أو بعض ليلة حتى يتبدل كل شيء فـلا منازل ، ولا أحباب ولا وصل ولا لقاء ، لقد ذهـب كل شيء ولم يبق سوى شريــــط من الذكريات التي احتفظ بها الشاعر لنفسه ، ليرى من خلالها — وحين يشتد الشوق عليه — أحبته ، ويستعيد وصله وحلاوة اللقاء معهـم ..

والذى يدعونا الى التساؤل ونحن نتحدث عن هذا الحيّز من الشعر الغزلي .. هل عاش شعراؤنا السود هذه التجربة .. تجربة الحب الذى رحل وترك الذكريـات؟ بل هل عانى الشاعر الاسود — على كثرة ما عانى — آلام هذه التجربة ؟ .

مما لا شـك فيه أن الشعراء السود عاشوا هذه التجربة بكل ما تحمل مـــن معان ، وعاشوا تجربة الحب كاملة ، وأكثر ما عاشوه وما عانوه سقم هذه التجربة ، لأنهـــم حين أحبوا وتوددوا الى محبوباتهم ، وتغزلوا بجمالهن ، كان المجتمع بقيمه السائدة

---

(١) لسان العرب المحيط ابن منظور ٢
القاموس المحيط للفيروز آبادى ٤

لهم بالمرصاد . فلم يسمح لهم بالتمادي في علاقاتهم التي اختاروها .. بل حاول المجتمع وأدها منذ أن رأت النور ، وكان بالتالي تاريخ هذه العاطفة حافلا بكل ما هو مؤلم ، مما أذكى نار الحب وأرث لهيبها ، فكانت نتيجة ذلك حصيلة شعرية رائعة ، ولكنها حصيلة مميزة لها طعمها الخاص ومذاقها الخاص أيضاء ولا سيما أن دائرة الحب المساحية كانت تضيق بهم شيئا فشيئا حتى تكاد تمحي فلا تشكل شيئا ، ولا تكاد تتجاوز بنات جنسهم من النساء السوداوات . ثم انهم " حين كانوا يمدون أعينهم وقلوبهم خارج دائرة الانثى السوداء يصابون بالاحباط .. بل بالقتل .. " (١) ودراسة هذه الحصيلة الشعرية من غزل الشعراء السود سوف ترشدنا الى جزء من خلفية حياتهم التي عاشوها . كما سترشدنا الى طبيعة تلك الحياة وما عانوا فيها .. ما أسرّوا وما أظهروا .. ما كان حلما وما كان واقعا ملموسا .

الأطلال عند الشعراء السود :

كان لعنترقصب السبق في الوقوف على الأطلال من بين الشعراء السود . فلم يخل شعره من البكاء عليها طالما أنها اقترنت بذكرى الحبيبة . كما لم يخل من التحاور معها واستنطاقها ثم تحيتها والقاء السلام عليها . وقد نهج عنترة في هذا المضمار بعض من طائفته أمثال عبدة بن الطبيب وعلي بن جبلة وخفاف ابن ندبة وزيد بن الجون ونصيب الأصغر والأكبر .. هؤلاء اهتموا بالوقوف على الأطلال اهتماما متمايزا يتراوح بين المرور السريع ، وبين التوقف البطيء والتحاور .

١ — مخاطبة الدار وتحيتها والدعاء لها :

حين يخاطب الشاعر أحجارا ونؤيا متهدما ، ودارا ذات أثر لساكن رحل ، فانه — بالطبع — لا يقصد مخاطبة من لا يجيب ، والتحاور مع أشباح .. بل انه يرى في هذه الأطلال مثيرا طبيعيا لأشواقه المكبوتة منذ رحيل الأحبة ، انه يرى فيها سعادة الماضي بحلاوة وصله وحرارة أشواقه في حلم لذيذ لا يلبث أن يصحو منه مذعورا على واقع الرحيل . فتدمي الحسرة قلبه ، ولا يجد السلوى الا في العودة ،

---

(١) الشعراء السود / ٢٣٠

وحين يستبد بن الشوق أكثر فأكثر ، يستنجد بصاحبيه ، ويرجوهما أن يتوقفا معه قليلا عند ديار المحبوبة ، وأن يشاركاه شعوره ويترفقا بحالته ، ويساعداه على تحمل ما صعب تحمله ، وما كان فوق طاقته :

خليلي ما أنصفتما اذ وجدتما   بذى الاثل دارا ثم لا تقفان

ولو كنتما مثلي اذا لو قفتما   على الربع أو وجدى الذى تجدان (٢)

ونصيب الأصغر يستغرب أمر هذه المنازل التي لاذت بالصمت المطبق ، لذلك فهو شديد الوجد ، وما يزيد في وجده سكوتها وصمتها • لكنه لا يلبث أن يصحو من أحزانه على الحقيقة المرة كونه يخاطب حجارة صماء وصخور خرساء ، فلا من مجيب ولا من متعاطف يشدّ من أزره • وان كان لا يزال يحمل مزيدا من الحب لهذه الديار فيدعو لها بالسقيا وهي لا تزال عنوان ذكرى ، ومرتع الاحباب في زمن كان كل شيء فيه على ما يرام •• الأرض خصيبة من جراء هطول الأمطار المتواصلة ••والحياة رغدة سعيدة تعكس سعادتها على وجوه الأحبة فتبدو أكثر جمالا وفتنة وشبابا وسعادة :

ما للمنازل لا تكاد تجيب   أنّى يجيبك جندل وجبوب ؟

جادتك من سبل الثرياد يمة   ريا ومن نوء السماك ذنوب

فلقد عهدت بك الحلال بغبطة   والدهر غض والجناب خصيب

اذ للشباب عليّ من ورق الصبا   ظل واذ غصن الشباب رطيب (٢)

ولم يكن نصيب المرواني بأقل عاطفة من زملائه •• وربع الاحبة عنده -وان بدا مقفرا الآن - فلقد أقفر بعد اعمار •• والواجب يحتم الوفاء له حتى بعد الرحيل ، رحيل من كانوا بالأمس ملء العين والبصر ، وظلوا لليوم في القلب والوجدان

الا أيّها الربع المقيم بمعتب   سقتك الغوادى من مراح ومعذب

بذى هيدب أما الربى تحت ودقه   فتردى وأما كل واد فيزغب (٣)

تحديد الاماكن :

أولع شعراء الأطلال بتحديد الأماكن التي كانت تشغلها لأيام خلت محبوباتهم

---

(١) المصدر نفسه /٨٩ — وذو الاثل ، موضع بودان • وذات الاثل في بلاد تميم. واصل الاثل شجرة تشبه الطرفاء الا انه اعظم منه واجود عودا •
تجدان = من الوجد وهو الشوق والحزن.

(٢) الاغاني ٢٢/٤١٤ — ٤١٥ — السبل : المطر

(٣) شعر نصيب جمع وتقديم د • داود سلوم / ٦٢

وأماليهن • وهم بتحديدهم هذا ضمنوا لتلك المنازل خلودا عبر التاريخ ، وبقاء رغم عوامل الطبيعة ، ورغم مرور مئات السنين عليها فنحن نشعر — وللوهلة الاولى — أنها ماثلة أمام أعيننا •• وأنها ما زالت تضم بيوت ليلى وعنيزة ورقية وسعاد :
منتشرة حين يتحدث عن عبلة ، يتحدث عن الأماكن التي نزلتها مع أهلها فيقول :

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا — بالحَزْن فالصمّان فالمتثلّم

ثم يتساءل متبرما :

كيف المزار وقد تربع أهلها — بعنيزتين وأهلنا بالغيلم (١)

وتطول الاقامة، وهو بين قبول بالامر الواقع وبين رفضه • وهو لا يكاد يصدق ولا يريد أن يصدق ما فعله البين :

طال الثواء على رسوم المنزل — بين الكليك وبين ذات الحومل

فوقفت في عرصاتها متحيرا — أسَلُ الديارَ كفعل من لم يذهل (٢)

ويؤرخ عبدة بن الطبيب للامكنة التي حلت بها سليمى فيقول :

حلت سليمى بطن وجرة فالرجا — واحتل أهلك بالسخال الى القرى (٣)

وخفاف بن ندبه يهيجه منظر الرسوم والأطلال التي ظهر قسم منها واندثر القسم الآخر والمندثور منها والمعلوم قد حدد في اماكن بعينها يسميها فيقول :

بين الشام وهضمية وذي بقر — كأنها صحف يخطها تالي (٤)،

ومنهم من يتحدث عن الديار وأمكنتها ، وحديثه هذا لا يشفي وجده ولا يروي غلّه ولا يطفئ شوقه ، وهكذا هي الحال مع أبي دلامة اذ يقول :

قف بالديار وأي الدهر لم تقف — على المنازل بين الظهر والنجف،

وما وقوفك في أطلال منزلة — لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف،

ان كنت اصبحت مشغوفا بساكنها — فلا وربك لا تشفيك من شغف (٥)

---

(١) الديوان / ١٨٧ والحَزن ما غلظ من الارض (وهو موضع بعينه) الصمان = جبل تميم. المتثلم = موضع

(٢) الديوان / ٢٤٦ — الثواء : الاقامة — الكليك وذات حومل — موضعان.

(٣) شعر عبدة بن الطبيب د •يحيى الجبوري / ٩٠ • وجرة : موضع بين مكة والمدينة والرجا : موضع • السخال : موضع في ديار بني سعد بن زيد بن مناة

(٤) شعر خفاف = جمع وتحقيق د •نوري حمودي القيسي — السلام : موضع من اعمال المدينة — والهضم مسقط الجبل — ذو بقر = واد بين اخيلة حمى الربذة

(٥) الاغاني ١٠/ ٢٤٧ •

وكان يهيم ولعا بتعديد أماكن بعينها ، تجمع كثيرا من ذكريات غالية ، هو نصيب المرواني يقـول :

عفا منقل من أهله فنقيب   فسرح اللهوى من ساهر فربيب

فذو المرخ أقوى فالبراق كأنها   بحورة لم يحلل بهن عريب (١)

ويقول في مكان آخر :

وقد كان من أيامنا بسويقـة   وليلاتنا بالجـزع ذي الطلح مذهب

اذا العيش لم يمرر علينا ولم يحل   بنا بعد حين ورده المتقلب (٢)

ثم يقف على أطلال سعدى ، وقلبه يعتصره الالم لمرأى الديار بعـد أن خلـت من أصحابهـا :

أقفر من آل سعدى الكثيب   فالسفح من ذات السّلا فالطلوب (٣)

وليس الكثيب فقط هو الـذي أقفر من وجود الأحبة ، بل الحال نفسهـا مع واسـط وأماكن أخرى يعددهـا فيقـول :

عفا واسط من أهله فالضوارب   فمدفع رامات مضيح فغـارب

ويقـول :

عفا سرب المحل الذي بين المطل   فشرق الجبيل بعدنا فالمشلل

فذو سلم فالصفح الا منزلا   به من مغانيها حديث ومحول (٤)

والاماكن بعينها تمثل عند نصيب موطن ذكريات الامس القريب السعيد ، وكـأنها لخاطر الحزين ، فها هي في اقفارها وخلوها تربي الوحشة والكآبة في القلب :

عفا الجرف من سلمى فأجاوله   فـذو الاثل من ودّان وحش منازله (٥)

---

(١) شعـر نصيـب / ٦٧

(٢) شعر نصيب / ٦٥ ـ سويقة = جبل بين ينبع والمدينة = الجزع : منعطف الوادي ، ذو الطلح = واد بين المدينة وبدر ـ لم يمرر = لم يصبح مرّاً .

(٣) المصدر نفسه / ٦٧ والطلوب = بئر في العقيق عند الطريق من المدينة الى مكة وهي من مياه بني عوف . وواسط ـ في معنى قرية في بلاد بني كلاب بالبادية ـ والضوارب ومدفع وغارب = أمكنة قريبة منها .

(٤) المشلل = ثنية مشرفة على قديد قرب وادي غرور وهو قريب من المدينة .

(٥) المصدر نفسه / ١١٤ = الجرف والاجاول وذو الاثل: مواضع قرب ودان

المعالـم الباقيـة وصـورها الفنيـة :

كما يهـرم الانسان ويشيخ تهـرم الاحياء الاخـرى وحتى الأشياء وتشيخ ..
وكما ينتهي الانسان — على ما أعطي من عزم وقوة — تنتهي الاحياء والاشياء ويأتـي قدرها ، اذ لا خلود الا لمبدع الكون ، وكل فيما عداه الى زوال

وكما يخلّف الانسان بعد موتـه ولدا يذكر به ، أو عملا شيئا صالحـا يخلّـد بذكره، كذلك هي المنازل والديـار بعد اقفارها وزوالهـا تترك أثرا يذكر ، وذكـرا يخلد بطيب عيش الزمن الماضي ورغـده .. وحلاوة الوصل وحرارته ، تتناوبه الشعراء وكل له فيه ذكريات لم يستطع مرور الزمن محوها أو اضعاف أثرها . فهي أقوى مـن الموت ، وغرسهـا أصلب من أن يدع الانواء تعتصر عودهـا الغض الطرى . لذلـك فهي أن امحت عن ظاهر الارض عادت جذورها الى التغلغل في التربة ثانية لتعـود من جديد الى السطح .. وهكذا هي الديار التي كانت لزمن خلا عامرة وآهلـة عصفت بها عوامل الزمن فغيرتها وأقفرتها لكنهـا لم تستطع أن تطفىء جذوة الحـب فيها الى الابد ، فالشاعر حين يعود اليهـا يرى فيها بقية من ذكرى حبيبه ، وأثـرا من بقايا ديـار يخاطبهـا ، ويبكي حبه فيها ، ويصف آثارهـا .. وهذه من حـال عنترة بعد أن رحل الاحبة وبقيت آثارهم فيما أقفر من رسم وما عفـي من أثر فيقـول :

عفّى الرسومَ وباقيَ الاطلالِ	ريحُ الصَّبا وتجرُّم الاحـوالِ
لعبت بها فيها واخلق رسمها	ووكيف كل مجلجـل هطـالِ
كانت بنو عبد مشاد ارهـا	وتبدلت خيدلاً من آلاجال (١)

وهذه الآثار على ما فيها لم تشـ ط في قلبه ، ولم تخفف من وطأة حبه لذلك يعـود ليدعو عليهـا :

ألا قاتل الله الطلولَ البواليا	وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذي لا تناله	اذا ما هو احلولى ألا ليت ذا ليا (٢)

ألا قاتل الله تلك الأطلال المقفرة كم تجلب من حزن ، وكم تورث من نار الشـوق ،

---

(١) الديوان / ٣٢٦
(٢) المصدر نفسه / ٢٢٣ — احلولى = معنى المبالغة والكثرة ، واحلولى الشيء من حلا يحلـو .

وقاتل تذكرك ما كنت فيه من نعمة الوصل واللقاء في الزمن الخالي .. فإذا هدأ روعه قليلاً ، أعطانا صورة فنية جميلة لما عفا من الديار . وهي صورة تعاورها عليهما الجاهليون ، وكل يضفي عليهما من ابداعه لمسات لتعود اليها بحلية جديدة ، فيقول واصفاً ديار عبلة :

ألا يا دار عبلة بالطوى — كرجع الوشم في رسغ الهدى

كوحي صحائف من عهد كسرى — فأهداها لأعجم طمطمي (١)

يشبه آثار الدار بعد اقفارها بالوشم الذي كانت تنقشه بعض النساء على أيديهن فتبقى آثار سواده ، وهذا ضرب من التجمل كانت المرأة تستعمله من جملة ما كانت تستعمل من حلي (٢) ..

ولعبدة بن الطبيب أيضاً صور فنية من هذا القبيل ، وهو يشبه الرسوم بحصيرة نسجتها يد ماهرة فرشت على أديم مزين :

وَذكّرنيها بعد ما قد نسيتها — ديارٌ عليها وابلٌ متبعق

بأكنافِ شمّاتٍ كأنّ رسومَها — قضيمُ صناعٍ في أديمٍ مُنَمّقُ (٣)

فإذا ما بليت المنازل .. وتناثرت بقاياها هنا وهناك .. وسألت الربع فما من مجيب! وكيف تجيب منازل تناوبتها رياح الشمال والجنوب حتى عفتها، وأصبحت كبقايا صفحة كتاب كتبت سطورها منذ زمن بعيد .. عند ذلك يقف علي بن جبلة حزيناً لما حلّ بالديار ، يائساً من عودة ما حلا وما طاب من لقاء ، بعد أن سكنت الليالي بسكون سميرها ومؤنسها ، وبعد أن طوت خيام الساكنين كما يطوى الثوب استعداد للرحيل فيقول :

دمن الدار دثورٌ — ليس فيهن مجيرُ

بُليت منها المغاني — مثلما تبلى السطورُ

قسم البين عليهن — رواح وبكور

وليالٍ ساجيات — نام عنهن السمير

---

(١) الديوان ٢٦٨/٢ — الطوى = البئر ويراد به موضعاً بعينه . طمطمي = لا يكاد يفصح الهدى = المرأة تهدى الى زوجها

(٢) الغزل في الشعر الجاهلي ١٢٥/

(٣) شعر عبدة ٥٢/ = الوابل = المطر الغزير ... = مندفع بالماء فجأة .

الاكناف = النواحي والجوانب . شمات = موضع . القضيم = حصير شوق .

فطوت أثيبة الحسيِّ كما يُطوى الحبير (١)

وصورة خفاف التالية شبيهة في اجزاء منها صورة علي السابقة حين يقول :

ما هاجك اليوم من رسم وأطلال منها مُبين ومنها دارسٌ بالِ

بين السلام وهضبيه وذي بقر كأنها صُحُفٌ يخطها تالي (٢)

أما نصيب المرواني فوقفته على أطلال المحبوبة أطول ، وقفة من هول ما رأى فيها من تغيير وتبديل طارئ ، لم يستطع تحمل هذا المنظر الحزين بمفرده ، بل يستنجد بصاحبيه يريد أن يشاركاه حزنه وألمه ، وسؤال الديار بعد اقفارها •• وحين لا يلقى جوابا منها ، تجيبه عيناه بدموعها الغزيرة :

قفا أخوى ان الدار ليست كما كانت بعهدٍ كما تكون

ليالي تحلمان وآل ليلى قطين الدار فاحتمل القطين

فعوجا فانظرا أتبين عما سألتماها به أم لا يقين

فظلا واقفين وظل دمعي على خدى تجود به الجفون (٣)

لقد هيج منظر الديار المقفرة ما سكن من أشواقه ، وزاد في حزنه ما تبقى من معالمها التي لا تتعدى بقايا أوتاد وأثافي ما زالت ساكنة جاثمة في مكانهما ، واضافة الى أحزانه المكبوتة راعه صوت حمامة فقدت أليفها واستمر ألمها وحزنها عليه حتى الممات •• وما حالة هذه الحمائم الملتاعة بأشد أسى ولوعة من حالة نصيب اذ يقول :

أهاج هواك المنزلُ المتقادمُ نعم وبه مما شجاك معالم

مضارب أوتاد وأشعث داثر مقيم وسفع في المحل جواثم

لقد راعني للبين نوحُ حمامةٍ على غصن جاوبتها حمائم

هواتف أما من بكين فعهده قديم وأما شجوهن فدائم (٤)

---

(١) ديوان علي بن جهلة ٤١/ — الدمن : بقايا الدار • دثور = بالية • مجير = مجيب المغاني = المنازل • الحبير = الثوب

(٢) شعر خفاف • المبين = الظاهر — الدارس العافي

(٣) شعر نصيب / ١٢٥ القطين = سكان الدار وأهلها

(٤) المصدر نفسه / ١٢٨ = أشعث داثر = اى الوتد • سفع = سود ويقصد بهما الاثافي = جواثم = الجاثم — الساكن في مكانه

وسحيم •• على قلة ما روي من شعره الدللي ، فقد استلفت انتباهه اقفار ديار سلمى بعد أن كانت عامرة ، وقبل أن تتناوبها رياح شديدة الهبوب وأمطار غزيرة الهطول :

عفت من سليمى ذات فَرْقٍ فأَوْدُها ... وأقفر منها بعد سلمى جديدُها

أربّت عليه كل هوجاء مُعْصِفٍ ... وأسحم دانٍ مزنه يستعيدها (١)

تحول الديار الى مسرح للحيوان :
==============

تناول الشعراء وصف اقفار الديار من الآدميين ، وحلول الحيوانات محلهم • واذا ما أقفر مكان من أهله سكنه الحيوان وأوى اليه • وهذه صورة ليست غريبة على العربي في صحرائه المترامية الاطراف حيث تضم أنواعا لا حصر لها من الحيوانات كالظباء والنعام والنعاج •

وصورة الظباء والنعام استلفتت انتباه عنترة ، فاذا بوصفه الدقيق يأتي على كل جزء في الصورة ويضفي عليه من الابداع والروعة الشيء الكثير •• فديار عبلة درست وعفي أثرها ، ورحل سكانها ، وما لبثت الظباء أن أقامت فيها •• فان هي ذهبت تركت في عرصات الديار ابعارها الشبيهة بحب الفلفل ، واذا بالنعام وهي تدور حول تلك الديار الدارسة أشبه بدوران النصارى وهم يطوفون حول الهيكل

يا دار عبلة من مشارق مأسل ... درس الشؤون وعهدها لم ينحل

فاستبدلت عفر الظباء كأنما ... أبعارها في الصيف حب الفلفل (٢)

تمشي النعام به خلاء حوله ... مشي النصارى حول بيت الهيكل

واما ديار قيلة التي يتحدث عنها خفاف ، فقد فعلت فيها الرياح فعلها ، فأقفرت من كل شيء عدا نعاج الضأن والبقر الوحشي مع اولادها ما صغر منها ، وما اشتد ساعده ، تمشي بينها وتدور معها الى مشت وكيفما دارت :

دار لقيلة اذ قلبي بها كلف ... أقوت منازلها من بعد أحوال

تمشي النعاج بها والعين مطفلة ... الى رواشح قد شبت وأطفال

ظللت فيها كئيبا غير مضطلع ... همي وأسبل دمعي أي اسبال (٣)

---

(١) ديوان سحيم / ٤٩

(٢) ديوان عنترة ٢٢٨

(٣) شعر خفاف / ٩٢ — وقيلة : اسم امرأة — المطفلة = التي معها اولاد — الراشح = ولد الغاة اذا قوى •

الفــراق والهجــــر :

الحديث عن الاطلال يستتبعه حديث عن الهجر والفراق ٠ ففي الفراق بعد ٠٠ وفي البعد لوعة ٠٠ وفي اللوعة ألم ٠٠ وفي الألم عـذاب ٠٠ والعـذاب مستهجـــن كيفما كان نوعـه ٠٠ فكيف اذا كان صادرا عن فراق حبيب لحبيبه ٠٠ وخل لخليلـه ٠٠ والف لأليفه ٠٠ لهذا وجد فيه ابن داود بشاعة فقال : "أما الفراق فمستغن ببشاعة اسمه عن الاغراق في وصفه ٠ " (١) وللسبب نفسه أكد أنه " ما خلق الفراق الا لتعذيب العشاق ٠ "

وشعراؤنا السود كانوا من الغزليين الذين اكتوت قلوبهم بنار الفراق، فرقّـــت احاسيسهم حتى الرغبة في البكاء ، وربما وجدوا في الدموع بعض التنفيس عما في داخلهـم، فكانت ذوبا مـن قلوبهم ، ومن لوعتهم، وكانت مزيجا من بؤسهم الذي لاقـــــوه ويأسهم الذي ذاقوه في هذا الحب ٠ وفي دعاء نصيب المرواني على الفراق نفثــــات من حرقة قلبه حيث قــال :

جزى الله ايام الفراق ملامة	ألا كل ايام الفراق مليـــــم
سقى الله اياما تلاقين هامتي	بروء وكانت قبل ذاك تحـــوم(٢)

وهو بقدر ما يدعو على الفراق الـذي شتت الشمل، يدعو للايام الخوالي أيام القرب والوصـل ٠

واذا ما اطال امد البعد بين الاحبة ٠ ولم تلح في الجو بارقة امل في اعـادة الماضي السعيد ، وفي عودة الالف الى اليفه ٠ هيجت الذكرى الشوق والحنين فـــي قلب أحمد ابن ابي فنن ، فعكف على ذاته ، ووجد في ادرار الدموع خير مفرّج للكـــرب الذي امسى فيه ٠ وهو مع ذلك يخاف أن يفتضح أمره ويتهم بالضعف وقلة الصبر، اذ لماك يريد أن يقنع بل يوهم من يراه بأن هذه دموع تثاؤب ونعاس وليست دموع ألم الفراق :

ولما أبت عيناي أن تملك البكا	وأن تحبسا سح الدموع السواكـب
تثاءبت كي لا ينكر الدمع منكر	ولكن قليلا ما بقاء التثاؤب (٣)

---

(١) الزهرة = لابن داود الاصفهاني ٠ الباب السادس والعشرون
(٢) شعر نصيب / ١٢٥ — تلاقين = تدارکن — تحوم = تدور في الجو
(٣) زهر الآداب وثمر الالباب ٢ / ١٠١١ — ١٠١٢

وقد رأى كثير من الشعراء في الغراب نذير شؤم، ودليل تفرق وبعد ، وفي اسمه أيضا دليل على ذلك •• فكانت رؤيته تجلب الهم والحزن لما سيحل ، ولما سيقع من تشتت للشمل • وعنترة، على ما عرفنا فيه من البطولة والشجاعة وبأنه فارس مقدار من فرسان المعارك ، فهو خائف متشائم حين يكون ضمن ساحة الحب ، حين يتصل الامر بعبلة • فاذا ما أنذره الغراب بالبين تطير وا ستطع تمالك نفسه لانه على يقين من فراق الاحبة وهو عند ذلك يعطينا صورة فنية فيها الكثير من الجمال والابداع لتصوير حاله :

ظعن الذين فراقهم اتوقع	وجرى ببينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن لحيي رأسه	جلمان بالاخبار هش مولع
فزجرته ألا يفرخ عشه	أبدا ويصبح واحدا يتفجع
ان الذين نعبت لي بفراقهم	قد أسهروا ليلي التمام فأوجعوا (١)

لقد ارتحل الذين توقعت فراقهم ، بعدما سمعت من نعيق الغراب ذي اللونين الابيض والاسود والذي قضى بنعيقه على كل أمل باللقاء •• وجمال الصورة هنا يكمن في وصف الغراب الأبقع الذي تناثر ريشه وتساقط وهذا ايضا دليل شؤم ، والذي فتح منقاريه وكأنهما مقص يبغي قطع حبل الوصل •• والغراب في كل ذلك هش ومسرور بل ومولع بما سيحل من فراق وهذا ما لا يتحمله بل ما به قدرة على تحمله، فما كان منه الا أن زجره بالا يفرخ عشه •••

ونصيب المرواني يؤكد نظرة عنترة الى غراب البين ، وما أن يراه مائلا على غصن حتى يزجره موبخا الغصن الذي حطه ، ومتوقعا في الوقت نفسه فرقة قريبة تجر وراءها ألاما عاتية فيقول :

ألا راع قلبي من سلامة أن غدا	غراب على غصن من البان يتحب
فأزجر ذاك البان بينا دواشكا	وغربة دار ما تدانى فيعقب (٢)

وهو دائم الخوف من غربة الدار التي فرقت بينه وبين أم بكر، خائف من الحسد ، خائف من المستقبل، وخائف أن تنساه أم بكر بعد أن يباعد بينهما الزمان، وتتباعد :

---

(١) الديوان ٢٦٢ — ٢٦٣

(٢) شعر نصيب / ٦٥ = والدواشك = القريب. يعقب = يقرب

(٣) المصدر نفسه / ٨٢

بهذه الامكنة ، فيحزن له الصديق ويشمت به العدو .. ترى .. هل تقوى أم بكر على فعل هذا ؟ ..

ألا ليت شعري ما الذي تحدثين بي　　غداً غيبةُ النأي المفرق والبعد
لدى أم بكر حين تقترب النوى　　بنا ثم يخلو الكاشحون بها بعدي
اتصرمني عند الالى هم العدا　　فتشمتهم بي أم تدوم على العهد (١)

والصورة الاكثر جمالا وابداعا في تصوير ألم الفراق تنسب للنصيب المرواني حين يقول :

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدى　　بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ غرّها شَرَكٌ فباتت　　تجاذبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ
لها فرخان قد تركا بوكر　　فعشهما تصفقه الرياح
اذا سمعا هبوب الريح نصّا　　وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجى　　ولا في الصبح كان لها براح (٢)

لقد شعر نصيب بدنو ساعة الفراق، لحظة وداع المحبوبة تأخذ قلبه بالخفقان بعنف وشدة فجعله فعل قطاة حبست في شرك وقضت ليلتها تحاول الخلاص منه ، ولكن كيف السبيل الى الخلاص وقد علق جناحها بالشرك ؟ .. وكانت هذه القطاة قد تركت فرخين لها في عشهما كلما سمعا هبوب رياح ظناه صوت جناح أمهما ودليل قدومها ولكن أملهما ذهب أدراج رياح ، فلا القطاة استطاعت النجاة .. ولا هي عادت الى فرخيها بعد أن باءت محاولتها الخلاص بالفشل ... في هذه الصورة يفرغ نصيب الشحنة العاطفية كلها ولا سيما في تصوير ذلك الصراع الداخلي الذي كان يدور في داخله دون أن يستطيع اظهاره ، والذي هو أشبه بصراع القطاة مع الشرك ، والخاسر في هذه الجولة هي القطاة التي يمثلها في الصورة المقابلة نصيب الشاعر الجريح ..

واذا كان الفراق دليل حزن وألم فالأمل دليل فرح وسعادة وهناء ، وهو آخر ما يبقى من ذخيرة بين يدي المحب ، فكيف هي الحال مع الهجر الذي وصفه بعضهم

---

(١) شعر نصيب / ٨٢
(٢) شعر نصيب / ٧٤ ــ وقد نسبت هذه الابيات في بعض المؤلفات لتوبة عبد الحميد .. وتناولها الدكتور داود سلوم في شعر نصيب ..

بأنه " التجنب والاحتجاب مع قرب الديار، وهو أشد من النأى . " (١) ويسهب صاحب الزهرة في وصف الهجر وتبيان مساوئه محاولا تقسيمه الى أربعة أضرب فيقول عن هذه الاقسام : " هجر ملال ، وهجر دلال، وهجر مكافأة على الذنوب ، وهجر يوجبه الشنئ المتمكن في القلوب " (٢) ذاكرا في هذا المضمار قصة نصيب مع صاحبة له لم تكن مخلصة في حبها له .. وهذا ما اكتشفه نصيب عندما مر بها يوما فوجد عندها فتى يحدثها ولما طلبت منه الدخول انشأ يقول :

أراكِ طَموحَ العينِ مَذّاقَةَ الهوى · لكلِ خليلٍ منك وَصْلٌ مُطَـــرَّفُ
متى تجمعين بد فين لا أك منهما · فَهُنّي بفردٍ لستَ ممن يُصَرِّدُ فُ (٣)

ثم ترك الباب وانصرف .

ولست الآن بصدد تبيان انواع الهجر ، وانما الغاية هي اظهار شعور الشعراء حوله والالام التي عانوها من جراء وقوعه .. هذه الالام التي كانت سببا في ابداع ما وصل الينا من اشعار جميلة يدور فلكها في هذا المضمار .. وهي الى جانب جمال الشكل والمضمون تسهم — الى حد كبير — في التعرف على ذواتهم، فأظهرت البؤس الــذى وجدوه في حياتهم .. ولا سيما فــي عواطفهم، حتى كانت صفة اليأس هي الصفة أو السمة الاكثر بروزا في عوالمهم الشعرية الغزلية بل نستطيع الذهاب الى تلقيبهم بزعماء الحب البائس اليائس .. هكذا أراد لهم مجتمعهم، بل ما أرادته لهم اهوائهم و طبقتهم الاجتماعية . فالقدر اختار ... م — رغما عنهم — هذا السبيل ، وأغلق بـــاب الأمل أمامهم في محاولة منهم لاحداث اى تغيير.

والعودة الى الحديث عن الهجر ، عودة الى الحديث عن الالم ، والفراق والحزن و مية محبوبة نصيب الاصغر تشعر بسرور في تعذيبه بالهجر فتذيقه من نار الهجـــر ، وتحرمه من حلاوة الوصل ، وهو ما يزال يسترضيها ويتقرب اليها :

طرقتكَ ميّةُ والمزارُ شَطيـبُ · وتثيبك الهجرانَ وهي قريــب
لله مية خلة لو انهــــا · تجزى الودادَ بودنا وتثيـب

---

(١) الزهرة ١٤٩/١
(٢) المصدر نفسه ١٤٩/١
(٣) المصدر نفسه ١٥٠/١

أما نصيب بن رباح فيحاول التجمل بالصبر بعد أن يمتحن نفسه ، ويمتحن قدرته على تحمل هجر الاحبة :

وإني لاستحيي كثيرا وأتقي ‏ ‏ ‏ عيونا وأستبقي المودة بالهجر
وأنذر بالهجران نفسي أروضها ‏ ‏ ‏ لتعلم عند الهجر هل لي من صبر

ترى •• هل يعرف المحبوب لغة الصبر ؟ •• وهل تعرف قواميسهم معنى ومضمونا لهذه الكلمة •• ؟ ••

الكل يتحدث عن النأى والبعد ، عن الفراق والألم، عن الهجر والحرمان ، والكل يتناوبون وصف أحوالهم وهم في هذه الحال • فأى صبر هذا الذى يتكلم عنه الناس؟ • هذا احمد أبن ابي فنن يرى الموت الاكيد في الهجر والفراق ومقابل ذلك فهو من أشد المؤمنين بأن في القرب والوصل حياة •• ومن أجل الحياة وحلاوتها يريد أن تعود حبيبته الى سابق عهدها في الوصل ، فهذا دليل رضاها •• وهو لا يبغي غير هذا الرضى • والا فالهجر والموت أمران احلاهما مر •• بل يرى الموت المحقق والسم الزعاف في موت الهجر :

صحيحُ الودِّ لو يمسي عليلا ‏ ‏ ‏ لنلتب أو ترى منكم رسولا
أراك تسومه الهجرانَ حتى ‏ ‏ ‏ اذا ما اعتل كنت له وصولا
فـردَّ عليَّ الحياة بوصلِ يومٍ ‏ ‏ ‏ يكون على رضـاك له دليلا
هما موتان موت ضنى وهجر ‏ ‏ ‏ وموت الهجر شرهما سبيلا (١)

واذا كان الغراب ونعيقه طالع شؤم على المحبين ، ومنذرا اياهم بوقوع الفرقة •• فالحمام رفيق حزن دائم لهم ، وأليف شجو في شجوه متنفس لآلامهم، وفي هديله خفق لافئدتهم •

وعلى قلة ما نقل الشعر الجاهلي من صور للحمام في رفقته الدائمة لاهل العشق والهيام • فان صورة القطاة ــ ذلك الطائر المتواجد بكثرة في البيئة العربية ــ لا تكاد تخلو من صورهم الغزلية الفنية •• وان كنا نأخذ بعين الاعتبار الصورة الحزينة المنتشرة حين يبلغ به الحزن والتأثر حد البكاء وهو يسمع نوح الحمام، ومخيلته تستعيد شريط ذكريات حبه الحزين خصوصا وان ارتباطا وثيقا يصل ما بين حالته وحالة الحمامة التي تنوح على فقد اليفها :

---

(١) شعر نصيب / ٣٦

أفمن بكاء حمامة في أيكـــة ذرفتْ دموعك فوق ظهر المحمل
كالدرّ أو فضض الجمان تقطعتْ منه عقائد سلكه لم توصـــل (١)

فالدموع مدرار ومتسخية تتساقط من عينيه اثر سماعه لنوح الحمامة وهذه الدموع اشبه بدر أو جمان انقطع سلكه فتفرقت حباته وتساقطت •

أما الشاعر الاكثر مصادقة مع الحمام ، والذي لم يجد لصحبته بديلا ، بل هو دائما المذكر الذي يذكره الهوى والشوق • ذلك هو المصيب المرواني الذي يعتبره البعض انه اول من " ابتكر هذا النوع من الصور وهو الذي ادخل الحمامة الى الأدب بهـذا الشكل " (٢) :

وهتوف الضحى ورقاء يذكرك الهوى بكاها هديلا شجوها حين تهتف

وهي دائما تورث ما خبا من نيران قلبه • فهي بترنمها لا توقظ ما نام من احزان فقط بل وتوقظ ذكريات كل محب مستهام :

وقد هاجني للشوق نوح حمامة هتوف الضحى هاجت حماما تغردا
طروب غدت من حيث باكرت بعولتها غصنا من الاثل أغيدا
تغنت عليه ذات شجو مرنـّـة بصوت يشوق المستهام المصيدا (٣)

حتى لكأنها أشد حزنا منه ، وأشد تذكرا للايام الخوالي من ايام الحب طالما انها توقظه بترنمها ، وهذا دليل يقظتها الدائمـة •• فهل تكون هذه الحمائم أشـد حزنا منه •• هذا الذي يزعم أنه ذو صبابة لسعدى ، وانه دائم الحب والتذكر لها :

لقد هتفت في جنح ليل حمامة على فنن وهنا واني لنائـــم
فقلت اعتذارا عند ذاك وانني لنفسي مما قد رأيته للائــــم
أأزعم اني هائم ذو صبابـــة لسعدى ولا أبكي وتبكي الحمائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا لما سبقتني بالبكاء الحمائـــم (٤)

---

(١) الديوان ٢٤٧/ ـــ المحمل = محمل السيف ، أي أنه حين سمع نوح الحمامة بكى فسالت دموعه فوق ظهر محمل سيفه •

(٢) هو الدكتور داود سلوم = وبقية على قوله اعلاه : بأن دواوين الشعراء الجاهليين تخلو من ذكر الحمام او التشبيه به ، الا أن قول عنترة اعلاه يؤكد وجود هذه الصور على قلتها ـــ في الشعر الجاهلي ـــ شعر نصيب ٣٦/ •

(٣) المصدر نفسه ٨٥/ بعولتها = بصياحها ونوحها وبكائها ـــ الاغيد = المائل او الناعم مرنة = مترددة ـــ المصيدا = الذي اصطيد

(٤) المصدر نفسه ١٢٤/

مشاهد التحمل والارتحال :

ورحلة المحبين مع الحمام طويلة ، نكتفي بهذا القدر منها مع نصيب ، الصديق الصدوق للحمام ، والعاشق الصب المستهام ، لننتقل الى رحلة اخرى مع النسوة، هؤلاء النسوة اللواتي فجّرن بحبهن وبغضهن .. باقبالهن وادبارهن .. بقربهن وبعدهن بوصلهن أو بهجرهن ، فجّرن عبقرية الشعراء، وألهمن خيالهم بالرؤى المتنوعة والصور المبدعة . وبما أننا لم نخرج بعد من دائرة الحزن والاسى في الحب واللوعة والم الفراق والحنين والانين على الراحلات بعيدا ، لا بدّ ـ واكتمالا للصورة ـ من أن نعرج على رؤية صورة الظعائن المرتحلة ، والهوادج المحملة ، والمراكب التي تهيأت واستعدت للسير .

وصورة مشاهد التحمل والارتحال هي الاكثر ثباتا في مخيلة الشاعر المحب ، وبالتالي فهي الاكثر حزنا . وهل هناك لحظة اقسى واصعب على قلب المحب من لحظة الوداع ، وقساوة الموقف التي تستلزم التجلد والا فالنجدة والمساعدة من الرفيق والصديق ثم التساؤل والحيرة وكأن على عينيه غشاوة من هول الموقف ، وهو لهذا الامر لا يريد أن يصدق ما الكرب الذي اصبح فيه ، ثم لا تلبث قواه أن تسترد جلدها شيئا فشيئا ولا مفر عند ذلك من التسليم بالامر الواقع ، والايمان ـ صاغرا ـ بما جرى .

وسحيم العاشق دائما اول ما يروعه الفراق ، ويدخل الخوف الى قلبه فيلجأ الى صاحبيه يستنجدهما :

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن ... تحملن من جنبي شروري غواديا
تأطرن حتى قلت لسن سوارحا ... ولا لاحقات بالضحى الا سواريا
أخذن على المقراة او عن يمينها ... اذا قلتُ قد ورّعنَ انزلن حاديا (١)

وقد يلجأ في احيان قليلة الى وصف الراحلة التي تنقل المحبوبة وأهلها ، وهي عنده عبارة عن جملين يصورهما بدقة فيقول :

اذا ما أنيخا ارسلا كلكليهما ... بحقلين من جرعاء رخو حصاهما
كأن صياح المحدين تقلب ... بعيدين فاتقضا مناخ شباهما
أخذن بألفي درهم كسوتيهما ... فأحسن مكسوين اذ كسياهما
دواتب حتى قلت لو من مركب ... من الحسن جنّا فاستطير كلاهما (٢)

---

(١) ديوان سحيم / ٢٤ ـ شروري : من بني أسد . تأطرن = تلبثن ـ سواريا = من السرى وهو السير في الليل ـ المقراة = موضع . ورعن = كففن أو رددن ويقال : ورعت الابل عن الماء رددتها ـ ٢ ـ الديوان

ووقت الرحيل حدده أكثر الشعراء ممن وصفوا مشاهد التحمل والارتحال بوقت المساء ، وذلك لوجود ارتباط نفسي وثيق بين الظلام وبين الاسى والحزن قال عنترة :

وقفت وصحبتي بأريبنات | على أقتاد عوج كالسهام
فقلت تبينوا ظعنا أراها | تحل شواحطا جنح الظلام (١)

وقال مخاطبا عبلة :

ان كنت أزمعت الفراق فانما | زمت ركابكم بليل مظلم (٢)

وكما حددوا وقت الرحيل ، حددوا أيضا الاماكن التي مرت بها الظعائن • وخفاف ابن ندبة يحددها بالمواضع التالية : رهوة ، حاة ملية ، راكس ، وج ، فيقول :

ألا طرقت أسماء غير مطرق | وأنى اذا حلت بجران فالتقي
سرين كل واد دون رهوة دافع | وجلذان أو كرم ملية محدق
تجاوزت الاعراض حتى توسدت | وسادي بها بدون جلذان مخلق

ثم يعطينا وصفا دقيقا للجماعة وقد استعدت للرحيل ، فحبست ابلها عن الرعي فـي وادي راكس ، وحددت وقت امحاق الهلال زمنا لسيرها ، وبامحاق الهلال يفترق الاحباب ويعبس الزمان بعد ابتسام •• وهذه هي حال الدنيا فكل جديد فيها الى بلى ، وكل شيء وحي الى زوال •• وكل وصل عند شعراء الحب الى فراق :

ولم أرها الاّ تعلّة ساعة | على ساجر أو نظرة بالمشرق
وحيث الجميع الحابسون براكس | وكان المحاق موعدا للتفرق
بوجّ وما بالي بوجّ وبالها | ومن يلق يوما جدة الحب يخلق (٣)

ولخفاف عودة الى تذكر اسماء بعد ان تحملت مع أهلها ، والى تذكر أمكنـة اخرى مرت بها وأهلها ورواحلهم • وهل من السهل على الانسان ان ينسى يومـا مشهودا في حياته يوم استبدل البعد بالقرب ، والهجر بالوصل •• وليس للشاعر مـن حيلة الا استرجاع صورة الانس ، لا سيما ساعات اللقاء الحلوة على امل اللقاء ثانيـة وأنّى يعود اللقاء :

(١) ديوان عنترة ١٤٢ ــ أريبنات = موضع ــ الاقتاد : عيدان الرحل ... من الطير تشبه الابل بسرعتها بالطير ــ شواحط = موضع
(٢) ديوان عنترة ١٨٨
(٣) شعر خفاف والاعراض : جمع عرض وهو الوادي او جانبه ــ توسدت = أتاها النوم تعله = ما يتعلل به ــ ساجر = ماء • المحاق = آخر الشهر اذا امحق الهلال فلم ير

وهو دائم الحنين رغم ما انصرم من ايام اللقاء بينه وبين سلمى ، فهو قد فوجىء بفراقهم ولم يكن وقتذاك قد أعدّ العدة للرحيل ، وقد ابتعدوا عن اراضيه غداة يمموا وجوههم شطر اليمامة ثم العراق ، وانظارهم شاخصة الى السحاب والبرق يراقبون مسيره ، ووجهتا لامطار التي يعطيها :

ألا صرمت من سلمى الزمانا	ولم تجد لما يبغي اللوامــــا
وفاجأني فراق الحي لمـا	أشطّ نواهم الاّ لماما

ويقـــول :

وما أن نخل وجر اذا استقلت	مكمة وما رببت الصرامـــا
لها سحق ومنها دانيات	جوانح يزدحمن بها ازدحاما
بأحسن من ظعائن آل سلمى	غداة يولن ضاحية سلاما
فيممن اليمامة مرقسات	وشدن بروني طالوة الخزامـــا (١)

وهو بذلك يعطينا صورة فنية لمشهد رحيل سلمى مع اهلها ، وهي صورة مستمدة من طبيعة الصحراء • النسوة قد اعتلين الهوادج بأثوابها الملونة المزركشة ، فربط بين هذا المشهد ومشهد نخل موضع وجر قد بسقت اشجارها ، وعلى السعف ما ظهر من ثمارها الحمراء اللذيذة التي قاربت من النضج ، والتي منها ما علا فابتعد عن يد القاطف ، ومنها ما تدلى فدنى منه •• ومنظر النخل هذا على جماله ، وتكاثر الوانه وتمازجها ، بأحلى ولا أكثر جمالا وجاذبية من منظر الظعائن وقد اعتلت الهوادج بعد أن تنوعت ثيابها واختلفت الوانها •

ومن البيئة نفسها يستمد السلوك صورة مماثلة للصورة السابقة يصف فيها حمولة حي محبوبته ، متأثرا بفعل الريح ان الدبور التي شتت ثمار النخيل البديعة المنظر ، الشهية المأكل ، وبفعل الجدب والقحط اللذين شتتا شمل الاحبة بعد التئام وفرقتهم بعد محبة •• فهذا منظر النخيل السامق المحمل بما اصفر واحمر ولذ وطاب من الثمر مولما بما فعلته الرياح فشتت لهذا الثمر وذاك ، وفعلها هذا لم يقتصر على الثمر بل امتد الى الحي فشتته كما تشتت ثمار النخل فطووا خيامهم ، واستعدوا

---

(١) شعر خفاف / ٦٢

للرحيل بحثا عن مأوى اكثر خصوبة واستقرارا، مخلفين وراءهم ظباء ولما ما بعد ان كانت الحور العين ملء القلب والبصر :

فطوت أخبية الحي	كما يطوى الحبير
فاستجربهم سدوت	من نوى البين جرور
وبحيبك حمول الحي	والبين الشطير
كذرا النخل أشاعت	زموها الريح الدبور
حلقت بالدار حور	وغدت في الظاعن حور (١)

الطيف

بعد أن أقفرت الديار وعفيت آثارها ، ورحل الركب بما فيه ومن فيه ، وابتعد الجمع ولم يبق منهم غير الذكرى والحنين .. فكيف تمر الايام بأهل الصبابة والهوى، وما هو السبيل الى سلو الاحبة ؟ وهل من طريق الى النسيان ؟ .. ان المحب اذا فارق حبيبه ونأى عنه مرغما، لا ينفك يتذكره كيفما تحرك أو سكن ، فذكراه ماثلة امام عينيه ، وصورته لا تغادر مخيلته .. هكذا يقضي المحبون لياليهم بعد ان تشط بهم غربة النأى ، فيستعيضون خيال المحبوب بسعادة اللقيا ، ويستأنسون بالطيف تأملا على امل اللقاء مرة اخرى ، اذا ما ابتسم لهم الزمان ، واعاد وصل ما انقطع .

وأكثر ما يتراءى وصف المحبوب للمحب اثناء الليل .. بعد أن تؤرقه الذكريات فيأبى جفناه الاغفاء .. ويشتد به الشوق، فيلوح في سمائه طيف الحبيب مؤنسا وسلما ، وما هي الا لحظات حتى يختفي ، فتعود باختفائه آلام سحيم فيقول :

ألمّ خيالٌ عشاءً خطافا	ولم يك اذ طافا الا اختطافا (٢)

والصيب ما زال مغمورا بفرحة اللقاء بطيف محبوبته ، وهو في هذه الحال اشد ذهولا وحيرة أهو مستيقظ أم نائم ؟ .. أهو طيف خيال أم لحظات لقاء وجها لوجه :

أيقظان أم هبا الفؤاد لطائف	ألمّ فحيّا الركب والعين نائمة

ووقت المساء هو أفضل اوقات زيارة طيف المحبوب دائما بعد أن يكون الأرق قد استبد بعبدة بن الطبيب ، وحرمه لذة النوم، وتخلل اليأس قلبه ، فطيف هند اذ ذاك هو

---

١) ديوان علي بن جبلة / ٤١ .. شعر الصعاليك = ٥٨ جمع وتحقيق حسين عطوان استجريتهم = أصابهم م الجدب والشدة .. سدوت = ذهبت .. النوى = النية والوجهة الجرور = أكرم الابل .

٢) ديوان سحيم / ٤٢ = الم بالشيء اذا أتاه ولا يلازمه .

المؤنس من بعد وحشة ، والفرح من بعد طول اكتئاب :

تأوبَّ من عند خيالٌ مؤرقُ اذا استيأستْ من ذكرها النفسُ يطرق (١)

والطيف يقطع مسافات كبيرة ــ عند اغلب الشعراء ــ ويتحمل مشاق الرحلة مهما اشتدت وقد يلجأ الهحر الى تعداد الاماكن التي يقطعها كما فعل النصيب حين قال :

سرى من بلاد الغور حتى اهتدى لنا ونحن قريب من عمود سواده (٢)

وهو مع قطعه مسافات كبيرة ، قد يلاقي كثيرا من الاهوال والمصاعب في طريقه ولكن هذا لا يثنيه على العودة ، ولا يثبط من همته بأمل اللقاء .. بل يتخطى كل شيء ليقوم بالزيارة فيقول علي بن جبلة :

بأبي من زارني مكتتماً حذرا من كل واشٍ جزعا
زائرا نمّ عليه حسنه كيف يخفي الليل بدرا طلعا
رصد الغفلة حتى أمكنت ورعى السامر حتى هجعا
ركب الاهوال في زورته ثم ما سلمّ حتى ودعا (٣)

والمشاعر تزدحم في افق الشعراء بعد زيارة الطيف .. وكل يتلقاها بالطريقة التي تعجبه .. فمنهم من كان مسرورا متفائلا وبالها ــ آنذاك ــ من ليلة اذ بردة العيش فيها ناعمة كما يقول نصيب الاكبر :

أيقظان ام هبَّ الفؤادُ لطائفٍ الّمَّ فحيّا الركب والعين نائمة
سرى من بلاد الغور حتى اهتدى لنا ونحن قريب من عمود سواده
بعيد وما كان بعهدي رجيله ولا ذات ذكر في سرى الليل فاطمة
ووالله ما من عادتك في السرى سريت ولا ان كنت بالارض عالمة
ولكنما مُثّلت ليلا لذي الهوى هببت على خير وفارقت سالمه
فيا لك ذا ودٍّ ويالك ليلة تجلت وكانت بردة العيش ناعمة (٤)

ومنهم من يعاوده اليأس والحنين ، فلم يثر الطيف في نفسه الا مزيدا من الهموم ولا عجب في ذلك طالما ان الحزن واليأس هما اساسان بني عليهما الحب بكل تفاصيله

---

(١) شعر عدة / ٥٤ = تأوب = جاء الخيال ليلا ــ يطرق = يأتي ليلا
(٢) شعر نصيب / ١٢٩ = سواده . اسم ماء لغني وجبل بالقرب منه ــ وقيل عمود سواده = جبل بنجد .
(٣) شعر العكوك / ٧٦ = نمّ عليه = دل ــ رصد = انتظر وراقب
ديوان العكوك / ٨٧ = وقد وردت هذه الابيات في الديوان في القسم الثاني من شعره الذي نسب للشاعر ، مع تغيير بسيط
(٤) شعر نصيب / ١٢٩

عند هذه الطائفة من الشعراء ..

فسحيم — مثلا — يضحى مريضا بعد زيارة الطيف له .. على ما في هذه الزيارة من حلاوة لقاء بعد لأى ، وعلى ما فيها من معاناة أجهدت جسمه وأنهكته :

ألمّ خيالٌ عشاءً فطافـا ولم يكُ اذ طاف الا اختطافـا
لمية اذ طَرَقَتْ موهنـا فأضحى بها دنفا مستجافـا (١)

وعبدة بن الطبيب تتأوبه بقايا أحزان أيضا عندما يمر به طيف الحبيب ولو للحظات

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها رسّ لطيف ورهن منك مكبولُ
رسّ كرسّ أخي الحمى اذا غبرت يوما تأوبه منها عقابيلُ
وللأحبة أيام تذكرها وللنوى قبل يوم البين تأويلُ (٢)

حتى النصيب .. ان فرح مرة بلقاء الطيف ، وانتابته قشعريرة سرور وسعادة لا تستمر اكثر من لحظات ترحل بعدها ليخيم الحزن ويجثم على صورة ثانية ، وهو الأمر لنفسه يتمنى لو تطول فترة اللقاء ، ويطول فيها الليل ليصبح حولا كاملا لا يفترق عن زينب أبدا ..

تأوبني طيف الخيال المؤرق هدوّاً فهب الاكف المتشوق
مروعاً فلما لم أجِد غير فتية نيام وأكوار لديهن اينق
تمنيت لو انّ الليلَ حولٌ وأنني وزينب طول الحول لا نتفرق (٣)

والأحزان تجر احزانا أخرى .. والهموم تتكاثف مع هموم أخرى .. حتى تتثاقل على قلب الشاعر المحب الذي نأت ديار محبوبته عن دياره ، فبعد عليه المزار وعزّ عليه اللقاء .. ودبّ اليأس الى قلبه ، وجفا النوم عينيه ، ولهذا نسمع في شعرهم ..

فالذى أرقه الحب وعاده السهر ، والذى رقق كبده حزنا على المحبوبة والذى أحب حبا لم يجده من أحب قبله مثله أو أكثر منه هو النصيب يعيده حين يقول :

---

(١) ديوان سحيم / ٤٣
(٢) شعر عبدة / ٥٨ — ٥٩ = خامر القلب = خالطه — الترجيع = مرة بعد مرة — الرس = الخفي — رهن منك = مرتهن منك .
(٣) شعر نصيب / ١٠٨ — هدوا = اول الليل — الاينق = جمع ناقة — الاكوار = ج كور وهو الرحل بأداته

أرق المحب وعاده سهده ... لطوارق الهم التي تـرده
وذكرت من رقت له كبدي ... وأبى فليس ترقُّ لي كبده
لا قومه قومي ولا بلد كيما ... فنكون حينا جيرة بلده
ووجدت وجدا لم اجد احدا ... قبلي من اجل صبابة يجده (١)

وهو من كثرة الهموم التي تعاوده يرى ان ليلته يزداد طولا حتى يظن أن لا نهاية له فيجفوه النوم ويأبى جفناه الاطباق وكأنَّ بهما قصرا يمنعهما من ذلك .. ولقد دنا آخر الشهر ودنا بدنوه النأى :

أقول وليلتي تزداد طولا ... أما لليل بعد هم نهارُ
جفت عيني عن التغميض حتى ... كأنَّ جفونها عنها قصار
كأن فؤاده كرة تنزى ... حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار اذا رآه ... مخافة ان يكون به السرار (٢)

وصورة الليل الطويل المثقل بالهموم والاحزان تعود الى الظهور عند السود لوجود ارتباط وثيق بينها وبين حياتهم التعيسة .. وكما أن ليل امرئ القيس طويل وكأن نجومه شدت بحبل الى جبل يذبل فكذلك هو ليل سحيم حين يقول :

تأوبني ذات العشاء همـوم ... عوامد منها طارف وقديـم
وما ليلة تأتي عليَّ طويلة ... بأقصر من حول تَطَاه نعيم (٣)

وحين تتكاثف الهموم من كل جانب ، وينعدم كل امل بعودة الوصل واللقاء .. يسدب اليأس في القلوب ، وأية سعادة في الحب تلك التي تترك لليأس مجالا للتطاول عليها .. وهل كان اليأس يوما ليل شفاء للمحب ؟ .. لنر عند نصيب :

فلوكانوا اذ بانوا يئست فلم يكن ... لهم اذْ هُمُ شحط عليك رجـاءُ
اذاً لشفاك اليأس من كلفهم ... وفي اليأس ما لا ينالُ شفـاءُ (٤)

ومن كان النأى والهجران ، التحمل والارتحال حظه في الحب كان اليأس هو نهاية

---

(١) شعر نصيب ، / ٨١ = طوارق الهم = ما يطرقه ليلا من الهموم
(٢) المصدر نفسه / ٨٩ = تنزى = تقفز ـ السرار = جمع سرر وهي آخر ليلة من الشهر ـ والسرار الثانية = مناجاة الوداع = وهو مصدر ساره مساره وسرارا .
(٣) ديوان سحيم / ٣٧ تأوبه = جاءه ليلا ـ عوامد = قواصد . طباه = دعاه
(٤) شعر نصيب / ٥٧

الطاف • وحين يكون اليأس هو نهاية المطاف ، بعد لقاء فوصل فسعادة •• ثم فراق وهجر وألم •• فهل معنى ذلك أن رحلة المحبين ستنتهي عند هذ الحد • واذا ما افترضنا انتهاءها عند هذا الحد ، فهل تكتمل الصورة دون الحديث عن المرأة كما رآها الغزلون من الشعراء السود ؟ وهل يمكننا تجاهل هذا السحر الانثوى •• لا بد اذن من التعرف على رؤية هؤلاء للمرأة التغزل بها •• التغني بجمالها ، انطلاقا من التغني بجمال طبيعتهم • فهم خير من عرف المرأة والمرأة الحبيبة بالذات •• فأدرك جمالها ، ووصف هذا الجمال بكل دقة ورقة وسكب على هذا الوصف من عواطفه وابداعه ووجدانه ما اضفى عليه طابعا انسانيا وجماليا محببا وجذابا •

اذن •• ما هي مواطن الجمال عند المرأة •• تلك التي ادارت أعناق الرجال وبهرت أنظارهم ، فدخلت قلوبهم دون استئذان ؟ •• وما هي أبعاد الصورة التي رسمها لنا الشعراء السود في وصفهم للمرأة ولمحاسنها ؟ •• لا سيما المرأة البيضاء بالذات التي كانت تشكل مطمحا صعب الوصول اليه •• وربما اعطتنا اوصافهم فيها فكرة عن اوضاعهم ، فنلمس برفق موضع جرحهم العميق ، ونشعر بمعاناتهم في هذا الحب اليائس •

مواطن الجمال في جسد المرأة كما وصفه الشعراء السود :

مهما اطلق الشعراء عامة من أوصاف على المرأة ، ومهما تغنوا بابراز جمالها جملة وتفصيلا ، فانهم لا يكادون يختلفون بعضهم عن بعض في السياق العام لهذه الاوصاف فلقد استعاروا اجمل ما في الطبيعة ليعنتوا به جسد المرأة ، واعضاءها وفي أبيات عنترة التالية صورة مجملة للمرأة ، تبرز اجمل ما فيها من عينين وفم وخد وطيب رائحة • فهي طيبة العناق عذبة المقبل عيناها كعيني رشأ من الغزلان ، وطيب رائحتها لا تضاهيه في رائحته الذكية نشر اجمل الرياحين وأذكاها •• اما رضابها فلا تضاهيه في طيب المذاق الخمرة المعتقة :

دار لآنسة غضيض طرفها	طوع العناق لذيذة المتبسم
اذ تستبيك بأصلتي ناعم	عذب مقبله لذيذ المطعم
وكأنما نظرت بعيني شادن	رشأ من الغزلان ليس بتوأم
وكأن فأرة تاجر بقسيمة	سبقت عوارضها اليك من الفم

أو روضة أنفا تضمن نبتهـــا — غيث قليل الدمن ليس بمعلـــم
أو عاتقا من اذرعات معتقـــا — مما تعتقه ملـــوك الاعجـــــم
جادت عليها كل عين ثـــرة — فتركن كل حديقة كالدرهـــم (١)

ولا يختلف بقية الشعراء في اوصافهم للمرأة عما أورده عنترة الا في بعض التوســــع
فـــــــــي وصف عضو وابراز جماله على حساب بقية الاعضاء ٠

الوجـــــه واللـــــون :

اللون الابيض كان مقياس الجمال عند الشعراء العرب عامة وعشق النساء البيض
لم يقتصر على السود من الشعراء ٠٠ بل كن دائما مطمح الجميع منذ امرىء القيـــس .
واللون الابيض لون محبب الى النفوس ٠٠ ويكنى به عن كثير من الصفات ٠٠ فقد كنـــي
به عن الافعال الحميدة الخيرة لجماعة من القوم فقالوا عنهم : بيض الصحائـــف ٠٠
كما قالوا في معرض المدح : فلان أياديه بيض وهذا كناية عن فضله المغير مع غيـــره
من الناس ٠٠ وكنوا باللون الأبيض عن طيب الاصل والعرق وكرم الجوهر ونقائه ، وهنــــا
تبرز صميم المشكلة عند السود ، التي سببت لهم فيما بعد عقدة نقص كانت تبرز في كـــل
زاوية من زوايا شعرهم لانهم كانوا يعيشون في مجتمع تحكمه عادات وتقاليد لا تعتـــرف
بالقريب عنهم ـ اذا اعتبرنا السود من الغرباء ـ واذا اعترفت به فهو دائمـــا في الطبقة
الادنى ٠٠ وهو الى ذلك محـــروم من أدنى الحقوق ، وملتزم ـــ في الوقت نفسه ـــ
بالواجبات كلها ، وتدخل المرأة في نطاق المحرمات لا سيما المرأة البيضـــاء ، كما يدخـــل
في هذا النطاق الحديث عنها والتغزل بجمالهـــا ٠٠

أما أوصافهم لوجه المرأة ففيه الكثير من معطيات الطبيعة ٠٠ بل أجمل ما فـــي
الطبيعة ٠٠ فقد وصفوه بالبياض والنعومة وكأنه الدر ، فقال نصيب الأصغر في ذلك :

وأبدى شهور الصبح منها محاسنا — ووجهـــا متى يحطط له الطيب يشرق (٢)
فوجهها متى ضُمخ بالعطر أشرق ايما اشــراق ٠٠

[illegible] بالبدر تارة وبالهلال تارة اخرى وفي الاثنين جمال وصفاء وفي ذلك يقـــول
الحكوك :

---

(١) ديوان عنترة / ١٨٤ ـــ ١٩٠ ـــ ١٩١ ـــ ١٩٢
(٢) شعر شفاف ،

بأبي من زارني مكتتماً حذراً من كل واش جزعاً
زائراً نمّ عليه حسنه كيف يخفي الليل بدراً طلعا (١)

فوجه حبيبته — حتى في الخيال — أشبه ببدر طلع فبدد ظلمات الليل .. ويكرر تصيب المعنى نفسه فيقول :

ذكرت مقامي ليلة الباب قابضاً على كف حوراء المدامع كالبدر

وجه المرأة بدر عند الصعلوك تارة .. وهلال تارة أخرى . والاثنان لا يخلوان من الجمال ..

من أين ما أحدث محاسن وجهها بهر العيون بها هلال مائل (٢)

وشبهوا استدارته وإشراقه بالدينار الصقيل اللامع فقال سحيم :

تريك غداة البين كفاً ومعصماً ووجهاً كدينار الأعزة صافيا (٣)

الخـــــــــد :

ومقياس جمال الخد عند السود الأسيل ، الناعم يقول نصيب الأكبر :

وكم دون ذلك العارض البارق الذي له اشتقت من وجه أسيل مدامعه (٤)

العيون والنظـــرات :

لغة الحب في النظرات ، وجمال النظرات في العيون الكحيلة .

شبهوا عيون النساء بعيون المهاة ، فنقلوا كل ما فيها من جمال وسحر وجاذبية وأساطوا به جمال عيني المرأة كما فعل عبدة بن الطبيب يصف حبيبته :

كأنّ ابنة الزيد عيون أقيتها هنيدة مكحول المدامع مرشق
تراعي خذ ولا يغض الورد شادناً تنوس من الغال التذاف وتعلق (٥)

وفي المعنى نفسه يقول ابراهيم المهدي :

---

(١) شعر علي بن جبلة / ٧٦
(٢) شعر علي بن جبلة / ٩٧
(٣) ديوان سحيم / ١٨
(٤) شعر نصيب / ٩٣
(٥) شعر عبدة / ٥٢

يا غـزالاً لي اليــــه شـافـع من مقلتيـــه
والـذي أجللت خــــد يـه فقبلـت يديــه (١)

والعيون عند سحيم عيون مها أيضا ولكـن أية مها .. انها التي شخصت ببصرها نحو الاعالـي لتتناول ما عـلا من القطوف الخضـراء من الشجـر :

وعيني مهاة يسقط الجمـا د تحطو نعافا وتقرو نماضا ((٢)

وعيون المرأة عند سديف لما منحها الله من جمال وبريق أخاذ، تفضل عيون المهـا بجمالها وهي ناعسة وكأن بها مـرض، وكانت هذه أيضا من نعوت الجمال عند العرب :

واذا طرفن طرفن عن حدق المها وفضلنهن محاجرا وجفونـا
وأصح ما رأت العيون محاجرا ولهن أمرضها رأيت عيونـا (٣)

وقد يكتفي أحدهم بالوصف عن الموصوف .. فاذا ما ذكر الحكوك ، حور المقل ، فانه يريد المرأة التي من أجلها يريد أن يستبدل الشباب بالمشيب ، ليعود الى سابق عهده معها ، ومع عيونها الجميلة الكحيلـة :

بدا بدلا بالشيـب ليت الشباب الهـدل
جلالا ولكنـه تحاماه حور المقـل (٤)

وخفاف لا يكتفي بالوصف المجرد لابراز جمال عيني المرأة ، بل يعمد الى ذلك من خلال صورة فنية بديعة، فما ذاك الغزال الأحور وقد ذهب يبحث عن مكان ظليل فـي روضة بوجرة أو بطن عقيق ليقيل به هربا من حرارة الشمس المحرقة، فاتخذ مكانا ظليـلا تحت تلك الشجرة التي دنت بأوراقها وغصونها فوقه فأظلته ... هذا الغزال علـى جماله وجمال نظراته الناعسة وهو يقيل ظليلا، ما هو بأجمل من سليمى عندما تتـراءى عيناها المكحولتان الأخاذتان وسط الظـلام :

وما أن أحور العينين طفـل تهنى روضة يقرو السـلامـا
بوجرة أو ببطن عقيق يمسي يقيل به اذا ما اليوم حاما
اذا ما اقتافها فحنت عليه دنت من وهد دانية فنامـا

---

(١) الاغاني ١٠/ ١٤٣
(٢) ديوان سحيم /٤٣ يسقط الجماد : أسئله ـ تحطو = تتناول . النضر = الاخضر من الشجر ـ النعاف = جمع نعف = وهو ما انخفض عن الجبل وارتفع عن الوادي
(٣) زهر الاداب وثمر الالباب ١/ ١٥
(٤) شعر الحكوك /٩١ ديوان الحكوك /٦٠ ـ ٦١

بأحسن من سليمى اذ تراءت ... اذا ما ريع من سَدَف فصاما (١)

اما نظرات المرأة فحديث يطول شرحه .. فهي تلخص في نظرة من نظراتهما ما تريد أن تقوله وتشرحه في صفحات ، ونظراتها دائما مستمدة من نظرات الغزلان الناعسة المطروفة .. قال عنترة :

وكأنما نظرت بعيني شادن ... رشا من الغزلان ليس بتوأم (٢)

لقد تطلعت بعيني شادن جميل من الغزلان من اتم خلقه ، وحسن منظره كونه لم يزحمه في بطن امه توأم آخر .. ولا رضع معه آخر أيضا . والمرأة عند عنترة — عموما — فاترة النظرات :

كأنها يوم صدت ما تكلمني ... ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف (٣)

وما تلك الغزالة الأم التي جمعت نصاعة البياض ، وشدة السواد في المقلتين بأحلى من ليلى نصيب المرواني حين طرفت ببصرها فكانت تشبه بقرة وحشية طرفت ببصرها حين أجفلت وسط القطيع

وما مغزل ادماء نام غزالها ... بأسفل نهي ذى غرار وحلّب

بأحسن من ليلى ولا أم فرقد ... غضيضة طرف رعتها وسط ربرب (٤)

. . .

الثغر والأسنان والريق :

١ — الثغر : وهو طيب المذاق ، لذيذ المبتسم ، عذب المقبل ، لذيذ الطعم عند عبلة كما رآها عنترة .. وهو على ما فيه من جمال وجاذبية يكاد يذهب بعقل الناظر اليه :

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم

اذ تستبيل بأصلتي ناعم ... عذب مقبله لذيذ المطعم (٥)

وثغر فتاة سحيم لا يقل جمالا وعذوبة ولذة في الطعم عن ثغر عبلة :

وقد ضمت الى الاحشاء جارية ... عذب مقبلها مما تصونونا (٦)

---

(١) شعر عفاف / ٩٣ — والسدف بالتحريك = الظلمة

(٢) ديوان عنترة / ١٩١

(٣) المصدر نفسه / ٢٧٠ و ٢٩٠ الساجي = الفاتر النظر — المطروف = الذى طرفت عينه بثوب او غير ذلك فيفتر نظرها وتلين اشفارها والعين توصف بذلك لذلك قالوا : عين سقيمة

(٤) شعر نصيب / ٦٩ — ٧٠ — ادماء = بيضاء سوداء المقلتين . ذو غرار = ذو برودة حلب : والحلبان والحلباب والحلبوب : اسماء نبات

(٥) ديوان عنترة ١٨٤ و ١٩٠ تستبيل = تذهب بعقلك

(٦) ديوان سحيم / ٥٩

كـ ـوفم عبلة على ما يمتازبه من جمال وجاذبية ذو رائحة ذكية تضاهي بطيب نشرها رائحــــة المسك والعنبر ، كما تضاهي نشر تلك الروضة التي جادت عليها السماء بأمطار ثــــرة والأكثر من هذا وذاك تضاهي رائحة الخمرة التي عني بتعتيقها ملوك الاعاجـم:

كأنَّ فأرة تاجـر بقسيمـه | سبقت عوارضهـا اليك من الفـم
أو روضة أنفا تضمن نبتهـا | غيث قليل الدمن ليس بمعلـــم
أو عاتقاً من اذرعات معتقـا | مما تعتقه ملوك الأعجـــــم
جادت عليها كل عين ثـرّة | فتركن كل حديقة كالدرهـــــم (١)

وطيب الرائحة صفة مستحبة في الفتاة ، فهي دليل صحتها الجيدة وشبابها الغـــض لان رائحة الفم ما هي الا نتاج السير الطبيعي والمنتظم للاعضاء العاملة في جســـد الانسان بصورة كاملة دون خلل • لذلك نرى الشعراء يتحاورون على وصف أفـــواه حبيباتهم مركزين على هذه الصفة بالذات •• والامر نفسه أنشد نصيب المرواني مـع الرعيان لواضحة الانياب طيبة النشـر :

وما أنشد الرعيان الا تعلة | لواضحة الأنياب طيبة النشـر (٢)

٢ـ الريـــــق : وريق المرأة عندهم مزيج من الخمر المعتق ، ومن ماء الندى ، وخليط من انواع المسك والعنبر •• وسحيم يؤكد على ذلك فيقول ان ريق فتاته بعد هجعة من النـوم ورغم تغيير طعم الفم ، لهو أشبه بطعم السلافة المبردة المعتقة ما ان تصب في الكـأس حتى يطفو الزبد فوق وجههـا :

كأنّ على انيابها بعد هجعة | من الليل نامتها سلافا مبـردا
سلافةُ دن او سلافةُ ذارع | اذا صُبَّ منه في الزجاجة أزبدا (٣)

وعندما يشعر ان ريق فتاته فوق ما يصف ، وانه لم يف حقــه •• يعـود فيؤكــد حلاوة مذاقه وطيب طعمه باضفاء مزيد من الصفات ، وموهما منا خمرة يخالطهــــــا القرنفل والزنجبيل والمسك مما تعود بيعه تجار الهند •• وطعمه هذا لا يتغيـــــر ولا يتبدل كلما ارادت أن ترتشف من رحيقه أحسست بحلاوة الطعـم :

---

(١) ديوان عنترة ١٩١ ـ ١٩٢ ـ الفأرة للمسك = نافحته ـ القسيمة = جونة الطيب
العين = المطر الدائـم
(٢) شعر نصيب /٩٣ ـ تعلة = تلهية
(٣) ديوان سحيم /٤٠

كأنَّ القرنفل والزنجبيـ — ل والمسكَ خالَطَ جفنا قطافـا
يخالطُ من ريقها قهـوةً — سباها الذى يستبيها سُلافـا
يجود من الهند عند النجـا — ر غالٍ يخالطُ رشفاً مُذافـا
يخالطه كلما ذُقتـه — على كل حالٍ أردتُ ارتشافـا (١)

وجعل نصيب ريقها خمرة مبردة ممزوجة بماء الندى، فحلا طعمه ولذ للمرتشف:

أسقيلي نفح الصبا ثم شاقني — ببرد ثنايا أم حسان شائـق
كأنَّ على انيابها الخمر شابها — بماء الندى من آخر الليل غابق (٢)

وهي تجود عليه بالرحيق العذب، مقابل مزيد من حديثه الشيق الممتع:

أجود عليها بالحديث وتارة — تجود علينا بالرضاب من الثغر (٣)

الأسنان: وأجمل الأسنان هي المتناسقة باستواء، البيضاء اللامعة .. حتى أنهم شبهوها باستوائها وبياضها وبريقها بالدر واللآلئ فقال سديف:

وإذا نطقن تخالهن نواطقا — درا يفصل لؤلؤا مكنونـا (٤)

الجيد والنحر:

وجمال الجيد يكون في طوله ولدونته ومرونته في التثني والالتفات، ولهذا استعار الشعراء جمال عنق الظبي ولدونته ليصفوا به جمال عنق المرأة، وجيد عبلة عند عنترة أشبه بجيد غزالة صغيرة كريمة الأصل، وغير خاف علينا جمال عنق الغزال ولفتته التي تحمل معاني الكبرياء والشموخ:

كأنما التفتت بجيد جداية — رشأ من الغزلان حرٍّ أرثـم (٥)

ولا يخرج سديف بن ميمون عن هذا الاطار في الوصف حين يصف نسوة رآهن فيقول:

وكأن أجياد الظباء تمدها — وشعورهن لطافة ولدونـا (٦)

---

(١) ديوان سحيم / ٤٤
(٢) شعر نصيب / ١٠٨
(٣) شعر نصيب / ٩٧
(٤) زهر الآداب وثمر الالباب ١ / ١٥
(٥) ديوان عنترة / ٢١٤ — الجداية = الغزالة الصغيرة ... حر ارثم = كريم ... والارثم: الذى على انفه سواد او بياض
(٦) زهر الآداب وثمر الالباب: ١ / ١٥

وكذلك الامر عند نصيب الاصغر حين يقول :

وكأنّ مية حين اتلع جيد هـا   رشأ أغن من الظباء ربيب (١)

وسحيم يضفي مزيدا من الجمال المصطنع على جيد فتاته فوق ما تتمتع به من جمال طبيعي ، فهي تزينه بأنواع من الحلي ، حتى أضحى تآلف بين هذا الجيد والحلي وما ذلك الا لوجود تشابه في الجوهر بينهما :

وجيداً كجيد الغزال المـزيـ   ـف يأتلق الدرّ فيه ائتلاقـا (٢)

وطالما أن جيدها تعود التزيين بالحلي .. فهو ينتقي أجملها شكلا ، وأغلاها ثمنا وهذا يكسب صاحبته مزيدا من الجمال والجاذبية :

وجيد كجيد الريم ليس بعاطل   من الدرّ والياقوت والشذر حاليا (٣)

وهذا الجيد الصقيل الطويل النقي اللون ، الحلو اللفتات ، قائم على نحر يضاهيه اشراقا وجمالا ، وحتى هذه الجواهر التي تزين بها كالثريا المشعة التي عكست نورها على النحر فزادته توهجا واشراقا ، أو جمر غضى أذكته الرياح فزادت توهجه :

وجيد كجيد الريم ليس بعاطل   من الدرّ والياقوت والشّذْر حاليا

كأنّ الثريا عُلّقت فوق نحرها   وجمْرَ غضىً هبّتْ له الرّيحُ ذاكيا (٤)

الشعـــــــــر :

هذا التاج الذي يغطي هامة المرأة .. والذي يتدلى بغنج ودلال فوق كتفيها ، كان له حديث طويل مع الشعراء ، حتى انهم تفننوا في وصفه ، وفي ابراز جماله . ولكنهم اتفقوا على أن طوله .. ولونه الفاحم .. وغزارته .. وكثافته .. هي أمور يحبها الرجل في المرأة بل يتغنى بها الشعراء ، ويتبادرون في ابراز جمالها عن طريق التصوير .. الا أنه على ما يبدو ، ومن خلال ما توفر بين أيدينا من مادة حول هذا الموضوع في شعر الشعراء السود أنهم لم يهتموا كثيرا بشعر المرأة ، رغم أنه كان عنوان جمالها ، وربما يكون الشكل العام هو الذي أغراهم في المرأة فوصفوه بحد حب ، وتغزلوا بجمد اعجاب .. وربما يكون جزء من شعرهم الذي ضاع واندثر

---

(١) الاغاني ١٤/ ٤١٤

(٢) ديوان سحيم ٤٢/ المزيف = الذي تزف ده ... والمزيف : المزوف الذي التزف عقله

(٣) المصدر نفسه ١٧/

(٤) ديوان سحيم ١٧/

كما اندثرت حياتهم فيما بعد ، حتى جاء من حاول انعاشها من جديد .. ومع ذلك كله نرى منهم من اهتم بهذا التاج الالهي كما فعل عنترة الذي لم يترك عضوا في جسد عبلة الا أشبعه وصفا ، ومن جملة ذلك وصفه لشعرها .. فالليل بظلامه الدامس يسرق من شعر عبلة لونه ، بعد أن كان الشعراء يسرقون من الليل ومن جميع مظاهر الطبيعة اللون والحركة والطعم والجمال ليلصقوه بحبيباتهم :

فظلف الظلام كسارق من شعرها فكأنما قرن الدجى بدياجي (١)

أما فتاة سحيم فصيادة قلوب ماهرة .. ووسيلتها في الصيد ذاك الشعر الاسود الفاحم الغزير وقد تدلى على كتفيها :

ليالي تصطاد القلوب بفاحم تراه أثيثا ناعم النبت عافيا (٢)

الخصر والارداف :

والخصر النحيل الرشيق مع الارداف الممتلئة كانا مقياس الجمال .. وعلى هذا يؤكد علي بن جبلة حين يقول لفتاته :

تجاوزت أقصى المدى فخلقك لا يوصف
فما تحته مثقل وما فوقه أهيف (٣)

ويستعير سديف بن ميمون من طبيعة الصحراء منظارا ، ليشبه به أرداف فتاته . فخصرها ضامر ، وأردافها مثقلة وكأنها كثبان رطيبة :

كأنهن اذا نهضن لحاجة ينهضن بالعقدات من يبرينا
وكأن أجياد الظباء تمدها وخصورهن لطافة ولدونا (٤)

فيتفق بهذه الاوصاف مع نصيب الاصغر الذي يقول :

نصفان ما تحت المؤزر عاتك دعص أغر وفوق ذاك قضيب (٥)

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي / ٢٩٥
(٢) ديوان سحيم / ١٧ = الاثيث = الغزير • والعافي = الكثير وهو من الاضداد .. يقال عفا الشيء اذا درس وذهب .
(٣) شعر علي بن جبلة / ٨٧ . الديوان / ٥٩
(٤) زهر الآداب ١ / ١٥ ــ و العقدات ج عقدة وهي السفح والكثيب • يبرين = اسم مكان
(٥) الاغاني ٢٢ / ٤١٤



الأصابـــع والمعصـم والـذراعـــان :

حتى اليديـن كان لهما نصيـب من الشعـر ، ولفتة من الشعراء ٠٠ فجمالهما ، ورقتهما ونعومتهما دليـل حياة مترفـة ناعمـة ٠٠

أما الأصابع فزينتها وجمالها في صبغهـا بالخضاب ٠٠ حتى اذا كانت ليلـى في الحج ترمي الجمار بأصابعهـا ظهـــرت واضحة العيان بخضابهـا الأحمـــر الذى يسبي العيون فيقول نصيب الأكبـر :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة   بخَيْفِ منى ترمي جمـار المُحَصَّبِ
ويُبدى الحصا منها اذا قذفت به   من البُرد أطراف البنان المُخَضَّب (١)

والمعاصم الممتلئة   دليـل الجمال عند سحيم، خاصة اذا كانـت تلك المعاصـم تحمل أكفا ذات انامـل بضة لطيفـة ناعمـــة :

وأبدتْ معاصمَ مكـــورةً   تزينّ أناملَهُنَّ اللّطافـــا (٢)

الســـــــــاق :

والانسجام مع ما سبق من الاوصاف يقتضي أن تكون الســاق ممتلئة ملتفـــــة لدنة ، ولا بأس ان زينت بالخلاخـل لتزداد جمالا وفتنـة ودلالا ٠٠ يقول علي بـــن جبلة :

من أين ما امتحنت محاسن وجهها   بَهَرَ العيون بها هلال ماثـل
شَجيَتْ خلاخِلُها بساقٍ خَدلَـــةٍ   وشجيتُ عمداً بالذى هو قائل (٣)

أوصـاف عامـــــة :

في هذه الاوصاف عـودة الى المرأة جملـــة، بعد أن تناولوا أعضاءهـــــا بالوصف تفصيلا ٠ وكأنهم أحسوا بالتقصير في حق الجمال ، فحنّوا الى صورتــــــه ككـل،وأرادوا أن يؤكد صـدق قولهــم في المرأة ٠٠ فهي عندهـم كاعـب مثـــل الدمى وجدية ذات معان مجـد ٠٠ وهـي أملح الناس وأكثرهم بشاشـــة، وبشوب جمالها الدل والخفـــر ٠٠

---

(١) شعر نصيب / ٦٩
(٢) ديوان سحيم / ٤٤ والمكورة = الممتلئة
(٣) شعر علي بن جبلة / ٩٧ ـ الديوان / ٦٢

فعنترة وهو الهيمان دائما بالجمال، ينظر الى الفتيات فيراهنّ أكثر جمالا ونضارة وهنّ على أول عهد من عتبات الصبا ، في ريعان الشباب، وقد كعبت نهود هن ، وأشرقت وجوههن الجميلة التي لم تخل من الحياء :

وكواعبٌ مثلُ الدمى أصبيتها　　　ينظرن في خَفَرٍ وحسن دلال (١)

واذا كان عنترة قد أصبا الكواعب من الفتيات فان سحيم ـ رغم تاريخه الحافل ـ يصرح بأنه لم يله بالبيض الكواعب التي هي اشبه بالدمى لجمالها فيقول :

ولم تله بالبيض الكواعب كالدمى　　　زمانا ولم تقعد من الارض مقعدا (٢)

ولكن الجميع هيام بالصبا والشباب الغض، الذي يتفتح كالبرعم ، والذي عقدت ثماره فغدت نهودا مكوره ، وغدا هذا الجمال دمى جميلة تسلب الألباب، وتصبي الحليم فما يصحو من جاذبيتهن سليم حتى سحيم :

لهند وأترابلها شبه الدُّمى　　　يَصدنَ فما يصحو لهنّ سليمُ

كواعبٌ أتراب لهنّ بشاشة　　　اذا عَلقَتْ شيئا فليس يريم (٣)

وصورة الفتاة الكاعب، هي الأكثر اجتذابا في عالم الرجال، لا سيما الشعراء السود .. لهذا نرى علي بن جبلة يفضل زيارتهن فيقول :

وأزور الكاعبَ الخو　　　دَ تواريها الستورُ

اذ عيون الدار صور　　　واذا الجيرة خير (٤)

وقد يختلف أبو نخيلة ، فيفضلها نجدية المعاني طيبة النشر :

نجدية ذات معان منجد　　　كأنّ رياها بعيد المرقد (٥)

الجمال المعنوى للمرأة :

وهذه المرأة التي استهوت الشعراء فتحدثوا عن جمالها الجسدى .. تحدثوا عن اعجابهم بشعرها وعينيها ، بثغرها وأسنانها وريقها ، اشراقة

---

(١) ديوان عنترة / ٢٢٧
(٢) ديوان سحيم / ٤٢
(٣) المصدر نفسه / ٢٧
(٤) شعر العكوك / ٥٩ الخود = الفتاة الحسنة ـ صور = تنظر اليه ـ الخير = الكرم والشرف ـ ديوان العكوك = ٤١
(٥) الاغاني = ٢٠/ ٣٨٨

وجهها وبياضه ، جمال عنقها وصدرها وصدرها ثم أردافها وذراعيها وساقيها ..
هذه المرأة التي فجرت منابع الالهام والابداع لديهم .. هل استطاعوا تجاوز شكلها الى شيء ما في داخلها ؟ هل بدت لهم صورة لجسد جميل فقط ؟ ... أم اجتذبتهم بروحها كما اجتذبتهم بقدها ؟ .. أما حاولوا الولوج الى اعماقها ليروا ما يسوؤها وما يسعدها !.. ما تحب وما تكره !.. اما كانت تمثل لهم أفكارا وعواطف وأخلاقا بعينها ؟ .. اذن .. أين اهتمامهم بكل هذا ؟ ..

في الشعر الذي بين أيدينا للشعراء السود حديث مقتضب لجمال المرأة المعنوي حتى أنهم وان ذكروا أجزاء منه فهي مكملة لجمالها الجسدي من علاوة الابتسامة التي تضفي على الوجه اشراقا ، والاشراق فيه مزيد من الجمال والجاذبية ، وطيب الرائحة وفي طيبها ونشرها فتنة ، وجمال مشيتها .. وفي مشيتها دلّ ودلال .. أما حياؤها فاكتفوا بقولهم أنها قضيضة الطرف ... وأما جاذبيتها العامة فهي تسبي الحليم وتصبي الزاهد .. هذا مجمل ما تحدث به الشعراء السود في وصفهم لجمال المرأة المعنوي ..

والاهتمام بالروح والمضمون الانثوي قليل الاهتمام عند الشعراء عموما .. وهو وان كثر فلإضفاء مزيد من الجمال على جسدها ، بل ومكملا له . فالعربي منذ أن وعى الحياة في صحرائه المسهلة لم يجتذبه فيها الا المحسوس ، وهذه سمة طبيعية لاهتمامات الانسان العادي وهو لا يزال بعد يعيش بداثيته التي هي بدورها تتمثل في المادة أكثر مما تتمثل في الروح .. ولكن .. وبمجيء الاسلام .. ألم يغير من الأمر شيئا في هذا المضمار ؟ .

الدلائل تشير الى التغيير الكبير في كل شيء ابتداء من العقيدة بعد أن كانت موزعة بين شتى مظاهر الطبيعة حتى جاء الاسلام فوحدّها . وحاول الوصول الى الأعماق واجتثاث كل اثر لبدائية الشعوب التي ادانت به وعلى مر الزمن كان لا بد من أن تزول مبادىء وعادات ومثل وأعراف وتقاليد، حتى تحل مكانها مبادىء وعادات ومثل مغايرة حملها اليهم الدين الجديد .. أما تأثير ذلك على الشعراء السود فقد كان عميقا من ناحية وسطحيا من ناحية أخرى .. شأنهم في ذلك شأن كثير من القلوب التي كانت بحاجة الى مرور زمن حتى تغير ما في داخلها ..

كان الدين الجديد منارا للسود الذين ائتلفوا الحبش مع العرب أو كانوا عربا بالأصل اهتدوا بنوره الى بر الأمان .. فأعطاهم الحرية بعد عبودية ، ومنحهم الاعتراف بوجودهم ومساواتهم مع غيرهم في الحقوق والواجبات من بعد انكار لحقهم في كل شيء .. أعطاهم الحياة الحرة بعد أن سلبهم اياها السادة ، ومنحهم المساواة بعد أن كانوا طبقة دنيا خلقت للخدمة .. وهم في المقابل دافعوا عنه وحملوا لواءه في أكثر من معركة ضد أعدائه .. وكانوا رعية صالحة لرسول هذه الدعوة بعد أن محا النظرة العربية القديمة التي كانت تنكر العبيد ، وتفرق بين الناس في اللون والنسب فجعل التفرقة بينهم على أساس التقوى " . (١) لذلك كانت اولى الاصوات التي انطلقت تدعو للدين الجديد وللايمان به اصواتا حبشية سوداء متمثلة في مؤذن الرسول الكريم ..

ولكن ، مع هذا الفتح الذي حققه الاسلام ، وهذا التغيير الذي اصابه في القيم والتقييم ، ولم يستطع في المقابل أن يدخل الأعماق بالسهولة نفسها ، ولا سيما أن أصوات الجاهلية لم تزل في كثير من زوايا المجتمع .. ومن هذه الأصوات كان ما تمثل منها في هذه الاوصاف الحسية للمرأة ، والتي ما زلنا نرى في آثار الاسلاميين من الشعراء شيئا منها رغم أن هذا لا يمنع من وجود تيار معاكس تجلى في مناصرة الغزل الذي اصطلح على تسميته بالغزل العذري .. مع كل ذلك .. لا نعدم أوصافا عامة في المرأة اهتمت بالجانب المعنوي فحققت كسبا جديدا للاوصاف السابقة وزادتها جمالا .. فأية جوانب تلك التي ركزوا اهتمامهم على تصورها .. ؟ ..

طيب الرائحة :

حكاية المرأة مع العطور حكاية قديمة ، وحديث الشعراء عن عطور المرأة وطيب نشرها ايضا قديم . فقد وجدوا في طيب الرائحة مصدرا هاما من مصادر جاذبيتها .. و يذهب اليه أبو نخيلة الراجز فيقول :

---

(١) بين الحبشة والعرب – عبد المجيد عابدين /٨٧

نجدية ذاتُ معان بنجدٍ كأنَّ ريـاها بعيد الرقيـد
ريا الخزامى في ثرى جعد ندي كيف التصابي فعلُ من لا يهتدي (١)

وطيب الرائحة يجتذب نصيب كما اجتذب قبله أبا نخيلة ، الذي أنشد لطيبة النشر :

وما أنشدُ الرعيانَ الا تعلّـةً لواضحةِ الأنياب طيبة النشـر (٢)

الابتسـامـة :

والابتسامة تضفي على الوجه اشراقا مستحبا ، وتثبت فيها الكثير من الجاذبية والحديث عن البسمة مقترن في أكثر الأحيان عند الشعراء بحديثهم عن الفم والاسنان فلما تحدثوا عن جمال فمها ، وحلاوة ريقهما ، وائتلاق اسنانها .. تحدثوا عن البسمة التي تتوج ذلك كله . والبسمة عند سديف غمامة أو زهرة اقحوان ناصعة البياض زادتها الأمطار جمالا واحمالا وبريقا :

وإذا ابتسمن فانهن غمامة أو اقحوان الرمل بات مطيرا (٣)

الحيـاء :

وقلة من الشعراء السود هم الذين تحدثوا عن حياء المرأة .. ولم يكن حديثهم الا حديثا عابرا رغم أن الحياء من الصفات المستحبة في المرأة ، وهي دليل سمعتها الطيبة ، وشرفها المصون .. وأكثر ما قيل في هذا المجال من وصف أنها غضيضة الطرف ، خفرة ، وعنترة ونصيب ، اللذين نستطيع اعتبارهما من رواد مدرسة الغزل الوجداني كما سيأتي ، هم صاحبا ذلك حيث قال الأول :

دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم

وقـال :

وكواعب مثل الدمى أصبيتها ينظرن في خفر وحسن دلال (٤)

---

(١) الاغاني ٢٠/٢٨٨
(٢) شعر نصيب / ٩٣
(٣) زهر الآداب ١/ ١٥ والمطير = الممطور حين يضفي المطر مزيدا من الجمال على الزهرة
(٤) ديوان عنترة ١٨٤/ ٢٢٧

ولنصيب حين يقول :

وما مغزل أدماء تأم غزالها ... بأسفل نهي ذي غرار وحلّب

بأحسن من ليلى ولا أم فرقد ... غضيضة طرف رعتها وسط ربرب (١)

المشيـــــــــــــه :

كان سحيم سباقا الى وصف مشية المرأة ، وهو يشبهها بمشية القطاة :

وماشية مشي القطاة تبعتها ... من السِّتر تخشى أهلها أن تكلما (٢)

وربما أعطانا النصيب وصفا أبدع حين يشبه مشية المرأة بمشية السحائب المتهادية بهدلي ..

طلعن علينا بين مروة والصفا ... يمرن على البطحاء مور السحائب (٣)

فالنسوة تتهادى الهوينا في مشيتها كما تتهادى السحائب في سيرها الهدلي .

الأثر النفســـــــــــي :

بعد هذه الاوصاف التي تفنن الشعراء في اطلاقها على جمال المرأة .. ترى...
ما هو تأثير هذا الجمال والسحر عليهم ؟ ..وما هو موقعه في نفوسهم ؟ ..

مما لا شك فيه أن الجميع تأثروا بجمال المرأة وسحرها وفتنتها ، ولولا ذلك ما وصفوا ذلك ، ولا تفننوا في ابرازه .. الا أن هذا التأثير يتراوح قوة وضعفا بين شاعر وآخر ، أو ربما وجدنا هذا التأثير الكبير على كثير منهم ولكنهم لم يظهروه أو يترجموه لسبب ما ... أما نصيب الأكبر فيصرح بتأثير جاذبية المرأة عليه ، فهو لم يستطع كتمان هذه العاطفة وتأثيرها عليه ، وعلى نفوس أولئك المتعبدين الخاشعين ، التائبين الى ربهم فيقول :

طلعن علينا بين مروة والصفا ... يمرن على البطحاء مور السحائب

وكدن لعمر الله يحدثن فتنة ... لمختشع من خشية الله تائب (٤)

حتى الطبيعة عند نصيب لا تنجو من جاذبية المرأة ، فهي تتأثر بها وتأخذ منها سحرها وجمالها واشراقها ، كما تأخذ منها عنفوانها وشموخها ، فاذا ما أحببنا الطبيعة ، فهو

---

(١) شعر نصيب ٦٩ ـ ٧٠
(٢) ديوان سحيم / ٢٥
(٣) شعر نصيب / ٧١
(٤) المصدر نفسه / ٢٨

يحب المرأة ، واذا ما أحب شموخ قنا وكبريائه فما ذلك الا لان قنا أخذ شموخه وكبرياءه من هند ساعة لقيها في رحابه مع الشاعر الذي يقول :

أحبُّ قنا من حبِّ هندٍ ولم أكن	أبالي أقربا زادهُ اللهُ أم بعدا
ألا ان بالقيعان من بطن ذي قنا	لنا حاجة مالت اليه بنا عمدا
أروني قنا انظر اليه فانني	احب قنا اني رأيتُ به هندا (١)

وليست السحب بأقل تأثرا بجمال المرأة ، هذا التأثر الذي يتحول عطاء ورزقا يعم على الجميع :

أرى الناس من ليلاك سقنا وقربها	حياء كما الغيث الذي أنت ناظره
ولو سألت للناس يوما بوجهها	سحاب الثريا لاستهلت مواطره (٢)

جميل أن يتأثر الانسان بالجمال ، وأن تتأثر الطبيعة – وهي منبع الجمال – بجمال المرأة .. ولكن الأجمل من هذا وذاك أن يستحيل هذا التأثر عطاء ، والعطاء خيرا ورزقا على الانسانية ..

وبشكل عام .. هذه هي صورة المرأة كما رآها الشعراء السود بأعينهم ومن خلال احاسيسهم نحو الجمال الانثوي . فاذا ما حاولنا تجسيد هذه الاوصاف فكيف تبدو لنا هذه المرأة ؟ ... وهل هي شبيهة بأختها التي تغزل بها امرؤ القيس أو الأعشى أو عمر بن أبي ربيعة من بعد ... ؟ ...

المرأة عند عنترة وسحيم وجماعتهم – اذا صح هذا التعبير – جميلة بيضاء مشرقة كالبدر في الصفاء والجمال ، حوراء كحلاء غضيضة الطرف ، أسنانها متلوسة كاللؤلؤ وريقها الممتزج بالقرنفل والزنجبيل ألذ طعما من السلاف المعتق ، ثغرها دائم الابتسام والاشراق ، طويل العنق ، يحيط بجمال هذا الوجه شعر كثيف ناعم سرق لونه من سواد الليل ، جيدها مثل الغزال ، ونحرها أملس مشرق يزيده فتنة وجمالا تلك الحلي التي تزينه . حلوة اللفتات مثل رشأ من الغزلان ، ممتلئة الذراعين ، مخضبة البنان ، نحيلة الخصر ممتلئة الأرداف ، خدلة الساقين ، وهي الى ذلك كله ناعمة البشر ، غضيضة الطرف ، رشيقة المشية كالقطاة ، ومخلوقة مثل هذه لا غرو ان تحدث فتنة في القلوب ، حتى في قلب ذاك المختشع التائب الى ربه :

---

(١) شعر نصيب / ٦٨

(٢) المصدر نفسه / ٨٤ — ٨٥

فكيف هي عند غيرهم من الشعراء ؟ .. هل تختلف في أوصافهما ومحاسنها الجسدية والمعنوية عما رأيناه عند السود ؟ .. أو بعبارة أخرى، هل كان الشاعر الأسود يحلم بامرأة فريدة في أوصافها ، مختلفة عما كان يحلم به غيره من الشعراء أو بتعبير أدق .. هل كان الشاعر الأسود يحمل في أعماقه نبضا متميزا أو عواطف مختلفة ، أو قلبا مغايرا ، أو نظرا متفردا ...

قد يكون الأمر مستغربا حين ألجأ الى عقد مقارنة بسيطة في هذه النواحي منطلقة منها الى اثبات أمر بديهي ، وحقيقة أكيدة تؤكد انسانية الانسان من كان ، وأينما كان بغض النظر عن اللون والجنس .. ومهما كانت الظروف والاعتبارات الاجتماعية لمجتمعه ، والتي لا بد أن يمتد تأثيرها حتى الى عواطف الانسان ولكن ربما سرت هذه البديهيات على كثير من الناس ممن كانوا يستهجنون ان يتغزل عبد مملوك مهما كانت صفاته بفتاة من فتيات القبيلة يحبها ويخلص لها الود لذلك يحاولون سلبه حقا منحه الله كما منحه لغيره من عباده .. وهل نستطيع حصر العواطف في قوانين وأنظمة نوزعها كيفما شئنا بين أبناء البشرية ؟ ..

انطلاقا من هذه النقطة لا بأس من ادراج المواصفات التي ذكرها الشعراء السود من خلال حديثهم عن محاسن المرأة الجسدية والمعنوية والتي كانت بالنسبة لهم هي الأوصاف المثال في عالم الجمال .. وان نذكر بمقابلها مواصفات أطلقها شعراء من غير السود ، ممن كان لهم باع طويل في الغزل ، وممن كانت لهم صولات وجولات مشهورة مع المرأة ، ولا بأس أن نتقي أحد شعراء الجاهلية وليكن امرؤ القيس ، وأحد شعراء العصر الاسلامي وليكن عمر بن أبي ربيعة ، وللاثنين تاريخ حافل في الغزل والصبابة والهوى .

...الدرد...	وما فوقه أهيف						
...ائد مايع والمعصم والذراعان		يبه في المعالم إذا عقدت [illegible] من البرد أطراف البنان الخضب	أبدت معاصم مكورة تخبر أنا ملبوسة [illegible]				
الساق	شبيه خلاخل [illegible] خدلة وتصبح [illegible] هو غائل						
...الشيبة		يرن على الطي [illegible] السحائب	[illegible] مشي القطاة				
أوصاف عامة	ما أذور الأغيب الخود		[illegible] أتراب الأشبه [illegible] كواعب أتراب [illegible] باشية				
طيب الرائحة		طيبة النشر					
...الدبتاقة والياد...		غضيضة طرف [illegible] مسط ربرب					
...ذر النفسي		لدن [illegible] يدنين [illegible] لخشع من خشية الله [illegible]					

فالصورة على ما يظهر جليا وواضحا متشابهة ومتقاربة في أكثر اجزائها بل لم تكد تتباعد قليلا حتى تعود لتتقارب بل لتتحد في حلقة مستمرة ، فتعطي في النهاية صورة لامرأة هي المثل الاعلى لما كان يحلم به الشاعر العربي الجاهلي والاسلامي عموما مع بعض الاضافات التي أملتها طبيعة التطور الحضاري وظروف المجتمع في كل زمن .. فالرشيقة الهيفاء الضامرة الخصر ، الممتلئة الردفين المشرقة الوجه ، الاسيلة الخد ، الممتلئة الذراعين والساقين ، هي المرأة المعشوقة عند الجميع منذ امرئ القيس ... وحتى عمر بن أبي ربيعة والى نصيب الأكبر وعلي بن جبلة ونصيب الاصغر ... وغيرهم ... (١)

---

(١) راجع ص ٩٢/٩٣ من البحث

الغـزل الوجدانـي عند السـود :

قبل أن يقف الشاعـر الاسود علـى الأطلال ، وقبل أن يصف مشاهـد التحمـل والارتحـال • قبل أن يتجرع مـن كأس الالام بعد رحيل الأحبـة ، وتصوير رحلة العذاب الذى خلفه البين • كانت لـه وقفـة مـع المرأة • وقفة لم تكن بالقصيرة ، ولا غـرو ••• فقد احتلت من قلبه مكانا متسعـا فحركـت اشجانه على ما في قلبه من أشجـان •• وأيقظت همومـه على كثرتهـا ، وأرقت ما خمد من آلامه ، حتى غدا جديثه عنهـا متنفسـا لكل ما يعتمل فـي داخله حمله هموم اللـون والنسب ، حمله هموم وجـوده ، حمله هموم انسانيتـه الموؤودة ، حمله هموم حبـه المحكوم عليه بالاعدام حتـى غدا الشاعر منهم محطـم القلب ، حزين النفـس مهضوم الجناح حينا •• وثائـرا ثـورة عاتية حينا آخر ، أو متأقلما ـ على كره منه ـ مع جـو المجتمع السائد أحيانا أخرى •• وكان لـه بالتالي •• ردود فعل تتأثـر بها أشعاره قـوة وضعفا •• وهذا التذبذب بيـن الثورة والسكون ، بين اليأس وبصيص الأمـل ، بين الطاعـة والخروج عن القانون السائـد هـو الذى صبغ أشعار السود بأصبغة متعددة الألـوان •• الا أنها سرعان مـا تتحد لتكسب هذا الشعر طابعا مميزا، ولتنضوى كلها تحت شعار الحب المـوؤود كما أدى تذبذبهـم في موقفهم من المجتمـع الى اختـلاف في منهج الحـب • فبينمـا كان بعضهم يستجمع ما في داخله من هموم وأحزان وآلام ليطلقها ثورة مجلجلة في وجه المجتمع تهتك أعراضه وتنال من سمعة فتياته ، ولا سيما بنات زعماء القبائـل وذوابات القـوم كما فعل سحيم في تغزلـه الفاحش بنساء بني أسـد وبالنساء التميميـات من بنـي جبيـر بن يربـوع • كان بعضهـم الآخر ينكفىء على ذاتـه متحملا بصمت كل ما يلقـي على هذه الذات من تبعات الحياة فـي تلك الظروف الصعبة •• وهذا الصمت كثيرا ما كان الشاعر يترجمه بأحاسيسه المرهفة الى كلمات شعرية ، تحمل الـى جانـب شاعريتها ـ كثيرا مـن هموم حبـه التي هـي خلاصة لهمومـه المتعددة • وهذه الفئة مـن الشعراء أحبت بكل ما تملـك من عواطـف ، أحبت بحرارة الشوق وعانـت من قساوة الحرمان وألم البين وذاقت مرارتهما • أمضها الألم فرقت عاطفتها وشفـت نفسها في أشعارهـا • بل اتفقت فـي كثير من الخصائص مع أشعاره الحب عند بني عذرة هؤلاء الذين نذروا نفوسهم للحب والحبيبة ، وما زالت قلوبهـم وألسنتهم تلهج بالحب وكلماته حتى آخر لحظة من حياتهـم •

من هم بنو عذرة ؟ وما هي خصائص مدرستهم ، وهذا الحب الذى دلوت شهرتـه الآفـاق وكـوّن مدرسة لنـا خصائصهـا وتقاليدهـا • ولها شعراؤها الـذين التزمـوا بتلـك الخصائص والتقاليـد ••• هذا الحب اختـص فـي أول عهده ببني عـذرة •• هـؤلاء

القوم الذين ينتهي نسبهم الى " عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن هذيم بن ليث بن أسلم بن لحاف بن قضاعة .. ومنهم جميل وصاحبته (١) " . وهم الذين قيل عنهم أنهم " اذا عشقوا ماتوا " فقد روى أن سعيد بن عقبة الهمداني سأل اعرابيا : ممن الفتى ؟ قال : من قوم اذا عشقوا ماتو . قال : عذرى ورب الكعبة ، فمم ذاك ؟ قال الاعرابي : في نسائنا صباحة وفي فتياننا عفة . (٢) وما نقل عن القوم في هذا المجال كثير ، وأكثره تعبيرا عن أحوالهم في هذا الحب جواب أحد العذريين لعروة بن الزبير حين سأله : " انكم أرق الناس قلوبا ؟ " قال العذرى " نعم لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل وما بهم داء الا الحب"(٣) وكما أودى بهم هذا الحب الى السل أودى بهم الى الموت . حتى عاب بعضهم على بني عذرة هذا الحب واعتبروه ضعف يقين ، ووهن عقيدة وضيق روية . أما دفاع العذريين تجاه هذا الاتهام فيتجلى في قول أحدهم " أما والله ، لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج ، والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغمر كأنها شذر الدر لجعلتموها اللات والعزى وتركتم الاسلام وراء ظهوركم . " (٤) من الطبيعي أن هذه الاجابة لا تلغي حقيقة نشوء هذا النوع من الغزل الذى قيل " التقاء عنصرين اثنين أولهما العاطفة الدينية والثاني الميول الجنسية في نفس المؤمن الذى حسن اسلامه وقوى يقينه . " (٥)

وقوم كانت هذه عقيدتهم في الحب ، لا بد وأن يكونوا زعماء مدرسة لها شعراؤها في القبائل العربية كلها .. ولها مريدوها ، ولها خصائصها .

أما شعراؤها ومريدوها فأكثر من أن يحصو ، وأن كان يتزعمهم بجداره جميل بن معمر .. وأما خصائصها فتتلخص في امور أهمها :

١ ـ قصر قصائد بأكملها على الغزل :

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي / ١٤٦

(٢) مصارع العشاق ١ / ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٤٩ ـ ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٣٢ ـ ٣٣

(٥) تطور الغزل شكرى فيصل / ٢٣٦ .

٢ — الغزل الروحي العفيف الذي وان كان فيه آثار للأوصاف الجسدية ، فهي آثار ضئيلة •

٣ — التمسك بحبيبة واحدة لا تتبدل

٤ — الوفاء والتضحية والاذعان والخضوع في الحب •

٥ — الشكوى من تمنع المحبوبة ومن الوشاة والعذال

٦ — الألم من الفراق الى حد الوصول الى اليأس

٧ — وهو الى ذلك كله •• مشرق وضاء اشراق شمس الصباح (١)

فهل كان من سبيل لشعرائنا السود الى هذا الحب ومدرسته ؟ ••

واذا كان هناك من سبيل مهما قصر أو طال ، سهل أو صعب •• هل ساعدتهم ظروفهم النفسية والحياتية والاجتماعية على السير قدما في ذات الاتجاه •• ؟ ••

فهل البحث عن أجوبة لهذه الاستفسارات يجدر بنا أن نلم ولو بلمحة قصيرة بالظروف التي أحاطت بالشاعر الأسود لوجود ترابط قوي بين هذه الظروف وبين حياة الشاعر من جهة • وبين حياته التي لها انعكاساتها على ذاته .. وهذه العاطفة الرقيقة التي اطلق عليها اسم الحب ومن خلال هذه العاطفة بين الشاعر والمرأة نستطيع أن نستشف تجاربه في الحياة ، كيفية تعامله مع المجتمع ومع أفراده ، ومع نفسه • وذلك أن عاطفة الحب لدى الشاعر الأسود من أقوى العواطف تأثرا بهذه الظروف • نظرا لانه بشفافية الحب تشف نفس الشاعر ، وبرقتة ترق ، وسعادته يسعد ، وشقائه يشقى • وهو الى هذه الظروف لم يرث من والديه الا مايزيد في بعد الهوة بينه وبين مجتمعه •

واذا مابحثنا في ملابسات الظروف التي مرت بها هذه الطائفة من الشعراء ، وجدناها كثيرة ومتنوعة ، لكنها لا تلبث أن تعود لتتفرع عن أسباب رئيسية ثلاثة تكمن في :

١ — عقدة اللون : فلقد كانت هذه العقدة وراء أحزان الشاعر الاسود ومآسيه كلها ••• كانت وراء عبوديته وكانت وراء فقره ، كانت وراء فشله

---

١ — أخذت هذه البنود بتصرف عن المراجع التالية : تطور الغزل / ٢٢٦ — ٢٧٦ — الغزل في العصر الجاهلي / ١٤٦ — دراسة الحب في الأدب العربي ٢/ ٧ — طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي / ٧٥ — ٧٦ — ٩٩ — ١٢٠ — ١٢٩ — ١٦٦ — ١٨٥ — ٢٢٠ — الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية / ٤٦ — ٤٣ — الزهرة للأصفهاني •

في المجتمع كانسان له مكانته ، كما كانت وراء فشله كمحب تنافت عنه عيون البيض وقلوب الجميلات • فهي اذن مقدمة بدء ... وبدء الأحزان التي تكالبت على الشاعر وحصرت تفكيره في ايجاد طريقة العيش واثبات الوجود • هذا الوجود المتأرجح بين الموت المعنوي له وبين الموت المادي عن طريق النهاية المحتومة بالقتل والتمثيل أحيانا •

ومع أن مجيء الاسلام خفف من حدة الشعور بهذه العقدة ، الا أنه رغم عدالة أفكاره ومبادئه .. لم يستطع القضاء عليها أو محوها • وسنرى فيما بعد كيف أنها ستكون وراء هذا الارث الشعري الاسود الذي كان بدوره صوت الاحتجاج على المجتمع • وعلى الحياة البائسة البائسة التي عاشها ومازال يعيشها [illegible] ولذلك نرى عنترة يريد أن يقنع قبيلته أولا، وعبلة ثانيا، أن بيض فعاله قمينة بأن تمحو سواد لونه ... وأن لمعان سيفه وجرأته في المعارك كفيل بأن يغسل عار عبوديته • فهو بطل ... رغم سواده ... وليس السواد بمعجز ولا بمخل لمكانته، ويجب أن يكون كذلك • وهذه النغمة كثيرا ماسمعناها تتردد في أشعار سحيم ونصيب وكثير غيرهم من الطائفة نفسها •

٢ - المنبت الطبقي : وكما كانت عقدة اللون وراء مآسي الشاعر الأسود كانت وراء تصنيفه في الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع ، أي طبقة العبيد • هذه العبودية التي لحقتهم من أمهاتهم الاماء • فعنترة مهما حقق من انتصارات للقبيلة ،كانت سببا في حفظ شرفها مرات عدة ، مايزال في نظرهم ابن زبيبة • والامر نفسه يتكرر مع ابن شكلة، وابن نجبه، وابن السلكة وهذا النسب القاتم وقف حائلا بينهم وبين التصالح التام مع مجتمعهم • وبالتالي بينهم وبين محاولة تحقيق ميولهم ورغباتهم في كثير من الاحيان ، ومن ثم الوصول الى قلب المرأة، والتعلق بها وحبها حبا وجدانيا يحمل شفافية العذريين •

فاذا ماحاول عنترة السير قدما في هذا الطريق ، والتمسك بأهداف الحب العفيف السامي الصادق • لاقى الاعراض والتمنع من عبلة ، كما لاقى الذل والهوان من قبيلتها • مثلما لاقى نصيب بعده التهكم والسخرية اللاذعة حين أضناه الشوق ، وأشعل نار قلبه الوجد والحنين ، وتمثل عن قصد أو غير قصد خطى العذريين •

٣ - الفقر : والفقر هو الحاصل الناتج او المحصلة الطبيعية لما سبق.

• فكما اشتكوا من السواد والعبودية ... اشتكوا بالتالي من الفقر الذي لازم هاتين الصفتين • وكان سببا في مد أيديهم الى الناس وسؤالهم على ماهي السؤال من مذلة •• كما كان سببا في تذللهم للسلطة والسادة تذللا

وبضفوه في كلمات وأشعار كانت تحمل في كثير من الأحيان حقداً مكبوتاً وسخرية من سلطان كبير أسكتت غروره بهما . كما كان وراء تصعلك بعضهم كالسليك ، ووراء نوع من "التصعلك الذليل" كأبي دلامة (١) . ومع أنهم كان لكل واحد منهم طريقة في العيش في الحياة ... وفي التغلب على بؤسها المادي والمعنوي ... كانوا الى حد كبير "ملتصقين بطبقتهم" وقد التفتوا الى الحياة من حولهم بما فيها من خير وشر " وقربهم الحميم من الحياة جعلهم يمثلون تيارا ماديا صلبا وسط روحانيات الحياة " (٢) .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، الى جانب ما أثارته من أسباب فرعية ، عاش السود على حافة المجتمع وليس في وسطه ... عند الناس وليس بينهم .....

ولا غرو بعد ذلك أن نجد أكثرهم بعيدا عن تيار الايجابية في الحب . وربما أعطتنا الرواية التالية التي تنقلها الأغاني دليلا على ذلك ، كما أعطتنا دليلا آخر على السخرية والتهكم الذي كان يلحق بهم اذا ما حاولوا أن يعيشوا حبهم ، وأن يتركوا لعواطفهم العنان ، وأن يعبروا بما يعتمل في قلوبهم الحزينة .

فلقد روى أحدهم قائلا " غدوت يوما الى أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة وهو معتل بالرحبة ، فألفيت عنده جماعة منا ومن غيرنا ، فأتاه آت فقال له : ذاك النصيب منذ ثلاث بالفرش من ملل متلدد كأنه واله في أثر قوم ظاعنين . فنهض ابو عبيدة ونهضنا معه . فاذا نصيب على الحجر من صفر ، فلما رأينا وعرف أبا عبيدة هبط فسأله عن أمره ، فأخبره أنه تبع قوما سائرين ، وأنه وجد آثارهم ومحلهم بالفرش فاستوله ذلك . فضحك أبو عبيدة والقوم وهو يقول : انما يستر اذا عشق من انتسب عذريا ، فأما أنت فمالك ولهذا ... فاستحيا وسكن " (٣)

فهل يحق لهذه الطبقة المقهورة ، المغلوبة على أمرها ، التي صاحبها التوتر الدائم لما تلقيه في حياتها ... هل يحق لها أن تذوق طعم الاستقرار والراحة . هل يحق لها أن تطلق عواطفها من سجنها . هل يحق لها التعلق بمحبوبة ، وأن تنتسب الى هذه العذرية التي عرف عن أصحابها سالما عرفت الاستقرار النفسي وبالتالي العاطفي ... ؟ .

ما مر معنا من الملابسات التي اعترضت حياة السود تؤكد بعدهم عن هذه المدرسة عموما ... لأن الناس ... وفق تقاليد المجتمع آنذاك .. أضافوهم من العرف الذي فرض عليه

---

١ ـ حياة الشعر في الكوفة / ٤٧٦

٢ ـ الشعراء السود / ٢٢٩

٣ ـ الأغاني ١ / ٣٤٣

الحظر ، والحد والعاطفي خصوصا • ومع ان حاولوا التمرد على هذا التعسف ، وحاولوا رفض القيود لاقوا مالاقاه نصيب من سخرية وتهكم •••• وما لاقاه عنترة من فشل في حبه ••• وما لاقاه سحيم وغيره من نهاية مفجعة •

على أننا — ورغم كل ماتقدم — لانعدم أصواتا حاولت تصعيد رغباتها وميولها فتحدت المجتمع وأحبت بصدق واخلاص وديمومة ، وبكت وشكت وتذكرت وأضناها الشوق والحنين شأنها في الحب شأن الشعراء العذريين • حتى أنها تلاقت معهم في كثير من الخصائص وكان أصدق صوت عنترة بن شداد ونصيب الاكبر ثم تبعهم ثلة من الشعراء الذين اختلفوا في أمور عن المدرسة العذرية ، لكنهم لا مسوا ... من بعيد او قريب ... بعض خصائصها ••• ولذلك فلا بأس من المرور بهم لنكون قد وفينا البحث حقه •• ووفينا الشعراء حقهم أيضا •

وحب عنترة في هذا الميدان حب فريد من نوعه ، ولا سيما في طبقة •• سما به فوق عالم المادة ، وتطلع من خلاله الى حريته ، فكان باعثا ومحركا ومثيرا لنيلها ومن ثم تحقيق ذاته • لقد أحب ابنة عمه مالك بن قراد الذى هو سيد من سادة عبس • وقد دافع عن حبه لها دفاع المستميت وهو البطل المغوار الذى كانت تستنجد القبيلة به وقت الحاجة ، ثم تلوى بحقه أ حين يقضي لهما تلك الحاجة •

وعنترة في حبه لعبلة عاشق ولهان ، يزجي لها القوافي ويقرن لها الاشعار التي تمجد حبها وتحيطه من اطار من العفة حتى نراه يدنو بشدة من جميل وأصحابه ويشترك معهم في خصائص منها :

آ — قصر قصائد بعينها على الغزل : فعبله موجودة في أشعاره كلها ••• في الحرب والسلم ، في الوصف والفخر والحكمة ثم في الغزل •• وفي الابيات التالية مختصر لحب كبير رضي منه بالقليل القليل :

اذا رشقت قلبي سهام من الصد ... وبدل قربي حادث الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الدهر مانعا ... ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدى
وبت بطيف منك ياعبل قانعا ... ولو باتيسري في الظلام على خدى
فبالله ياريح الحجاز تنفسي ... على كبد حرى تذوب من الوجد
ويا برق ان عرضت من جانب الحمى ... فحي بني عبس على العلم السعدى
وان خمدت نيران عبلة موهنا ... فكن انت في أكنافها نيرّ الوقد
وخلّ الندى ينهل فوق خيامها ... يذكرها أني مقيم على العهد

صدمت اللقا ان كنت بعد فراقها رقدت وما مُثِّلتُ صورتها عندي

وما شاق قلبي في الدجا غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرند

به مثل مابي فهو يخفي من الجوى كمثل الذي أُخفي ويبدي الذي أبدي

ألا قاتل الله الهوى كم بسيفه قتيل غرام لا يوسَّد في اللحد (١)

٢ـ قصر حبه على فتاة بعينها :

فقد أجمعت كتب الادب التي تحدثت عن عنترة على أنه أخلص وداده دوما وأبدا لابنة عمه عبلة ، وهو دائم الحديث عنها وأسير هواها يخاطبها فيقول :

اني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها

ولئن سألت بذاك عبلة خبرت أن لا أريد من النساء سواها

وأجيبها إمّا دعت لعظيمة وأعينها وأكف عما ساها (٢)

وهو دائما يبثها حبه ، ولواعج قلبه ، فاذا ما شعر بفتور عنها بوادر اعراض تلوح منها ، تسلح بالحجة الى جانب العاطفة ، وحاول اقناعها بأنه جدير بها وبحبها وبقربه ، وهل هناك من يفضله شجاعة وقوة وبأسا وحصافة في الرأي وصدا في الشر وجامعا لكلّ أنواع المكرمات والفضائل :

وصلت حبالي بالذي أنا أهلُه من وُدِّها وأنا رخيُّ المطول

يا عبلُ كم من غَمْرةٍ باشرتُها بالنفس ماكادت لعمرك تنجلي

فيها لوامعُ لوشهدتِ زُهاءَها لسلوتِ بعد تخضب وتكحل

أما تريني قد نحلت ومن يكن غرضا لأطراف الأسنة ينحل (٣)

٣ـ الاذعان والخضوع في الحب ، والتذلل للمحبوب :

ولا يجد المحبون العذريون غضاضة في التذلل لمحبوباتهم طلبا للقرب ولكسب الودّ • فقد جعلوا من مقاييس صدق العاطفة الخضوع في الحب والاستسلام لامره ، لهم أسرى في حب من يهوون لا يملكون ضرا ولا يحسنون صنعا (٤) • "ولذلك يعمد صاحب الزهرة الى تخصيص باب لهذا الموضوع تحت عنوان " التذلل للحبيب من شيم الأديب (٥) وللسبب نفسه لم يجد عنترة ـ رغم شدة بأسه وبلائه في الحروب لم يجد في الخضوع لحب عبلة مذلة • فلا شموخ ولا كبرياء

١ـ الغزل في العصر الجاهلي / ١٩١ ـ ١٩٢ (٢) ـ ديوان عنترة / ٢٠٨

٣ـ المصدر نفسه / ٢٥٥

٤ـ دراسة الحب في الادب العربي ١ / ٩١

٥ ـ الزهرة ١ / ٥٢ ـ الباب السادس •

في الحب • وعنترة اذا ماتودد الى عبلة وأذعن لحبهما عن رضى وقناعة عبر عن ذلك بصورة غير مباشرة ، وهذا نلمسه في أشعاره كلها تقريبا أو بصورة مباشرة وصراحة كقوله راجيا ومستعطفا •

لا تصرميني ياعبيل وراجعي — في البصيرة نظرة المتأمل
فلرب أملح منك دلاً فاعلمي — وأقر في الدنيا لعين المبتلي
وصلت حبا لي بالذى انا أهله — من ودها وأنا رخي المطول (١)

٤ — والتذلل والخضوع للحبيب عند العذريين ينقلنا الى صفة أخرى ترتبط به مباشرة فهم اذا ماخضعوا مرغمين للحبيب فلأن فيه من صفات الاجلال والتأثير الغلاب والجاذبية مالا يمكن مقاومته أو الافلات منه • حتى ان عنترة بفضل هذا التأثير نراه مسلوب العقل لمجرد أن اطلت عليه عبلة بثغرها العذب المنهل حتى وهو في ساحة الوغى ، والفرسان مشتبكة ورحى الحرب دائرة يرى في لمعان السيوف اشراقة ثغرها فيود تقبيله :

اذ تستبيك بأصلتي ناعم — عذب مقبلة لذيذ المطعم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل — مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها — لمعت كبارق ثغرك المبتسم (٢)

٥ — الشكوى من العذال

واشتكى عنترة كالعذريين — من العذال الذين كدروا عليه صفو الحب وحاولوا أن يثنوا عبلة عن هذا الحب ••• لكنه — من جهته — لايأبه لوساوسهم بل على العكس زاده تصميما وعنادا في حبه ، أما عبلة فيبدو أنها أعلمتهم اذ صافية فيخاطبها قائلا :

فَلَئِنْ صرمْتِ الحَبْلَ يا بْنةَ مالِكٍ — وسمعتِ في مَقَالَةَ العُذَّالِ
فَلَعَمْرُ جَدِّكِ إنني لَمُشايِعي — لُبِّي وإنّي للطُوتِ لَتالِ (٣)

٦ — الاستعانة بالرسول :

وعنترة اذا ماخاف الوشاة والعذال فانه يحاول كتمان مافي قلبه ويستخفي عن اللقاء المباشر مستعينا بالرسول ليتكشف له أمرها :

---

١ — ديوان عنترة / ٢٥٤ — ٢٥٥
٢ — الفروسية في الشعر الجاهلي : نوري حمودي القيسي / ٢٨٢
٣ — الديوان / ٣٣٦

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمن حَلّت لَه ... حَرُمَت عَليّ وليتها لم تَحرُمِ
فبعثتُ جاريتي فقلتُ لها اذهبي ... فتجسّسي أخبارها لي واعلمي
قالت رأيتُ من الأعادي غِرّةً ... والشاةُ مُمكنةٌ لِمَن هو مُرتَمِ (١)

وعنترة في هذا الحب كله صادق العاطفة نقي الفؤاد ، دائم الحنين والتذكار لعبلة ... فهي معه في حله وترحاله ، في نومه ويقظته ، في السلم والحرب يستمد من حبها العفيف القوة ، كما يستمد منه التصميم والتحدى . حتى أنه كان باعثا له على محامد الأفعال ، ومكارم الأخلاق ، واذا ما أردنا أن نرسم صورة لعنترة من خلال شعره الذى اختلطت فيه صفات البطولة بملامح العفة والترفع عن الدناءة ، رأيناه يمثل المثل الاعلى للانسان ... كما رأيناه في حبه يمثل أعلى وأكمل صورة في الحب ، هذا الحب الذى عكس صورا شتى ... صورة تمثل أخلاقية العربي الصميم فيما يحب وما يكره ، وصورة يختلط فيها الفخر بالحب وغايته اقناع المجتمع القبلي بوجوده كانسان ذى قيمة لا كعبد ... فاذا ما اعترفوا بوجوده وبأنه فارس القبيلة أقنعهم بجدارته بحب عبلة كونه الشاب الاكثر كمالا في القبيلة .

أثني عليّ بما علمتِ فإنّني ... سمحٌ مخالقتي اذا لم أُظلَمِ
فاذا ظُلِمتُ فإنّ ظُلميَ باسلٌ ... مُرٌّ مذاقتُهُ كطعم العلقمِ
ولقد شربتُ من المدامةِ بعدما ... رَكَدَ الهواجرُ بالمَشوفِ المُعلَمِ
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسرّةٍ ... قُرِنت بأزهرَ في الشمال مُفدّمِ
فاذا شربتُ فإنّني مُستهلكٌ ... مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكلَمِ
واذا صحوتُ فما أُقصّرُ عن ندى ... وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي
هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
اذ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ ... نَهدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكلَّمِ
طَوراً يُجرَّدُ للطعانِ وتارةً ... يأوي الى حَصِدِ القِسيِّ عَرَمرمِ
يُخبِركِ من شهدَ الوقائعَ أنّني ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ (٢)

وفي هذه الابيات لخص عنترة مجموعة من الشمائل والصفات التي كانت مجال فخر القبائل كلها ، والتي قربته - بالتالي - من صفة الكمال .

ولم يكن عنترة الوحيد من بين الشعراء السود الذين كانت لهم صلات قرابة شعرية

---

١ - ديوان عنترة ص ٢١٣ - ٢١٤

٢ - المصدر نفسه ص ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨

مع أصحاب المدرسة العذرية باتفاقه معهم في بعض الخصائص ، بل رافقه في هذه الطريق شعراء آخرون لا صبوا برفق عفوية خصائص المدرسة المذكورة ... ولم يكن نصيب الاكبر الا من هؤلاء الذين أحبوا فاكتوت قلوبهم بنار الحب والاسه من بُعدٍ وفرقة وهجر ... فتألم وبكى وكان بكاؤه فيه الكثير من اللوعة حتى اذا ما تكاثرت عليه آلام الوجد والصبابة ولم يشعر بحلاوة الحب ندب حظه وحظ أمثاله الى حد قوله :

ساكين أهل العشق ماكنت أشترى جميع حياة العاشقين بدرهم (١)

١ — وشدة الشوق والهوى يتلازمان في كثير من الاحيان بين طيات شعر الغزل عند الشعراء السود ، ولا سيما الوجداني منه ... وكأنهم بذلك يريدون أن يحمّلوا حبهم للمرأة جميع همومهم الذاتية منها والعامة .. ولاشك أن "الصد" والتمنع الذى هؤلا في تودد هم للمرأة ، والمرأة البيضاء خاصة لزم عنه في كثير من الأحيان شدة في التعلق وزيادة في الشوق الذى وصفه الحيكوك بأنه فوق طاقته .

لوأن لي صبرها أو عندها جزعي لكنت أعلم ما آتي وما أدع
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها ما حمّل الله نفسا فوق ما تسع
اذا دعا باسمها داعٍ فأسمعني كادت له شعبة من مهجتي تقع (٢)

ولم يكن نصيب الأصفر بأقل من الحيكوك تأثرا وضعفا بما ألمّ به من الشوق المضني فقال :

لقد سامني طرفي قد خرّقته وأظهر ماأكنت بين الجوانح
فلم أستطع سيرا لما بي من الهوى ولم يخف ماأضمرت والقلب فاضح
فيابؤس من نأى عن الالف داره ويابؤس من في القلب كالمتنازح
وازداد شوقا حين أدنو توحشا لخاذ بوشك البين منك ورائح (٣)

واذا ما اشتد الشوق والهيام بنصيب الاكبر نراه يلبي دعوة الاحرام . لكنه هذه المرة لن يحرم طلبا للاستغفار مما علق به من ذنوب كثيرة من المحرمين ، بل من اجل الدعاء والرجاء من الله أن يجمعه بمن يحب ، وبعد ذلك ، فليحاسبه الله كما يشاء وهو أرحم الراحمين :

دعا المحرمون الله يستغفرونه بمكة يوما أن يُمّحى ذنوبها

---

١ — شعر نصيب / ١٢٢
٢ — شعر الحيكوك / ٧٨ — ديوانه / ٥٧
٣ — طبقات الشعراء / ١٥٥

وناديت أيا رباه أول سؤلتي	لنفسي ليلى ثم أنت حسيبها (١)

٢ ـ وهم دائمو الشكوى والتظلم من محبوباتهم، وليس أمامهم اذ ذاك الا المزيد من الخضوع والاذعان لهذا الحب والتذلل لصاحبه، ربما يلين القلب وتسرق النفوس فتجود بشيء من الوصال، وأول مايطالعنا هنا صوت النصيب حين يتوجه الى صاحبيه يسألهما أن ينذرا حبه منح العامرية ويستطلعا الخبر... هل مازالت على العهد أم تقطعت الأسباب، ومهما كانت النتائج فهو مقيم على العهد ومنتظر لحظة الرضى.

خليلي زورا العامرية فانذرا	أيبقى لديها الود أم يتقضب
وقولا لها ان يصد لك فلا قلى	ولكنه عن رقبة يتجنب
يرى دونكم من يتقي وهو آلف	لكم راء من دونكم مترقب
فصد وما يستطيع صرمت أنه	ولو صد حسن في حبالك منشب (٢)

وهو دائم التفكير في أمرها، هل هي مستمرة في حبه؟.. أم أصاب قلبها الملل؟.. فان لم تزل على العهد فهو في مأمن ومنجى من قسوة الحرمان، والا م النأى :

ألم بزينب قبل ان يرحل الركب	وقل ان تمليتنا فما ملك القلب
وقل ان قرب الدار يطلبه العدى	قديما ونأى الدار يطلبه القرب
وقل ان تنل بالود منه محبة	فلا مثل مالاقيت من حبكم حب
وقل في تجنيها لك الذنب انما	عتابك من عاتبت فيما له عتب
فمن شاء رام الوصل أو قال ظالما	لذى وده ذنب وليس له ذنب (٣)

والنأى هو مصدر الخوف دائما بالنسبة للمحبين، وقسوته أفظع من أن يحتملها المحبون، ولهذا نرى نصيب يستعين برفيقيه عليهما يخففا من وطأة العذاب :

خليلي من كعب ألما هديتما	بزينب لا تفقدكما أبدا كعب
من اليوم زوراها فان ركابنا	غداة غد عنها دعا أهلها تكب
وقولا لها يا أم عثمان خلتي	أسلم لنا في حبنا أم هو حرب
وقولا لها مافي البعاد لذى الهوى	بعاد وما فيه لصدع النوى شعب
وقال رجال حسبه من طلابها	فقلت : كذبتم ليس لي دونها حسب (٤)

---

١ ـ شعر نصيب / ٦٧
٢ ـ المصدر نفسه / ٦١ والرقبة المحافظة والنظار
٣ ـ المصدر نفسه / ٦٠
٤ ـ المصدر نفسه / ٦٠

وهـــــيو ان احس منها ملل في أثره تباعد ••• وتباعد في أثره قطع ••• عاد مريض الجناح مكسور الخاطر ، وهل عن الشكوى أشد من بديل ••• ؟ •

ألا أن ليلى العامرية أصبحت   على النأى مني ذنب غيرى تنقم
وما ذاك من شيء أكون اجترمته   اليها فتجزيني به حيث أعلم
ولكن انسانا اذا مل صاحبا   وحاول صرما لم يزل يتجرم

وكما هي الحال عند نصيب هي عند عبيد الله من هجر وصد ••• ونأى وقطع ••• رغم مافي قلبه من حبها ، ورغم ماواجهه من لوم وعتاب على شدة تعلقه بها :

يا أم عمرو لا تبذى صرمنا   وكيف تصرمين حبل من يصل
وذاك بهجر بل الا أننا   قاتلنا حبك ان حبك قد قتل
باكرني بسحرة عواذلي   ولو مهن خبل من الخبل
يلمنني في حاجة ذكرتها   في عصر أزمان ودهر قد نسل (٢)

وعلي بن جبلة يتحمل ـ على مضض ـ جفاء ها ، وهو على يقين من أنها لا تريد من حرمانه وألمه الا أنها لا تعرف منزلتها ومكانتها عنده ، فتتدلل وتمعن في بعدها عنه وفي هذا سوء ••• وأي سوء •

تسيء ولا استنكر السوء انها   تدل بما تهلوه عندي وتعرف
فمن أين ماستعطفتها لا ترق لي   ومن أين ما جربت صبرى يضعف (٣)

٣ ـ وللوشاة دور ـ وان صغر ـ في غزل العذرى ••• ألا يكفيهم غضب القدر عليهم حتى يسانده غضب البشر • هؤلاء الذين رموا الفتنة بين المحبين ، فاشتكى منهم نصيب كما اشتكى من قبله جميل وقيس وغيرهم ، وهو لهذا يكتم أمر حبه خوفا ، وأمدا •

وما زال بي مايحدث النأي والذى   أعالج حتى كدت بالعيش أبرم
ومازال بي الكتمان حتى كأنني   يرجع جواب السائلي عنك أعجم
لاسلم من قول الوشاة وتسلمي   سلمت وهل حي من الناس يسلم (٤)

وليست محبوبته بأقل خوفا وحذرا من أولئك الوشاة ••• فكم من مرة راودتها نفسها بالوصل الا أنها كانت تتراجع وتفضل الصمت والابتعاد رغم ما في قلبها من لوعة وحب ، ورغم مافي عينيها من دموع سواكب •

---

١ ـ شعر نصيب / ١٢٢   ٢ ـ شعر عبيد بن الطيب / ٨٥ ـ ٨٦
٣ ـ شعر علي بن جبلة / ٨٥ ـ الديوان / ٥٩
٤ ـ شعر نصيب / ١٢٢

رفقت لها كيما تمر لعلني أخالسها التسليم ان لم تسلم
ولما رأتني والوشاة تحدرت مدامعها خوفا ولم تكلم(١)

حتى سحيم عبد بني الحسحاس الذى صورته لنا كتب الادب انسانا متهالكا على اللذة ضاربا عرض الحائط بتقاليد المجتمع القبلي كلها ، مقترفا الاثام في سبيل الوصول الى المتعة ... هذا الانسان العبد الذى اقترن اسمه ... في أكثر الاحيان ... باللذة مهما كان ثمنها ، ترك لنا بعض أبيات صور فيها الجانب الآخر صحيحة من غزله . فهو قبل كل شيء انسان ... وانسان محب ذاق مرارة النأى واكتوى بنار البعاد وأمضه الشوق ، وأصابه الخوف والذعر على فتاته التي دب المرض في أوصالها ، وبدت صفرته على محياها فانطلق يردد :

ماذا يريد السقام من قمر كل جمال لوجهه تبع
ما يبتغي جار في محاسنها أماله في القباح متسع
غير من لونها وصفرها فزيد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت له ها أنا دون الحبيب ياوجع

ولكن ماانحسب هذا الشعور الا طفرة ، رقت فيها مشاعره ، وسمت حتى صورت اللذة الجسدية وارتفع مع روحانية الحب لحظات لم يلبث بعدها أن عاد الى طبيعته الحسي التي تبدى بأوضح مايكون في الغزل الجنسي .

---

١ ــ شعر نصيب / ١٣١ ــ ١٣٢
٢ ــ ديوان سحيم / ٥٤

الغزل الحسي عند الشعراء السود :

طبيعته = حين يبتعد الشعر الغزلي عن ينبوعه الأصلي ، المتمثل في القلب الفياض بالعواطف الدافئة الرقيقة ، التي تصدح من الشاعر أساسا آخر مفرط الحساسية يسعده القرب ويؤلمه البعد ، تهيجه الذكريات وتترع الآمال المرجوة من فمه بسمة التفاؤل بالعلاقات القادمة • وتسري النضرة أو النسمة الحانية غليله • حين يبتعد الشعر الغزلي عن الخط ليمطف بشدة ناحية التيار المعاكس متأججا بنيران العاطفة ، وقد دوى رياح الجنس لتلهب بسياطها قلب الشاعر ، ولتلفح بوهجها وجهه ، ولتحرك في أعماقه قلقا لا قرار له ، وتوترا يبحث بسكونه • عند ذاك تتحكم به اللذات الدنيا " التي تضغط من أجل الحصول على الارتياح من التوتر " ويدعم عن ذلك السلوك المحزن الدافع والمحزن ، وهذا مايحدث فعلا عندما يفقد الشخص سيطرته الاعتيادية على شخصيته "[1] هذا السلوك المحزن لا يرد أمامه إلا في الغوص في بحار من اللذة تعمي بصره وبصيرته • ليعود بعدما طافيا على السطح ، محملا بتجربته شعرية بريئة تقرير ، ا رصف كامل لتجربته وملذاته ، ضاربا عرض الحائط بالأخلاق وقيمها ••• بالتقاليد وأعرافها • لذلك كان هذا النوع من الشعر الغزلي الحسي الذي يحكي تجربة الفرد الحسية • متأرجحا بين خصوم مدافعين عن المذهب الأخلاقي ، والذي يرى في الخير والحق والجمال صفات أساسية يجب بعثها في نفوس البشر بغية تحقيق المجتمع الفاضل ••• وبين مؤيدين معارضين لحبس الشاعر لعواطفه ضمن جدران من القيم والأخلاقيات ، ومعللين مع أصحاب مدرسة الأدب المكشوف بأن الهدف ، والغاية هي الفن أينما وجد ، سواء في التعبير عما يختلج في الذات ، أو في التصوير لا حساساتها وفي وصفه لما يسعدها في هذا العالم وما يؤلمها منه •

ومن هنا عرّف الغزل الحسي بأنه الغزل المادي الذي أساسه حب تمتزج به ميول شهوانية ، أو عواطف خالية من التحرج ، وأوصاف ربما لا يرضى عنها إلا أنصار الأدب المكشوف[2]

وبذلك نستطيع أن نحدد معقوماتهذا الغزل والتي هي — باختصار — على

---

١ — علم النفس التربوي : كالفن س — هول تعريب • د حام الكيال/ ٤٦

٢ — الأصول الفنية للأدب = عبد الحميد حسين / ٧٤ •

لمقومات الحب الوجداني أو العذري والتي ترتكز على :

١ — المتعة = لاسيما المتجسدة في جسد المرأة .. هذه المتعة غير المحدودة بحدود ... وغير الخاضعة للقوانين والاعراف ..

٢ — المادية المفرقة = وعندما يقف الغزل الجنسي على النقيض من الغزل الوجداني الذي غلف بغمامة حزينة سمت فوق الشهوات .

٣ — التعدد والتنقل = فهو لا يعترف بالحب الذي يقتصر على امرأة واحدة بعينها وانما يتنقل حيثما يجد اللذة .. ويبقى حيثما يستمتع بالمضمون الذاتي لأن اللذة هي الغاية والهدف أينما وجدت وحيثما حلّت .

٤ — السطحية = فهو لا يهتم بتحليل نفسية الشاعر ولا المرأة أو الغوص في اعماقهما ... ولا يحفل بتصوير آلامهما أو آمالهما ... بل يقتصر على تحقيق مبدأ اللذة للذات الدنيا في الشاعر ... والتي يقتصر عملها على " الاعداد للمقاومة المريحة لكميات التهيج والتوتر التي أطلقت في الكائن الحي بواسطة منبه داخلي أو خارجي (١)

نشأته ، حجمه ، شعراؤه = امتد الشعر الغزلي الجنسي على رقعة لا بأس بها من شعر الشعراء السود . ساعده على ذلك توفر أكثر من دافع كان حريًا أن يدفعهم في هذا الطريق . فكما كان أصلهم ونسبهم ، رقهم وعبوديتهم ... فقرهم وبؤسهم ... توترهم وقلقهم وراء ابتعاد كثير منهم عن سبيل الغزل الوجداني عموما ... كانت هذه الاسباب مجتمعة وراء من اتجهوه صوب الغزل الجنسي .

١ — فقد كان يرجع معظم هؤلاء الشعراء الى الأحباش .. ولا سيما زعيم مدرسة العبيد ن سحيم " . ومن المعروف عن الاحباش وهم في ذلك كسائر الشعوب الفطرية ، انهم سريعوا التعبير عن انفعالهم (٢) والحبشي بطبيعة يميل الى الغزل الجامح الذي يصل أحيانا الى المجون كونهم أمة تسيطر على الفطرة ولا يتحرجون في التعبير عن انفعالاتهم (٣).

وكان للعرب مع الحبشة صلات قبل الاسلام حين ساد هؤلاء على بلاد اليمن منذ القرن الاول ، وبعد الاسلام حين توجهت قوافل من المسلمين الاوائل بأمر من

---

١ — علم النفس الادبي ٪ ٢٢
٢ — بين الحبشة والعرب ١١٠ — ١٢٤ .
٣ — المصدر نفسه ١١٠ — ١٢٤

بهم المذيم الى بلاد الحبشة للاحتماء بهم من ظلم كفار قريش .

والعرب كانت تعرف فيهم طباعهم العبادة الى شدة الانفعال بالأمر الذى كان وراء رفض الخليفة عثمان شراء العبد سحيم ، حين كتب الى عبدالله ابن أبي ربيعة أنه قد ابتاعه له فقال : "لا حاجة لي به فاردده فانما قصارى أهل العبد الشاعر ان شبع أن يشبب بنسائهم ، وان جاع أن يهجوهم"[1]

٢ — ظروفهم الاجتماعية الناتجة عن كونهم طبقة عبيد مسحوقة تعاني الظلم بشتى أشكاله ، كما تعاني الفقر بكل صوره كانت وراء الدوافع النفسية غير المباشرة في اتجاه بعضهم سبيل الغزل الحسي . ففي أعماق كل انسان ذات دنيا هي موطن الغرائز تتحكم بتصرفاته وحياته ، ولا تحكم بالقوانين والمنطق المعقول ، كما أنها لا تعطي قيماً أدبية وفلسفية أخلاقية"[2] وهي " مشتقة من اعتبار واحد فقط هو ارضاء للحاجات الغريزية مع الأخذ بعين الاعتبار مبدأ اللذة"[3] .

ولكبح جماح هذه الغرائز لابدّ من تصعيدها لاستبدالها ... أو تحويلها الى "اتجاهات اجتماعية نافعة وطرق ثقافية خلاقة"[4] ولتصعيدها لابد من وجود ظروف مساعدة ومؤاتية سواء مما ينبع من داخل الانسان بما يرثه من طباع أو ما يأتي من خارج الذات من المحيط الخارجي . فهل توفرت هذه الظروف لشعراء هذه الطبقة ؟ .

لقد فتح الشعراء السود عيونهم على الحياة عبيدا ، وخلقوا وفي أيديهم قيود المجتمع ، وبالتالي عاشوا حياة العبيد ، رغم محاولة كثير منهم مواجهة المجتمع بقوى جبارة أراد من ورائها اثبات وجوده ، ولكنه مع ذلك بقي وجوده متذبذبا قلقا . ومع حياة العبودية هذه ، وما تجر من اذلال وتحطيم نفسي ، وفقر مادي ومعنوي ، كان بالأحرى لهؤلاء أن يعيشوا على حافة المجتمع ، كطبقة مرتبطة بغيرها من أجل خدمتها . وبالتالي لم يستطيعوا خلق نوع من الظروف المساعدة على انماء شخصياتهم ومن ثم اعلاء دوافعهم وتصعيد غرائزها والسمو بها .. هنا انطلق صوت الشاعر الحسي

---

١ — سمط اللآلىء البكري ٧٢١ . الشعر والشعراء ١/٣٦٦ البيان والتبين ١/٧١ خزانة الأدب ٢/١٠٢ — الأغاني ٢٢٠ — ٢٢٦ .

٣٢ — علم النفس التربوي /٢٧ .

٤ .. المصدر نفسه / ٩٥

فيها حُرَّم وفيها سُتر .

وبالرغم من أنّ هذه الأسباب مجتمعة يختلف تأثيرها بين انسان وآخر من هؤلاء الشعراء . الا أنّ الصفة العامة ، أو الطابع العام الذي نخص به هذا اللون من الغزل،هو هذه النفحة العارمة التي انطلقت على شكل صيحة مدوية من أعمق أعماق هذه الطبقة ، محملة بكل مشاعر النقمة والتشفي وتجريح الخصم والنيل من عرضه . وهل هناك من تجريح أكثر من هتك الأعراض ، في مجتمع كان المنذود فيه عن الشرف هو الجهاد الأكبر ، لاسيما أعراض هذه الفئة من الفتيان أو النساء من ذوات القوم والسادة ، الذين كانوا،أولا وأخيرا،مصدر الظلم الاجتماعي بالنسبة اليهم .

ومهما يكن من أمر .. ومهما تكن الرقعة التي امتدّ عليها هذا النوع من الغزل ،ومهما يكن عدد الشعراء الذين تنفسوا من خلاله ، محاولين كسر الطوق الملتف حول أعناقهم . فان أهميته تكمن في أنه تعبير عن السخط القابع في أعماقهم ، والحقد الذي يعتمل في قلوبهم ، بل أنه الرفض بكل مايحمل من معاني . رفض الواقع الأليم ، رفض الظلم ، رفض العبودية ، ومن ثم رفض كل مايبعدهم عن انسانيتهم . انهم بشر قبل كل شيء وهم يريدون أن يحققوا ذواتهم .. أن يعيشوا بين الناس لا عندهم .. في وسط المجتمع لا في زاوية معتمة من زواياه .

وانطلاقا من هذه الأهمية وهذه الدلالة للغزل الجنسي ، لابدّ من التوقف عند محطة رئيسية هي محطة سحيم عبد بني الحسحاس . ذلك أن هذا النوع من الغزل لم يكن فنا قائما بذاته عند غيره من شعراء طبقته ، بل جاء معاشرا بين فنون أخرى ومختلطا بها ...

وهذا اللون هو المميز لشعر سحيم في العراقة . والمرأة المعشوقة بالذات ، لأنه لم يكن للمرأة الأم أو الأخت الدور المميز أو المؤثر في حياته أو حياة غيره من طائفته .

خصائص الغزل الجنسي عند سحيم :

أ ـ الفحش في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة : وسحيم في هذا التصوير لايجد حرجا في وصف ماستر من أعضاء المرأة ، وان سار ما خفي منها ،

كما لا يوجد غضاضة في تصوير علاقته بها تصويرا علنيا تفوح منه رائحة اللذة وما قول سحيم التالي الا تأكيد على ذلك .

وبتنا وسادانا الى علجانة	وحقف تهاداه الرياح تهاديا
توسد بي كفا وتثني بمعصم	على وتحوي رجلها من ورائيا
وهبت لنا ريح الشمال بقرة	ولا ثوب الا بردها وردائيا
فما زال بردي طيبا من ثيابها	الى الحول حتى أنهج البرد باليا (١)

وكأن تعطشه الى اللذة لم يروه من خلال هذا التصوير للقائه بفتاته ، وكأن بها به نوعا لا حدود له للجنس الذي يعود اليه وهو في هذه المرة أكثر تعطشا ونوعا واشتهاء بل جموحا .

وأشهد عند الله أن قد رأيتها	وعشرين منها اصبعا من ورائيا
اقبلها للراهبين وأتقي	بها الريح والشفاف من عن شماليا (٢)

وهو في وصفه لاعضاء المرأة لا يقل جرأة وفحشا عن تصويره لعلاقته معها، ويسوق لنا أبو عبيدة معمر بن المثنى بيتين لسحيم الذي اتهمه مولاه بابنته فجلس له في موضع انارعين بسحيم تال فيه (٣) . فلما اضطجع تنفس الصعداء وقال :

ياذكرة مالك في الحاضر	تذكرها وأنت في الصادر
من كل بيضاء لها كعثب	مثل سنام البكرة المائر (٤)

٢ ـ تصفية الاثر : وهو يحرص رغم جرأته في التصوير على تصفية آثار لقائه مع محبوبته وليس ذلك خجلا أو خوفا .. بل خوفا من ردة فعل أهلها اذا ما عرفوا الحقيقة :

وماشية مشي القطاة اتبعتها	من الستر تخشى أهلها أن تكلما
فقالت له ياويح غيرك أنني	سمعت كلاما بينهم يقطر الدما
فنفض ثوبيه ونظر حوله	ولم يخش هذا الليل أن يتصرما
نعفي بآثار الثياب مبيتنا	ونلقط رضا من جمان تحطما (٥)

١ ـ ديوان سحيم / ١٦ ـ ٢٠ . العلجانة = شجرة تنبت بالرمل ـ الحقف = جبل من الرمل ومحتوى أي محني ـ تهاداه الرياح : تنقله من موضع الى موضع .
٢ ـ الديوان / ٢١ ٣ ـ الديوان / ٢٤ قال : من التولولة اي الاستراحة وقت الظهر
٤ ـ ديوان سحيم / ٢٤ الكعثب : الثدي ـ المائر : المضطرب .
٥ ـ المصدر نفسه / ٢٥ .

٣ ــ وصف المعشوقة وصاحباتها : كثيرا ماكان الشاعر العاشق يصف معشوقته وصاحباتها اللواتي يرافقنها ••• ولا بأس عند ذاك من التمتع برؤيتهن ، وحديثهن ، وبالتالي ، بحسن الذى يمحي ماسكن من الآم قلبه المجروح بسببهن :

تجمعن من شتى ثلاث وأربع	وواحدة حتى كملن ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يعدنني	نواهد لم يعرفن خلقا سوائيا
يعدن مريضا هن هيجن داءه	ألا انما بعض العوائد دائيا
ورامين رمي مثل ماقد رميتني	وأحسن على الكهات من المكاويا (١)

ثم يصف مداعبته لهن ومراودته اياهن فيقول :

تجاوزن مسواكي وأبقين مذهبا	من الصوغ في صغرى بنان شماليا
وقلن ألا يا العبن مالم يردنا	نعاس فانا قد أطلنا التنائيا
لعبن بدكداك خصيب جنابه	وألقين عن اعطافهن المراديا
وصار من حتى أرسل الحي داعيا	وحتى بدا الصبح الذى كان تاليا (٢)
وحتى استبان الفجر اشقر ساطعا	كأن على أعلاه سبا يمانيا

فاذا ماآن وقت المغيب وبدأ الرحيل ، واستعدت كل واحدة للوداع بعد أن قضين وطرهن :

فأدبرن يخفضن الشخوص كأنما	قتلن قتيلا أو أصبن الدواهيا (٣)
وأصبحن صرعى في البيوت كأنما	شربن مداما مايجبن المناديا

وهو بالطبع ليس اقل منهن نشوة بعد ذاك اللقاء :

فعزيت نفسي واجتنبت غوايتي	وقربت جرباني المشية ناجيا
مروحا اذا صام النهار كأنما	كسوت قتودى ناصع اللون ناويا (٤)

٤ ــ نشوة الذكريات : فاذا ماأسدل الستار على يوم اللقاء عند سحيم (٥) وغاب المشهد عن عينيه ، غرق في بحر من الذكريات •• وترك لخياله العنان في اعادة الصورة التي يريدها •• والمشهد الذى يحبه ويفضله ، منتشيا بتذوق اللذة ، لذة الذكرى • ولسحيم من هذا القبيل صور

---

١ ــ الديوان / ٢٣ ــ ٢٤ ــ والنواهد ج ناهد يقال : نهد ثدى المراة نهودا اذا اشرف وكعب
٢ ــ المصدر نفسه / ٢٦ ــ ٢٧ . الدكداك : رابية لينة لاتبلغ أن تكون كثيبا •
٣ ــ المصدر نفسه / ٢٨ صرعى : كأنهن سكارى المصونين •
٤ ــ المصدر نفسه / ٢٨ صام النهار = طال . والقتود : عيدان الرحل
٥ ــ سحيم عبد بني الحسحاس / ١٢٢ •

كثيرة تخدم الغيرين ، وتؤرن ما خبأ في أعماقه من عواطف ، وتصويره لجلسة مع لسوة من بني عمير بن يربوع تكشف عن معدنه ، وتظهره على حقيقته • وقد كان من شأن هاته النسوة " اذا جلسوا للغزل أن يتعابثوا بشق الثياب وشدة المعالجة على ابداء المحاسن "(١) وهو حين يتذكر هذه الجلسة تجمع به العواطف وكأنه في فورة اللقاء :

كأنَّ الصبيبات يوم لقينا ... ظباء حنت اعناقها في المكانس

وهُنَّ بنات القوم إن يشعروا بنا ... يكن في بنات القوم احدى الدهاوس

فكم قد شققنا من رداء مُنيَّر ... ومن بُرقُع عن طَفْلَةٍ غير عابس

اذا شُقَّ برد شق بالبرد برقع ... دواليك حتى كلنا غير لابس (٢)

وثورة اللذة العارمة المحتدمة في الداخل ، والتي لم يستطع كتمانها في اعماقه ، لم يكن ليطيق تحملها فهي اقوى من أن تحتمل •• وهو ان حاول جاهدا الصمت أو الكبت خانته ارادته اذا ما مرت لحظة مناسبة ، وانفجر كالبركان الثائر يلفظ ما في جوفه ، ثم لا يلبث ان يهدأ شيئا فشيئا مطمئنا بالراحة النفسية التي غمرت كيانه وكأنه تخلص من حمل ثقيل كان مفروضا عليه :

وما في جوفه ليس اكثر من عواطف مكبوتة ، يخالطها حقد على كل شيء طالما أن كرامته قد امتهنت كانسان ، واستنكرت عواطفه مهما يكن نوعها وسُجن بين أربعة جدران من الرق والذل والفقر والعبودية •• وهو لذلك يجد في هتك الأعراض لذة لا تفوقها لذة أخرى •• كما يجد فيه سبيلا الى الانتقام ان لم يكن بالفعل فبالشعر.. ان لم يكن بالحقيقة فبالخيال :

يا ربَّ شجو لك في الحاضر ... تذكرها وانت في الصادر

من كل حمراء جماليَّة ... طيبة القادم والآخر (٣)

ولا يقتصر خياله على تذكر لقاءات الامس •• بل يمتد به الى المستقبل ليتمنى أن يكون راعيا لجمال ابن ايمن ، ولكنها أمنية مشروطة بأن يحاط بمجموعة من المساواة يستطيع أن يعرب لهن عن عواطفه دون حرج ويحرر غريزته دون خيانة :

فيا ليتني من غير بلوى تصيبني ... أكونَ لأجمال ابن ايمنَ راعيا

وفي الشرط اني لا اباع واتّهم ... يتولون غُرْقٌ يا عسيف العذاريا

وأسيدٌ كسلي بزّها القوم ثوبها ... الى الصدر والمملوك يلقى الملاقيا

فلما أبت لا تستقلّ ضَمّتها ... ترى الحُسْنَ منها والملاحة باديا (٤)

---

(١) الديوان /١٥

(٢) المصدر نفسه ١٥ـ١٦ الدهارس = الدواهي

( ) المصدر نفسه ٥٦/٥٧ ـ الغبوق = شرب العشي • العسيف = الاجير • بزها القوم = غلبوها على عقلها فسقط ثوبها

٥ ـ التحدي والعناد : (١) وفي هذا اللون تظهر روح العبد الانتقامية، فيشعر المرء بـه وكأنه يتحدث باسم العبيد جميعهم •• بل انه يمثل صرخة الالم المدوية في وجه مجتمع السادة • هذه الصرخة التي تنطلق بالتشفي مهما تكن النهاية ، ومهما تحمل بين طياتها من العذاب أو حتى الموت •• وهذا ما يظهر واضحا في قوله التالي حين غدر به قومه وأرادوا قتله ••فضحكت منه امرأة كان بينه وبينها هوى ••

فأن تضحكي مني فيا رب ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفرّج (٢)

موت معنوي في الحياة ، يردفه موت جسدي ، فلماذا لا يتحدى القوم بسلاح فتاك هو التشهير ، ولماذا لا يتحدى بكل ما اوتي من قوة ، ويزيد من هتك الاعراض، طالما ان النهاية لن تتغير •• والموت قتلا هو نهاية المطاف :

ان تقتلوني فقد اسخنت أعينكم ... وقد أتيت حراما ما تظنونا

وقد ضممت الى الاحشاء جارية ... عذب مقبلها مما تصونونا (٣)

وكلما امعنوا في التعذيب والقهر ، كلما زاد في عناده وتحديه •• أكثر صلابة وأكثر اندفاعا وثورة وغضبا كالاعصار الجارف الذي يجرف بطريقه ما يعترضه، حتى وهو في اللحظات الاخيرة •• وسيف الموت مسلط فوق رقبته •• كل هذا لا يزيده الا تحديا :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم ... ان الحياة من الممات قريب

فلقد تحدّر من جبين فتاتكم ... عرقٌ على ظهر الفراش وطيب (٤)

وكما رفع عنترة راية الفرسان، وحاول ان يفسح ـ بسيفه ـ مكانا تحت الشمس لهؤلاء السود •• وكما حاول ابراهيم المهدي بنسبه الملكي ان يسجل كلمة السود في سجل التاريخ ، ويقتحم عتبة البلاط عنوة ليصل الى سدة الخلافة •• وكما أراد أبو دلامة ـ " زعيم المتظرفين " وظريف الندماء " أن يعرف المجتمع والبلاط من خلال البسمة التي تخفي وراءها مزيدا من السخرية والتهكم •• كما حاول كل هؤلاء أن يفسحوا ـ رغما عن الجميع ـ مكانا لائقا لاخوتهم في النسب •• حاول سحيم ـ عبد بني الحسحاس أن يسمع صوتهم للعالم ، ويدافع باسمهم عن حقوقهم وعن انسانيتهم

---

(١) سحيم ، عبد بني الحسحاس ٪ ١٢٥ .

(٢) الديوان ٪ ٥٦ ـ مخطوط المغتالين والاشراف ٪ ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ٪ ٥٩ .

(٤) مخطوط المغتالين ٪ ٩٠ ... الديوان ٪ ٦٠

وحين لم يـر من الظروف مـا يساعده على تحقيق فكرته وحلمه بالطرق السليمـة ، لجأ الى هذا الاسلوب ، اسلوب التجريح ، تجريح الخصم بما يحتـز به ، ويحافـظ ويغار عليه • واسلوب الانتقام والتحدى حين لا يجدى الكلام الطيـب ، ولا المنطق السليم • وليس مهما حين ذاك أن يدفع حياتـه ثمناً لهـذا الاسلوب • المهم أنه دافع عن طبقته ، وحاول ـ رغم كل شيء ـ اثبات وجودها وفق طريقتـه الخاصة •

لقد استطاع سحيم أن يغطي بشعره بقعة كبيرة من المساحـة الواسعـة التي كان يحتلها هذا اللون الغزلـي ، منذ عـهد امرىء القيس من قبل ، حتى عمر بن ابي ربيعة من بعده كما استطاع أن يبرز هذا الفن في أقصى صوره المكشوفـة فيغطـي ما تناثـر من أبيات عند شعراء طبقتـه في هذا اللون ، ويرتقي الـى الصفوف الاولى ، ويؤكد النظرة الحسية ، في أكثر جوانبهـا ـ الى المـرأة •• هذه النظرة التي لا ترى من المرأة سوى جسـدها ، ومن جسدهـا سوى اللـذة الا أنها لم تكن وقفا على سحيم وحـده ، أو على أصحاب مدرسة الأدب المكشوف فقط ، بـل كانت تمثل قاسما مشتركا بين الشعراء الغزليين منذ عهـد الجاهليـة ، حين كـان يقف الشاعر الجاهلي على الأطلال فيبكيها ويبكي ذكرياتـه من خلالهـا ، متسلـلا من خلال ذلك كلـه الى نظـرة نافـذة الى محاسن الحبيبـة فيصفها عضوا عضـوا (١) وكثيرا مـا يقف عند حدود هذا الجسد الخارجي دون محاولة استكشاف ما فـي الداخـل ، وما يعتمل فيه من مشاعـر •

الا أن هذا الاتفاق في النظرة الحسية الى المرأة بين اصحاب المدرستيـن من الغزليين ، لا يلغي الفرق الكبير بينهما ، ان لم يكن في المبدأ ففي الغاية •• فبينما يصـف عنتـرة أو نصيب أو سديف جسـد المرأة لابراز ما فيـه من جمـال وتناسق وانسجام ، فيحددون مقاييسهم في عالم الجمـال ، ويعبّـرون عن نظـر ثاقب ، وذوق رفيع ، في اختيار الاجمل ، والأكثر جاذبية ، ويخرجـون بالتالي صـورة فنية تثير منابع الابـداع والالهام ، نرى في الطـرف الآخر سحيما يصف هذا الجسـد ليوقظ ما نـام من شهوة ، ويورث ما خمد من لـذة ، ويشعل ما انطفىء من جذوة الجنس •

ثم ان يتفق الطرفـان في المبدأ ، فهذا أمر قد لا يثير جدلا أو اعتراضـا اذا ما لمسنا أن حرص الشعراء على وصف محاسن المرأة هو من قبيل تذوق الجمـال بشتى صوره ، في الطبيعة ، وفي الكائنات الحية ، فكيف اذا كان هذا الجمال جسـدا

---

(١) راجع البحث الصفحات من ١٢١ ـ ١٣٦

وروحا ينبضان بالحياة والحيوية ؟ •• ولكن أن يختلفان في الغاية - لا سيما وأنهم كان يعيشون ظروفا متشابهة ، وآلاما وآمالا مشاركة ، ويحملون متاعب كانت حصيلة ارث مشترك - فهذا أمر يدعو الى التساؤل والاستفسار •• وهذا التساؤل يقودنا الى البحث عن طبيعة هذا الاختلاف ، او طبيعة تلك الفوارق ، هذا اذا ما وضعنا سحيما في طرف ، وغالبية الشعراء السود في الطرف الآخر •• كما أن طبيعة البحث تقود الى افتراض عاملين اثنين يحملان بين طياتهما تفسيرا أو بعض التفسير لوجود هذه الفوارق •

العامل الاول : يتعلق بالطبيعة البشرية ، والاختلاف الحاصل في الطباع بين ابناء الجنس الواحد •• هذا الاختلاف الذى يخضع لجملة من الظروف والعوامل الوراثية والمكتسبة ، والتي تتحكم في استجابة فرد لأمر معين وعدم استجابة آخر له • والتي تحدد - وفيما بعد - ملامح كل شخصية فتميزها عن غيرها أو تدنيها •• ومن خلال شخصية سحيم، تعرفنا على شخصية متميزة بين الشعراء السود جميعهم ، شخصية لم تستطع تقبل الامر الواقع كما تقبله آخرون ، ولم ينظر الى الحياة من منظارهم ، وهي وان عرفت حقيقة هذه الحياة المتنظرة الا أنها لم تستطع الاستكانة اليها ، وقبولها على ما فيها من اهانة واستخفاف ، بل حاولت الاعتراض فاعترضت باللسان ، وجربت الثورة فثارت كبركان هادر اقتلع بانفاعه ما اعترضه ، بغض النظر عن قيمته الاخلاقية ، لان من طبيعته الحياة البشرية أن "تندو وتتطور وترقى ، محققة ما لديها من امكانيات تلتمس الظهور •••• ولكن قد يحدث في بعض الاحيان أن يلتقي هذا النزوع البشرى نحو النمو والترقي بعض القوى الخارجية التي تحول دون انطلاقه ، وعندئذ سرعان ما تستحيل طاقة البناء المعاقة الى طاقة حيوية هدامة • " (١) وهذا ما كان عند سحيم عندما اعترض المجتمع على انسانيته ، فلم تتقبل طبيعة تكوينه ما تقبله غيره فكان ما كان من نزوع نحو التحدى ••

العامل الثاني : زماني ، يشير الى الفترة الزمنية التي عاشها كل من سحيم والشعراء من السود •• وتأثر كل من الطرفين بأحداث تلك الفترات • فسحيم - كما حدثتنا الروايات - شاعر مخضرم عاش فترة لا بأس بها في الجاهلية ، استوت شاعريته خلالها وبرزت ، كما ادرك الاسلام •• والحياة الجاهلية بقيمها

---

(١) مشكلات فلسفية / مشكلة الانسان د • زكريا ابراهيم / ٢٣٣

وتقاليدها وأعرافها تختلف اختلافا بينا عما جاء به الاسلام، ولكنها — ومما لا شك فيه — أنها أثرت في النفوس تأثيرا كبيرا بحيث لم يستطع مجيء هذا الدين الجديد رغم علو منزلة مبادئه — محو آثار الجاهلية بالسرعة المتوخاة ومن هنا كان انطلاق لسان الحطيئة فيما حرم رغم التهديدات التي اودت بحياته •• ولكن حالة سحيم هذه لا تستطيع تعميمها بحيث وجد نا من الشعراء السود من تشرب التعاليم الجديدة ، واستطاع التخلص من آثار الجاهلية كما فعل عبدة بن الطبيب حين ترك لصوصية الجاهلية ، وكما فعل خفاف حيث اشترك الاثنان في الفتوحات الاسلامية وكان لهما شأن كبير في حمل راية الاسلام ••

وقد نجد في هذا العامل عودة الى العامل الاول ، حين لم يستطع التخلي عن جاهليته — رغم ادراكه الاسلام — فأطلق لسانه فيما حرمه •• وقصيدته اليائية أكبر دليل على ذلك •• بينما استطاع آخرون التخلص من آثارها مبنى ومعنى •

الغــزل الصناعــي عند الشعــراء السود :

كما كان للغزل الوجداني العذرى مدرسة لها قوانينها التي تسير وفقها •• ولها اتباعها الذين يلتزمون بهذه القوانين قولا وفعلا • وكما كان للغــزل الجنسي أتبــاع ومريدون نذروا أنفسهم للمتعة واللذة ، كان للغزل الصناعي تلاميذ برعوا في هذا الفن وان لم يبرعوا في ميدان الحب ، وصفوا المرأة وصفا جميلا وصرحوا بعواطفهم نحوها، ولكن لم يكن لهم تجربة فعلية في هذا الميدان •• كل ذلك بدا واضحا من خلال مقدمــات غزلية كان ـــ في الغالب ـــ يفتتح الشاعر بها قصائده مهمــا اختلفت وتنوعت •

قيل في تعريف هذه المدرسة أنها " التي لم تؤت حظ الحب العميق ، ولكنهـــا قلدت أرباب المدرستين ، وأخذت منهما فنشأ غزل يصــدر من الشفتين لا عن القلب"(١) كما قيل عن الغزل الصناعي : " هو الذى لم تبعثه عاطفة حب عذرى أو حسي • " (٢) ويفهم من هذين التعريفين أن قانون هذه المدرسة يهتم بالشكل أكثر من اهتمامــــه بالمضمون ، ويهتم بالكلمات أكثر من اهتمامه بالعواطف •• وبالتالي كان رواد هــــذه المدرسة ممن لم يعرفوا الحب العميق وانما سمعوا عنه ، أو مروا به مرورا عابرا وشاهدوه بعيونهم لا بقلوبهم وحاولوا تقليد ابطاله بألسنتهم لا بأفعالهم فلم يكتووا بنــاره ،، ولم يتذوقوا حلاوة الوصل ومرارة الفراق والهجران •• وباختصار ان هؤلاء لم يعيشوا تجربـــة الحب بحلوها ومرها حقيقته وانما حاولوا أن يرسموا بخيالهم هذه التجربة ، فأجادوا التقليد بلا معنى ، وبالتالي أعطونا صورا فنية جميلة كانت تتصدر القصائد المختلفة ولكـــن ينقصها حرارة العاطفة وعمقها ••

هذه هي مدرسة الغزل الصناعي عموما •• فما هو حظ الشعراء السود منها :

لقد اقتفى عدد لا بأس به من هؤلاء آثار هذه المدرسة •• والتزموا بقوانينها لكنهم استطاعوا من خلال هذا الالتزام أن يعرضوا مشكلتهم الاصلية ، وأن يشيروا ـــ ولو من طرف خفيـــ الى ألوان القهر الذى لاقوه والعذاب الذى ذاقوه في تجربتهم •• حتى تجربتهــــم الخيالية التي لم يمارسوه ممارسة وانما صنعوها صنعة [illegible] حاول نصيب الأصغر أن يبدع طالعا بمقدمة غزلية بث فيها همومه التي هي في الوقت نفسه هموم طبقته • حتى أننـــا نشعر من خلال هذه المقدمة الغزلية بعضا من تجربته العامة في الحياة ، فأدتهـــا

---

(١) الغزل منذ نشأته / ٢٨

(٢) الغزل في العصر الجاهلي / ٢٥٧

بشيء من الحاطفة اكسبتها صدقا لم يتوفر عند غيرهم من غير طبقتهم، والسبب وراء كل ذلك هو واحد دائما ، هذا السواد الذى يشيعهم •• وهذا النسب الذى لحقهم من امهاتهم السوداوات •• يضيف اليه نصيب الاصفر هذا الشعر المفلفل الاشهب الذى يغطي هامته •• وهذا كاف في قاموس الحب بشكل خاص — لان يحرم الشاعر الشعور بلذة الحب ، والعيش كما يعيش الآخرون الذين منحهم المجتمع كل شيء •• فاذا ما مدح الفضل بن يحيى بن خالد استهل مدحه بمقدمة غزلية قال فيها :

طرقتك مية والمزار شطيب ، وتشيك الهجران وهي قريب
لله مية خلة لو انها تجزى الوداد بودنا وتثيب

ثم يتابع حديثه واصفا لمحاسن مية ، واقفا على اطلالها التي امستقفرا يبابا بعد ان كانت في الامس القريب خصيبة ألوفة ، وكان غصن الشباب اذ ذاك رطيبا نديا ، والقلب طروبا •• ولكن نبا لمية ، لقد استكثرت على الشاعر هذا الحب ، وحجتها في ذلك هذا اللون الاسود ، وهذا الشعر المفلفل المبيض ، وهذا قمين بأن يبعد الشاعر وأمثاله عن معاناة تجربة الحب، وكافية لان تجرده من احساساته كانسان له الحق في ان يعيش كما يحلو له أو كما يعيش غيره ، وأن يحب وفق مزاجه وهواه :

فلقد عهدت بك الحلال بغبطة والدهر غض والجناب خصيب
اذ للشباب بطليّ من ورق الصبا ظل واذ غصن الشباب رطيب
وتقول مية ما لمثلك والصبا واللون اسود حالك غربيب
شاب الغراب وما أراك تشيب وطلا بك البيض الحسان هجيب
اعلاقة أسبابهن وانما أفنان رأسك فلفل وزبيب (١)

شعور حزين ذاك الذى انتاب نصيب وهو يحكي قصته مع مية ، وهو بعد في طريقه الى مدح احد اكابر القوم •• وهو الشعور نفسه الذى صاحب رفاقه الشعراء حتى وهم يقدمون آيات الولاء والطاعة لسادتهم •• هو الشعور ذاته الذى سيطر على نصيب الاصغر في مقدماته الغزلية التي سبقت امادیحه في الخلفاء والامراء •

لقد وجب عليه أن يمدح أولي الامر منهم ، لكنه في كل مرة يمدحهم فيها يسبق غزله أماديحه ، وفي كل مرة يشع من هذه المقدمات وهج الالم ، ونشيع منه مرارة الواقع رغم عطف الخليفة الممدوح ، ورغم عطايا القصر ، وفي مدحه لهارون الرشيد

(١) الاغاني ٢٢/ ٤١٤ — ٤١٥

دليل على ذلك :

خليليّ اني ما يزال يَشوقني | قَطينُ الحِمَى والظاعِنُ المُتَحَمِّلُ
فأقسمت لا أنسى ليالي منعج | ولا مأسل إذْ منزل الحَيِّ مأسِلُ
أمِنْ أجل آيات ورسم كأنه | بقيّة وحي أو رداء مُسَلْسَلُ
جرى الدمعُ من عينيك حتى كأنه | تحدُّرُ دُرٍّ أو جُمان مُفصَّلُ ؟ (١)

وهو ان حاول نسيان الواقع قليلا ، واطاعة نداء القلب،جاء من يذكره ويطمحه من التمادي،لانه من العار على مثله ان يحب ، ومن العقل والحكمة أن يبتعد عن المرأة ، والمرأة البيضاء بالذات .. اما عواطفه وقلبه وممارسة انسانيته فهذه امور يجب ألا تكون في الحسبان لانها فوق تصور المجتمع ..

فيا أيها الزنجي مالك والصبا | افق عن طلاب البيض ان كنت تعقل
فمثلك من احبوشة الزنج قطعت | وسائل اسباب بها يتوسل

ثم يدخل في لب الموضوع ، فيمدح ويقول :

قصدنا امير المؤمنين ودونه | مهامه موماة من الارض مجهل

والمدرسة الصناعية تضم الى من سبق شعراء وجدوا في المقدمات الغزلية طريقا سهلة ، ووسيلة للولوج في باب المدح ومن ثم التقرب عن هذا السبيل الى السلطة تقربا ليس غايته المنادمة والمسامرة . فهم ليسوا ممن يتقن هذا الفن . وانما طلبا للعيش حين تقصر ايديهم عن الوصول او طمعا في العتق من رق العبودية حين لا يجدون الى هذا التحرر سبيلا الا ه ... وخير من يمثلهم في هذا المجال زيد بن الجون الذي اختط لنفسه طريق الفكاهة والتظرف للوصول الى الغاية .. واذا ما خطا أولى خطوات هذا الطريق وجد في الغزل مناسبة لا بأس بها لاظهار عواطفه ، ومن ثم الوصول الى الغرض المطلوب والغاية المنشودة . وهو حين يدخل على العباس مادحا ينشده قائلا :

قف بالديار وايّ الدهر لم تقف | على المنازل بين الظهر والنجف
وما وقوفك في اطلال منزلة | لولا الذي استدرجت من قلبك الكلف

---

(١) الاغاني ٢٢/٤٠٠

ان كنتا صحت مشغوفا بساكنها　　فلا وربك لا تشفيك من شغف

دعذا وقل في الذى فاز من مضر　　بالمكرمات وغرٌ غير مقترف

هذى رسالة شيخ من بني اسد　　يهدى السلام الى العباس في الصحف (١)

ثم يذهب الى وصف الجارية التي خطت رسالته الى العباس، ويصف بالتالي ردود فعل الجمال الذى نظروه في هذه الجارية، وذلك في حوار ممتع اعتمد اسلوب الحكاية السهل البسيط .

واذا ما دخل على المنصور مادحا ، تقمص دور المحب الولهان الذى فعل فيه البين ما فعل، فذهب بعقله من هول الصدمة ، ورقّ فؤاده وصدعه :

انّ الخليط اجدوا البين فانتجعوا　　وزودوكَ خبالاً بئسَ ما صنعوا

والله يعلم ان كادت لبينهم　　يوم الفراق حصاة القلب تنصدع (٢)

والهدف مشترك بين ابي دلامة والعكوك حين يكون المدح هو السبيل، ولقمة العيش هي الغاية لان عليا كثيرا ما يبدأ امداحه متغزلا " وكأنه قد برح به الحب والغرام فلم يكن فيه صادقا، وانما هو وسيلة يتوسل بها لقضاء وطر .. " فلم يكن يعنيه حب او يشغله حبيب بقدر ما كانت تعنيه كأس خمرة يذهب بها الهم وينفي طوارق الاحزان . " (٣) . ومديحه لحميد الطوسي من هذا القبيل، مسبوق بوصف لحالته التي يريد من خلالها ان يوهمنا بأنه خاض تجربة حب حقيقية كانت نتيجتها تشتت شمل الحبيبين بعد ان نعق غراب البين وهدد بالفرقة. فيقول ممهدا ومخاطبا المرأة الحبيبة :

أبيت فما تسعف　　وجرت فما تنصف

وتحلف لي بالهوى　　وتنكث ما تحلف

حبالك مخلفة　　وودك مستطرف

وتهجرني واثقا　　ثقتي فأنا المدنف

سأعطف من حيث لا　　تلين ولا تعطف

وأسكت لا أشتكي　　وأعرف ما تعرف

تجاوزت اقصى الدنى　　فخلقك لا يوصف (٤)

---

(١) الاغاني ١٠ / ٢٧٨

(٢) نهاية الارب ٤ / ٣٦ - ٤٧

(٣) ديوان علي / ٢٣

(٤) شعر العكوك / ٨٧ - الديوان / ٥٩

ويتبع ابو دلامة الحديث واصفا لمحاسن محبوبته التي جسدها الخيال ليشكل من هذا الوصف جسرا يعبر به الى الموضوع الاصلي الذي هو المدح ٠٠ ولا تخلو اماديحه لابي دلف العجلي من الفواتح الغزلية التي يتدارق فيها الى الحديث عن الشيب والشباب، فيقول في احدها :

زاد وردالغي عن صدره ٠ وارعوى اللهو في وطره

وأبت الاوتار لمه ضحكات الشيب في شعره

ندمي انّ الشباب مضى لم أبلغه مدى أشره

وانقضت اياه سلما لم اهج حربا على غيره

الى ان يصل الى وصف المحاسن فيقول :

ودم اهدرت من رشا لم يرد عقلا على صدره

بات يدني لي مقاتله ويفديني على نفره (١)

ورغم ان تجربة الحب المفتعلة التي يتمسك بها شعراء الدرسة الصناعية فقيرة في مدلولاتها العاطفية ، الا أن أبيات الرشيد الغساني التي افتتح بها قصيدة هجاءها لأخيه المهذب تكشف عن فيض في العواطف رغم ضعف تجربة الحب عنده ٠٠ والامر مختلف هنا ٠٠ فهو لا يبتغي جاها من خليفة أو أعطية من أمير ، وانما مساعدة من اخ هو المهذب ٠٠ وهي ان دلت على شيء فانما تدل على هذه الاحزان التي حلت على صدره بعد ان فاته الزمن وحط من قدره وراح محكوما بعد ان كان حاكما ، يبدأ الرشيد غزله بالوقوف على الاطلال وفقا تقليديا لمن سبقه في هذا المجال سائلا أياها — كعادتهم — عن مصير من كانوا بالامس القريب ملء العين والبصر ، معددا الاذكية ومتحدثا عن الهجر وفعله في نفسه قائلا :

احبابنا ماكان اعظم هجركم عندي ولكن التفرق أعظم

غبتم، فلا والله ما طرق الكرى جفني ولكن سحّ بعدكم الدم

وزعمتم اني صبور بعدكم هيهات لا لقيتم ما لقيتم

واذا سئلت بمن اهيم صبابة قلت : الذين هم الذين هم هم

النازلين بمهجتي وبمقلتي وسط السويداء والسواد الاكرم

لا ذنب لي في البعد اعرفه سوى اني حفظت العهد ، لما خنتم

---

(١) شعر الحكوك ٦٦ — الديوان ٤٦

فأقمت حين ظعنتم وعدلت عـ ـا جرتم ، وسهدت لما نمتـــم

ويطول نيه بعد حديثه عن الهجر ، وعن ذلك الاحبة الذى تسهبوا فيه ، حين كان هو دائم الكرم معهم ، ذاكرا لايامهم ، حافظا لعهودهم ، لينتهي بعد ذلك الى الحديث عن الحالة التي وصل اليها ، والضنك الذى لقيه :

ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة ‌‌ ‌ ‌ قلَّ الصديق بها وقلَّ الدرهمُ

في معشر خلقوا شخوصَ بهائم ‌ ‌ ‌ ‌ يصدى بها فكرُ اللبيب ويبهمُ (١)

وهكذا .. نجد اشعار السود من رواد هذه المدرسة تتراوح بين مقدمات غزلية يبث فيها الشاعر همومه التي كانت القاسم المشترك الأعظم الذي يتناوبهم جميعـــا ، وبين مقدمات غزليــة تمهد لمدح وتعظيم لأصحاب السلطة طلبا للقمة العيـــش أو رغبة في العتـــق .

---

(١) معجم الادباء ٤/٥٧ — ٥٨

الفصل الثاني
الشعراء السود بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية

اذا ما حاولنا استدراك كنه التجربة لغة فماذا نجد ؟..

لسان العرب المحيط يجيبنا على تساؤلنا فيقول : جَرَّبَ الرجل تجربة اى اختبره ... ورجل مجرَّب : قد بلي ما عنده ، ورجل مجرِّب قد عرف الامور وجربها ، والمجرَّب مثل المضرَّس والمجرَّس الذى قد جرسته الامور وأحكمته .(١)

والحياة بما فيها ومن فيها تفسر لنا ما عدده لسان العرب بكلمات .. وعلاقة الانسان بالحياة تكمل هذا التفسير . فأن تكون للمرء تجربة يجب ان يعيش مع نفسه ووسط مجتمعه بأن يكوّن علاقات مع ذاته ومع مجتمعه .. علاقات متبادلة .. علاقة أخذ وعطاء . وتتعدد هذه العلاقات كما وكيفا . تقاس تجربته . وبتنوعها ومدى ايجابيتها يقاس نجاحها . فعلاقة الحب بما ترمي اليه من عطاء غير محدود ، ومساندة ومساعدة غير مشروطة .. وتعاطف وتكاتف بغير غاية تحطي دفعا لصاحبها فى خضم الحياة ، تعطيه الثقة بالنفس تمنحه الامن والامان .

وهكذا هو المخلوق البشرى منذ اللحظة الاولى لولادته .. منذ مغادرته مكان تكوينه الاولى الى العالم الخارجي ، يبدأ احتكاكه بهذا العالم وتعامله معه الى ان يقطع رحلة فاما ان ينجح فى هذا التعامل واما ان يفشل . وللحالتين تأثير مباشر فى حياته وفي اخلاقه . الا ان هذا التعامل لا يأتي من العدم وانما هو حصيلة موروثات الانسان الذاتية اضافة الى موروثاته من العالم الخارجي من محيطه . اما مدى تأثير كل من هذين العاملين فى طبيعة الانسان فهذا نتركه لعلماء النفس الذين اختلفوا فى تحديد مدى تأثير كل منهما ـــــــــ الوراثة والبيئة فى الانسان ، وأيهما الاهم . وانما الذي أكدوه انه اضافة لحصيلة الانسان الذاتية من موروثاته ، هناك الجماعة او المجتمع ، او على حد تعبيرهم " الغير " التى تقوم بمهمة القاعدة الديناميكية لتوازن الشخصية" (٢) .

---

١ ـ لسان العرب المحيط : مادة جرَّب / ٤٢٩ ـ ٤٣٠

٢ ـ الاسس النفسية للابداع الفني : مصطفى سويف / ١٢٥

فملاحظة السلوك الشخصي لوافد غريب على جماعة ، ومقارنة بسلوكه بعد أن يندمج بهذه الجماعة ، فان سلوكه الاول يكشف عن نوع من القلق وعدم الاستقرار ، ثم المحاولة للاستقرار • وكلما ازداد اندماجه في الجماعة واقترب من " الضمن " شاعت نسبة الاتزان في افعاله ••" ومن ثم فان اى خلل يصيب هذه القاعدة يصيب توازن الشخصية بخلل عميق •• عندئذ يندفع الشخص في محاولات للتغلب على الصدع الذي أحدث هذا الاختلال "(١) وتتسم محاولته بالعنف او الهدوء تبعا لعمق الصدع ، وبالتالي يكون نشاطه في شكل اعصار او رياح خفيفة •• يتبعه تحطيم للحواجز او محاولة للتغيير •

وهذا ما حدث فعلا للشعراء السود •• فمنذ ان فتح الانسان الاسود عينيه على محيطه الخارجي ، ووُجِدَت حريته ، وقيدت يداه • ولما كان الشاعر منهما باحساسه المرهف وانفعالاته المتعددة ، يحمل آلام وآمال طبقته ، كان لابدَّ له من ان يحمل مشكلته ، ويحاول ان يخترق بها ذاته الى المجتمع ، وان يجد لها حلا ولم يكن الطريق سهلا أو ممهّدا بالنسبة اليه من هنا بدأت رحلة حياته بما تحمله من آلام وآهات اكثر مما تحمله من سعادة وبسمات • فالعالم الخارجي الذي خرج اليه لم يعامله معاملة ودية ولم يبادله معاملة الاخ لاخيه الانسان • على العكس من ذلك ، لقد ضيق عليه الخناق حتى حصره في زاوية ضيقة من عالمه ومنعه من تجاوزها •• بل حذّره من ان تسول له نفسه محاولة اجتيازها •• انه عبد •• وليس من حق العبد مباراة السادة •

لقد وفد الانسان الاسود على مجتمع كانت القيم الاساسية لديه تلتقي عند نقطتين متناقضتين " فقد كانت الصفات المحمودة عند العرب تلتقي جميعا في صفة واحدة هي الكرم • ويعنون به النسب الحر حين يصفون الرجل بانه كريم الاحساب • وكانت الصفات المذمومة عندهم تلتقي جميعا في صفة واحدة هي اللؤم ويعنون به النسب المدخول او النسب الوضيع "(٢) • وذخيرة هذا الانسان الوافد من هذه الصفات الايجابية تكاد تكون معدومة في الحدود المتعارف عليها آنذاك •• وهي أن وجدت من احد طرفي الوالدين فهي لا تغني ولا تسمن من جوع •• وهي في الوقت نفسه غير معترف بها لذلك كانت المشكلة الاساسية للشعراء السود تكمن في هذه النقطة • وهي التي كانت وراء تعاسة أكثرهم فكانت وراء تعب عنترة البائس رغم فضل ما قدمه للقبيلة حتى انّ كلمة ابن السوداء كانت تلاحقه حتى وهو عائد من أبهر انتصاراته" •

---

١ — الاسس النفسية للابداع الفني / د • مصطفى سويف / ١٢٥

٢ — بين الكتب والناس : محمود العقاد / ١٦٨ — ١٦٩ •

وكانت وراء تجربة تسيب في العهد لن نفسه . ثم وراء سقوط خلافة ابن شكلة .. ووراء وأد طموحات وآمال أحمد الرشيد السياسية . حتى انها كانت وراء ثورة سهم النفسية التي اطاحت بقيم المجتمع الاخلاقية كلها ..

ولقد فرضت الحياة عليهم فرضا .. فعاشوها مرغمين ، وحددت لهم أماكن اقامتهم فالتزموا بها على مضض .. وانكفؤوا على ذواتهم ، وحين ضيق عليهم الخناق حاولوا الدفاع عن النفس بتحصين مواقعهم والقيام بهجوم معاكس، وان اختلفت وجهة هذا الهجوم عند كل منهم .. وقست عليهم الحياة في حين لم يقترفوا ذنبا يعاقبون عليه .. وان تلبّسهم ذنب لا حيلة لهم فيه .. وظلمهم مجتمعهم واهدر كرامتهم واصابهم بسهامه الجارحة فأذلهم وحاول تجريدهم من عواطفهم .. من انسانيتهم ولم ير فيهم أكثر من عبيد رهن الاشارة .. ومن رقيق تحت الطلب .

ورغم ان حدة هذا الشعور المضاد قد هدأت بشكل ما بعد قدوم الاسلام بتعاليمه التي تقضي بالمساواة بين البشر بجميع اجناسهم والوانهم والمفاضلة بينهم على اساس من التقوى والالتزام بقواعد الدين .. الا ان ردة الفعل عند شعرائهم كانت قوية ، ومتنوعة الاشكال والالوان ، ولا سيما انهم كانوا الصوت الناطق باسم جماعتهم .. والعقل المفكر لهم ولكن هذا لا ينفي الطابع الذاتي الذي طبعت بها اشعارهم ، والتي كانت رغم ذاتية اكثرها تحمل شعور كل اسود ، وتنطق باسمه ، وتحمل ازمته الخاصة لتعبر عما في داخله من ألم . لقد عبر هؤلاء عن قضاياهم العامة من خلال التعبير عن قضاياهم الخاصة التي شغلتهم كافراد يعيشون انسانيتهم ويدافعون عن عواطفهم .. وهذا التداخل الحاصل بين قضاياهم الذاتية والجماعية هو سمة تميزت بها اشعار هذه الفئة من الشعراء . حتى لو حاولنا الفصل بين تجربتهم الذاتية والجماعية لكان هذا صعبا بل مستحيلا لان كل تجربة مهما صغرت رقعة المساحة التي تحتلها .. ومهما ارتبطت بذاتية صاحبها فاننا لا نستطيع ان نجردها من معانيها الانسانية الاجتماعية لان "الفصل بين التجارب الذاتية ومعانيها الانسانية الاجتماعية أمر متعذر ، فغالبا ما تكون الموضوعات الذاتية او الكونية منافذ يطل منها الشاعر على مجالات انسانية واجتماعية بالغة المدى"(١)

على ان الشيء المميز الآخر لهذه الفئة من الشعراء ان تجربتها الانسانية الخاصة استطعنا ان نلمسها بوضوح من خلال تجربتهم الشعرية لايماننا بان "كل التجارب الادبية ذات دلالات اجتماعية من نوع ما " (٢) .

---

١ ـ النقد الادبي الحديث محمد غنيمي هلال / ٣٩١

٢ ـ المصدر نفسه / ٣٩١

فمن خلال غزلهم بالمرأة لمسنا سوء حظهم في الحب ، ومن خلال عرض تجربتهم في الحب عرضوا لنا تجربتهم في الحياة ، والحكمة التي خرجوا بها من هذه الحياة.ومن خلال صراعهم ونضالهم من أجل الفوز بمن يحبون شعرنا بصراعهم من اجل الحياة .. والذى تلخص في الصراع ضد الفقر ، وضد الذل والعبودية " فالتجربة الشعرية تتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التي تتمثل في النفس أو في الفرد ازاء الأحداث التي تحيط به ، بل ان التجربة لتتهن بحياة تفتح عيوننا على حقائق قد لا تبين عنها حقائق الحياة أو حالات النفس كما تبدو لاكثر الناس " . (١) والحياة بالنسبة للشاعر الأسود ليست الا صراعا . وهو صراع مقهور في أغلب الأحيان ، صراع أوجدته طبيعة الظروف التي رافقت وجوده ، هذه الظروف التي كانت نتيجة طبيعية للقضايا الذاتية ذات الصفة الجماعية التي تركزت في أهم قضاياهم وهي :

١ ـ قضية اللون والنسب :

ان مشكلة اللون والنسب أخذت أبعادها الحقيقية عند الشعراء السود كقضية حملوا رايتها .. وجندوا امكاناتهم المادية والمعنوية للدفاع عنها وكان لهما التأثير المباشر وغير المباشر على حياتهم وعلى أشعارهم التي كانت في معظم الاحيان صورة ناطقة عن هذه الحياة . حتى أن القارئ يسمع صداها في كل رنة قافية من قوافيهم ويرى بصماتها واضحة على كل بيت في قصائدهم مما دعا الباحث الى اطلاق لفظ عقدة " (٢) على هذه المشكلة أو القضية ... ذلك أن العقد تعرف بأنها " مجموعة من الرغبات أو الأفكار المكبوتة غير المندمجة مع النظام النفسي للفرد ، وهي من حيث هي كذلك نتيجة لاحتكاك الانسان ببيئة خارجية يعتبر منها مقومات ضميره اللاشعورى فكرته العليا عن الذات . " (٣)

فلو لم يكن المجتمع الذى ابصر فيه هؤلاء النور [illegible] قائمة على مقومات شرف النسب وكرامة وعراقة الاصل .. ولو لم يكن السواد آنذاك مرتبطا بالعبودية

---

(١) النقد الادبي الحديث / ٣٨٣

(٢) الدكتور عبده بدوى في كتابه " الشعراء السود "

(٣) علم النفس التربوى د . أحمد ذكي صالح / ٨١٩

لما شعروا بهذه الفجوة في الحياة بينهم وبين اخوانهم البيض الاحرار .ولما أحسوا بفداحة المصاب الذى ألمّ بهم دونما ذنب ارتكبوه أو عار اقترفوه ، ولما حصل بالتالي — هذا التصدع الذى حاولوا جهدهم رأبه بصور شتى تختلف قوة وضعفا، حدة وهدوءا من شاعر لآخر ، ومن زمن لآخر •• ذلك أن " الاحساس باللون كان حادا عند الشعراء السود قبل الاسلام " (١) لان دعائم المجتمع الجاهلي كانت ترتكز على العصبية القبلية وما يستتبعهما من شرف الاصل وعراقة المنبت ، وهذا ما لا يتوفر لديهم، ومهما بلغ شأن الشاعر ومهما جادت قريحته من موضوعات الشعر وفنونه فهو عند نقاد ذلك العصر : "أشعر أهل جلدته " وكأن السواد أصبح وصمة في جباههم لا يمحوها توقد ذكاء ،أو توقد شاعرية بالرغم من أن بعضا منهم كان إماماً سباقاً في افانين كثيرة •

فحين أسهم سحيم عبد بني الحسحاس في ارساء أولى دعائم مدرسة الادب المكشوف بعد أن خلّف هذا الدفق من الاشعار التي تتميز بحدتها وثوريتهما • جاء عمر بن أبي ربيعة ليسرق دائرة الضوء منه ويتربع — دون منازع — على قمة هذه المدرسة وما أظن أنّ هذه الحدة التي اتصفت بهما أشعار سحيم — حتى لكأنها بركان ثائر — الا نتيجة طبيعية للظلم والحرمان اللذين كان يعيش في ظلهما مع أهل عشيرته •• ونظرة متفحصة لما قاله ضمن هذا الاطار لهو دليل ساطع على صحة هذا الظن وتحويله الى حقيقة أكيدة •• وهذا ما يميزه عن غيره من الشعراء السود الذين دافعوا عن قضيتهم بالصورة التى رأوها مناسبة ،أو التي تلاءمت وانسجمت مع طبيعته •• فعنترة حين يتعرض لمشكلة اللون نراه يبحث عن حلول منطقية عقلانية يستطيع بواسطتها أن يحد من الفكرة المتأصلة في أعماق المجتمع الجاهلي ، بل كان يريد أن يزرع أفكارا جديدة بديلة للافكار السائدة •• يريد أن يقنع الجميع بأنه لا اهمية للمواصفات التقليدية ،أو للشكل الخارجي للانسان •• المهم هو الجوهر الذى يظهر كفاءة الشخص ، ومدى قدرته على درء الاخطار عن القبيلة •• ومدى قدرته على حماية أعراض نسائها ، وبراءة وجوه أطفالها •• قدرته على العطاء في سبيل الجماعة •• قدرته على اثبات انسانيته الحقة من خلال خدمة الانسانية.كل هذه امور لم تكن بجديدة على

---

(١) الشعراء السود / ١٢٣

على المجتمع الجاهلي أو فيما بعده .. لقد كانت تعتبر اساسا من الاسس المتعددة له ، لكنها ليست الاهم ان لم تتوفر لدى انسان يحمل خلفية لها ثقلها في تاريخ الأنساب . ورغم أن عنترة حمل عراقة هذا النسب من طرف والده ، الا أن ذلك كان بحاجة الى تصديق وتوثيق للاعتراف به خاصة وان أمه زبيبة كانت من الطبقة الادنى في المجتمع ، وهي الطبقة المقهورة المغلوبة على أمرها . وهو بناء على ذلك وريث عبودية ووريث سواد مهما حاول أن يمحوها بيمين فعاله ، وبضاعة صحائفه .

وهو وان كانت أمه سوداء من بنات حام الا أنه كان يحاول أن يقنع نفسه والآخرين أن هذا لا يشكل في الأمر غضاضة ، فهو انسان يحمل بين ضلوعه قلبا كبيرا مستعدا دائما للحب ، لكنه مستعد في الوقت نفسه دائما للشدة حين يقتضي الأمر ، وقلبه الرقيق المحب المفتوح للعواطف السامية ، اللاهث دائما وراء حب عبلة لهو القلب الجريء الشجاع عند اى اعتداء خارجي يقع على القبيلة :

فان تك أمي غرابيـــة من ابناء حام بها عبتني
فاني لطيف ببيض الظبا وسمر العوالي اذا جئتني (١)

وهو حين يقول هذا فهو مؤمن به فعلا ، وسيرته — على ما تحمله من مبالغات — هي الدليل الصادق على قوله . وهي الى جانب ذلك يحمل من الصفات المعنوية السامية ما يبوأه منزلة عالية تجعله في مركز القيادة والريادة دائما ، وهذه النغمة كثيرا ما نسمع صداها يتردد عند غيره من الشعراء السود .. وهنا تبرز شخصية النصيب الأكبر التي كان يحاول من خلالها أن يكون فوق مستوى الأحداث وفوق مستوى الشبهات وهو فخور بهذا فيقول :

وان أك أسود فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني كبعد الأرض عن جو السماء (٢)

وان وجد أن لا مناص من دمغه بالسواد مهما بلغ ، يلجأ الى ادانة المجتمع القبلي بقيمه البالية التي تحاول أن تبني جدارا واهيا من الأخلاق يحاول السادة أن يتمسكوا به تحت ستار من النبل وعراقة النسب والمنبت في حين يقترفون مختلف أنواع الآثام .. وهم في اقترافهم لها ليدينون أنفسهم وفعالهم ، وليدمغوها بسواد حالك أشد سوادا من لونه :

---

(١) العقد الفريد ٢٢٩/٢ — الديوان ٢٣٩ — ٢٤٠
(٢) شعر نصيب /٥٨

يعيبون لوني بالسواد وانمــا   فعالهم بالخبث أسود من جلدي

لذلك فهو ماض في طريقه رغم كل هذه الاعتبارات ، ولن يرده عن سعيه سواد لون أو عبودية أم .. فهمته في علوها لا يطاولها متطاول ، ولا يلحق بها عدو .. ولا يلين من قناتها حاسد :

ما ساءني لوني ولا اسم زبيبة   اذا قصرت عن همتي اعدائي

فلئن بقيت لاصنعنّ عجائبـا   ولأ بكمن بلاغة الفصحـاء

وهو غير عابئ بهذا السواد ، بل على العكس سيكون مجالا لفخره يوم الطعان حين لا ينفع نسب ولا يجدي فتيلا :

لئن يعيبوا سواد ي فهولي نسب   يوم النزال اذا ما فاتني النسب

ولكن بعد هذا يتساءل المرء .. هل وصل عنترة الى غايته من خلال منطقه الجديد على المجتمع الجديد .. هل استطاع أن يغيّر شيئا ما في نفوسهم .. هل تمكن من تحقيق ولو جزء من تلك الآمال التي كان يحلم بتحقيقها .. هل استطاع أخيرا اقناع والده ومن ثم مجتمعه بجدارته في الحرية ، ثم ان يقنع عبلة بجدارته في حبها .. ؟ ...

كتب الأدب التي تناقلت أخبار عنترة ، تخبرنا بأنه استطاع بحد السيف ارغام والده على الاعتراف بابوته من خلال جملة واحدة "كر وانت حر" ومن خلال حاجة القبيلة في الأزمات كان الطريق سالكا للاعتراف بحريته ، وفيما عدا ذلك لا .. فلا هو مخول للارتفاع بحبه الى صفوف السادة حين يخطو القلب لحب ابنة عمه مالك بن قراد ، ولا هو حر طليق حين تضع الحرب أوزارها فكانته مستمدة من قوته ، ومن شدة بطشه في الاعداء أما في السلم فعودة الى جذور زبيبة ، وعودة بالتالي الى اعماق النفس الحزينة ولكنه في كل ذلك يكشف زيف مجتمعه المخادع المتذبذب :

يناد ونني في السلم يا ابن زبيبة   وعند صدام الخيل يا ابن الاطايب

ولكنه مع كل ذلك .. لن يسمح لليأس بأن يتسرب الى قلبه ، ولن يضع سيفه جانبا بل سيبقى مسخرا لسانه وسيفه لما نذر له نفسه منذ البدء الى أن يأتي من يحمل الراية من بعده ، ويكمل المشوار الذى بدأه ولو اختلفا في الوسيلة .. المهم هي الغاية .. والمهم هو تسجيل موقف في الدفاع عن الحريات المسلوبة وعن الكرامات الضائعة ..

ويأتي سحيم ، ليكمل السير، وليحمل الراية من بعد عنترة ، فلقد ذاق مثله مرارة العبودية ، ودفع ضريبتها من نفسه وكرامته ، وهذا يبدو كافيا للثأر وأن يحاول اقتحام حصار السادة مهما كان الثمن ، ومهما كانت النتيجة .. وفي هذه الحالة لن يقتحم سحيم بالسيف كما حاول عنترة فهو لم يحظ من الصفات الجسدية ما وهبه الله لعنترة ولكنه اعطي لسانا أشد مضاء من السيف .. وبهذا السلاح سيحاول أن يحقق ما لم يستطع المنطق والسيف تحقيقه، وهو بطبيعته الانفعالية لن يجد أفضل من الثورة لرفض الواقع الاليم .. وهي في البدء ستكون ثورة خافتة نرى الشاعر من خلالها منطويا على نفسه صاغرا للامر الواقع .. فعيبن تتجافى عنه عيون البيض فهي على حق لانها لن ترى في وجهه سوى القبح والبشاعة اللذين زادهما الفقر وأكملا عليهما :

أشارت بمدراها وقالت لتربها	أعبد بني الحسحاس يزجي القوافيا
رأت قتبا رثا وسحق عمامة	وأسود مما يملك الناس عاريا

وكأنه واثق بأنه لو ملح صباحة الوجه وجماله ، لتغير موقف البيض منه ولكان حظه ونصيبه في اجتذابهن أوفر :

فلو كنت وردا لونه لعشقنني	ولكن ربي شانني بسواديا

ويستيقظ فجأة من احلامه على صوت العقل ليعلن انه مهما كان من امر سواده وعبوديته فهذا لا يشينه ، ويجب الا يشينه ، لأن مكانته — حسب رأيه — لا تقاس بما فعل غيره :

فما ضرني ان كانت امي وليدة	تصر وتبرى باللقاح التواديا

وحين لا يجدى صوت العقل ، ولا يجد فيه شفاء لغليله ، يتحول عنه الى الثورة المعاكسة شيئا فشيئا ، ويرتفع صوته أكثر فأكثر، علّه بذلك يجد آذانا صاغية تساعده وتساعد طبقته على التخلص من محنتهما :

أشعار عبد بني الحساس قمن له	يوم الفخار مقام الاصل والورق
ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما	أو أسود اللون اني أبيض الخلق

فان لم يجد لدعوته استجابة .. بلغ السيل به الزبى ، وانطلق كالبركان الثائر لا يقف أمامه شيء ، ولا يخشى فيما يقول سطوة سيد أو رهبته ، وهو على يقين من النهاية المفجعة التي سينتهي اليها :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم . ان الحياة من الممات قريب

فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على ظهر الفراش وطيب

ويأتي الاسلام ليهدم الأرض الخربة .. ولتعم بقدومه أفكار العدل والمساواة فتتغير مفاهيم ونشأت قيم جديدة ترتكز على أساس عمل الانسان وتقواه ، بعد أن كانت ترتكز على مابينه الطبقي وأصله ومكانته الاجتماعية الناتجة عن هذا المنبت . وبانتشار هذه المفاهيم خفت حدة هذا الشعور عند السود . لكنها لم تستطع محو النتائج التي كانت تنعكس على مختلف انواع علاقاتهم مع أنفسهم ومع أسرهم ثم مجتمعهم . وسنرى آثار ذلك جلية واضحة في حبهم .. وفي أشعارهم التي ترجمت علاقة هذا الحب كما سنراها في وضعهم الاسرى ، وفي تعاطيهم مع المحيط الذى عاشوا فيه .

ورغم خفة هذا الشعور بالسواد ، نلاحظ هذه الاشارات الحزينة للمشكلة التي ما برحت تؤرق عيشهم رغم انتشار أفكار العدالة الاجتماعية التي جاءت بمجيء الاسلام ولا سيما في الدور الاسلامي الاول ، حين لم يستطع المجتمع التخلص من تقاليده القديمة بسهولة وبفترة وجيزة . اذا كان لا بد من مرور الوقت الكافي لنزع هذا الشعور من الاذهان ، وان كنا نبالغ بقولنا "نزعة" لأنه سيعود قويا وعميقا حين تعود العنصرية من جديد بشكل وزى مختلفين حتى لتغدو " في القرنين الاخيرين مبحثا من مباحث الكلام " " فيقسمون الاصول البشرية على حسب الاختلاف بينها في اللون والشعر وشكل الانف ولون العين وتركيب الجمجمة وطول القامة وخصائص الدم وأشباه ذلك من الفروق " (١)

وتطالعنا في الفترة الزمنية الممتدة بين الحكمين الأموى والعباسي ردود فعل لمشكلة السواد تتراوح بين الاسلوب التقليدى ، وبين أسلوب جديد يعتمد التهكم والسخرية من الطبقة الحاكمة .. أسلوب يعتمده أبو دلامة للنيل من الاشياء ومن المجتمع الذى يقر ما يشرعه هؤلاء السادة .

---

(١) بين الكتب والناس / ٩٢

فالنصيبان المرواني والأصغر يعتمدان في دفاعهما على الاسلوب التقليدى القائم على تبيان المفاخر بالصفات والأخلاق الكريمة التي كان من المفروض أن تكون كافية — حسب رأيهما — لمحو آثار اللون والنسب .. فالسمعة الطيبة والبعد عن الفحشاء ... كما يقول نصيب الاكبر — يعوضان عن سواده الذى لا حيلة له تجاهه :

فان أك حالكا فالمسك أحوى — وما لسواد جلدى من دواء

ولي كرم عن الفحشاء ناء — كبعد الارض عن جو السماء (١)

وسواد الفتى ليس بضائر وخصوصا اذا ما حمل خلفه ذكاء وأدبا ، وخلقا قويما :

وليس يزرى السواد يوما بذى اللـ — ـب ولا بالفتى اللبيب الأديب

ان يكن للسواد فيّ نصيب — فبياض الاخلاق منه نصيبي (٢)

وكثيرا ما تتردد هذه المعاني عنده ، وكأنه بهذا التكرار يريد أن يقنع المجتمع ببطلان دعوته التي تتركز على العصبية الطبقي ، ويحاول جاهدا لارساء قواعد جديدة تكون مثار الفخر والمدح :

ليس السواد بناقصي ما دام لي — هذا اللسان الى فؤاد ثابت

من كان ترفعه منابت أصله — فبيوت أشعارى جعلن منابتي

كم بين أسود ناطق ببيانه — ماضي الجنان وبين أبيض صامت

اني ليحسدني الرفيع بناؤه — من فضل ذاك وليس بي من شامت (٣)

ورغم هدوء الاسلوب وهدوء النَّفَس الذى تعرض بواسطته النصيب لطلب المشكلة الا أن ذلك لم يطمس معالم التأثر العميق عليه ، والتي بدت في اوجه حياته جميعها فشعوره بهذا اللون المخالف لم يكن بالشعور العارض الذى يعبر عنه بكلمة في بيت من الشعر كما يبدو من ظاهر كلامه ، بل لعله كان هو محور شعوره كله وكان باعثه الاول الى طلب الكرامة الكاملة ، وما ضرب قط ولا غضب قط الا برز شعوره هذا من الاعماق الى طرف اللسان . " (٤)

---

(١) شعر نصيب / ٥٨

(٢) شعر النصيب / ٧١ ، ومن الملاحظ ان البيتين وردا في ديوان سحيم ، واشير فيه الى انهما يرويان للنصيب / ٥٤ — ٥٥

(٣) المصدر السابق / ٧٣

(٤) بين الكتب والناس / ١٧٦ — ١٧٧

لقد ألقى هذا اللون ظلامه على كل شيء في حياته ، حتى تعداه الى علاقته بالمرأة البيضاء . هذه العلاقة التي جلبت له المتاعب والهموم .. حتى أنها استدعت تدخل الخليفة في بعض الأحيان كما سنرى . كما تعداه الى علاقته الاسرية والاجتماعية ، وانما الذي خففه من حدة شعوره ، رغبته في عدم التصادم مع المجتمع .. وبالتالي فقد بدا اسلوبه الهادئ مسيطرا على كل شيء في شعره وفي تعامله . وقد ساعده ذلك على سرعة الوصول الى الخلفاء ، لكنه كان ، في الوقت نفسه ، سببا في الانسحاب من مجالستهم بارادته لانه كان يعرف في قرارة نفسه أن هذا الوصول غير طبيعي وهو لن يغير في الامر شيئا . فهم خلفاء وسادة وهو لم يزل ولن يزال في نظرهم مهما أكرم العبد . وقصته دخوله على عبد الملك بن مروان ربما وضحت هذه الفكرة بالذات .. فقد دخل النصيب مرة على الخليفة فتغدى معه .. وحين يطلب منه الخليفة ما يمكن أن يتنادما عليه يعتذر النصيب بعد أن يطلب الامان فيقول مخاطبا اياه : تؤمني ؟ ولما أمنه الخليفة قال له النصيب : لوني حائل وشعري مفلفل ، وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من اكرامك اياي بشرف أب أو أم أو عشيرة ، وانما بلغته بعقلي ولساني ، فانشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك ، فأعفاه "(١)

ولم تكن عقدة اللون أخف وطأة على نصيب المرواني منها على زميله الأصغر الذي رأى — وباختصار — أنها كافية لان تكون سببا في عدم ممارسته لحياته الطبيعية كغيره من الناس من جهة .. وزجره هذه النفس عن امور محرمة عليه ، بل هي من طبقة الاحرار .. لذلك نراه يكتم عواطفه جهرا ويحاول التأقلم مع المجتمع العام الذي لن يسمح له بدوره ، افصاح هذه العواطف الا تحت ضغط ثقيل من الوان الاهانات فيقول مخاطبا نفسه :

فيا أيها الزنجي مالك والصبا	أفق عن طلاب البيض ان كنت تعقل
فمثلك من أحبوشة الزنج قطعت	وسائل اسباب بها يتوسل (٢)

---

(١) الاغاني ٣١٨/١ — ٣١٩
(٢) الاغاني ٤٠١/٢٢

وهوان حاول تناسي هذه العقدة وآثارها ، جاء من يهمزه بعنف ليذكره بواقعه ، ويزجر عواطفه عن التمادى :

وتقول ميّة ما لمثلك والصبا ... واللون أسود حالك غربيب

شاب الغراب وما أراك تشيب ... وطلا بك البيض الحسان عجيب

واذا كنا قد وجدنا من الشعراء السود من شكلت عنده عقدة السواد مشكلة اساسية ظهرت آثارها ونتائجها السلبية في جميع أوجه حياته • فحاول باسلوب منطقي مقارعة الحجة بالحجة والدفاع عن قضيته ، ومحاولة قلب المفاهيم الخاطئة والمتأصلة في مجتمعه • وجدنا في الطرف الآخر النقيض من ذلك من حاول أن يخفف من وطأة المشكلة ونتائجها ، مع النيل من الخصم — من كان — باسلوب ساخر هزلي ، وربما كان في هذا الاسلوب احتجاج صارخ على المجتمع وأعرافه، لكنه احتجاج مبطن يتخذ من الضحك وسيلة للوصول الى الحقيقة •• وكان أبو دلامة أول من سلك هذا السبيل-هذا الانسان الذى بدأ " لملاقاة الحياة خفيفا من كل شيء ، فهو باسم الولاء المرح ، والحياة المبهجة يخرج على القيم السائدة في المجتمع، ويكاد يخرج للوجود نافضا عنه كل القيم السابقة ، وخارجا عما تعارف عليه أكثر الناس(١)• "

وأبو دلامة حين يتطرق للمشكلة ، فانه يعتمد هجاء نفسه ، وأسرته ليجعل منها اسلوبا أو مادة للضحك يصل عن طريقه الى غايته وهو يقول في ذلك :

عجبت من صبيتي يوما وأمّهمُ ... أم الدُّلامة لمّا هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من مُنَبّهةٍ ... هَبّتْ تلومُ عيالي بعد ما هجعوا

ونحن مشتبهو الالوان أوجهنا ... سود قباح ، وفي أسمائنا شُنَعُ

الى أن يصل الى الغاية فيقول على لسان زوجته :

أخرج تبغّ لنا مالا ومزرعةً ... كما لجيراننا مالٌ ومزدرع

واخدع خليفتنا عنا بمسألة ... انّ الخليفة للسؤال ينخدع (٢)

وهكذا سجل الشعراء السود احتجاجهم على مجتمعهم احتجاجا يتراوح بين ثائر مندفع غير هياب بالنتائج ولو أدت الى القتل •• وبين هادئ خفت صوته وضجت أعماقه فلم يكن أقل تأثرا وتأثيرا ومعاناة وتجربة من غيره • وبين متنكب لاسلوب

---

(١) الشعراء السود /١٣٧

(٢) نهاية الارب = السفر الرابع / ٣٦ ـ ٤٧

ظهر واضحا في هذه السخرية من المجتمع عموما ومن نخبته المتمثلة في الخلفاء وطبقتهم •• الا أن الجميع عادوا ليتفقوا في الغاية والهدف مهما تنوعت واختلفت سبلهم • على أننا لا نعدم بين هؤلاء من لم يلتفت الى هذه المشكلة صراحة اما خجلا من نظرة الازدراء أو تصالحا • ومهما يكن من أمر فقد كانت عقدة اللون وراء سلبيات حياتهم بما فيها من آلام وبؤس •• وكانت وراء فشل علاقاتهم العاطفية ، وما يستتبعها من العودة الى الذات والاستغراق فيها • كما كانت وراء اندلاع ظاهرة الغضب التي بدت في أشعارهم لا سيما هذا الغضب الذى تفجر حقدا على كل شيء ، وبيلا من الخصم • والأهم من هذا وذاك أنها كانت وراء نهاية أكثرهم نهاية فيها الكثير من الظلم والقسوة والوحشية والبشاعة •• ثم كانت — أولا وأخيرا — وراء كل تراجع لشاعر أسود كان من المفروض أن يصل إلى سدة الشعر •

٢ — تجربة الحب :

لا نبالغ اذا قلنا أن الصفتين الاساسيتين الملازمتين لتجربة الحب عند الشعراء السود هما اليأس والفشل • فتاريخهم العاطفي وتجاربهم من خلاله يشهدان على ذلك •• ومسيرتهم الصامتة احيانا والمتفجرة أحيانا اخرى تنطق بذلك • وقد وجدنا كثيرا منهم من انتمى الى المدرسة الفنية التقليدية في الغزل ، حين رأى أنه من الحماقة الدخول في ميدان الحب وهو على ما فيه ، وما يحمله من وزر الارث الذى لحقه من السود •• فجرب حظه في هذه المقدمات الغزلية التي كانت بمثابة جواز مرور له للخروج الى المجتمع من خلال مدح هذا الامير أو ذاك الخليفة، أو خلف وراء مقطوعات غزلية ربما حملت — على ما وصفت به من تقليدية — تجربة الشاعر الخفية التي خشي أو خجل من اشاعتها •• كما وجدنا البعض الآخر علما بارزا من اعلام المدارس الغزلية التي ساهم في ارساء قواعدها ليأتي غيره من بعده ويتربع على سدة زعامتها ، ثم صارت بعده ذات كيان مستقل • ورغم تعدد المدارس التي انتسب اليها هؤلاء الشعراء ، والتي كانت ميدانا رحبا فسيحا للتعبير عن أفكارهم وتطلعاتهم •• ورغم تعدد الصيغ التي خرج بها غزلهم ، الا أننا نستطيع أن نبين بوضوح أن طابعا مميزا خاصا طبعت به أشعارهم وعبّرت عنه ، ألا وهو هذا القهر والحرمان اللذين تعرضوا لهما في كل لحظة من لحظات حياتهم ، وفي كل تطلع من تطلعاتهم •• لا سيما تطلعهم نحو المرأة البيضاء الذى كان يكلفهم كرامتهم أو حياتهم في أكثر الأوقات • فهل وقفوا تجاه هذا كله صامتين •• ألم

يكن بأيديهم سلاح يستطيعون أن يجابهوا به قوى الظلم ؟ .. ألم يكن باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم في وقت خلت فيه الساحة من محامي الدفاع عن أمثالهم ؟ ..

هم أصحاب حق .. وصاحب الحق يستطيع الدفاع عنه ، ومن يملك حق الدفاع يرد الاتهامات الموجهة اليه بالطريقة التي يراها ماسبة وأشد تأثيرا .. وهذا الحق الذى يدعون ملكيته ليس الا الحرية .. هذه التي كانت قبلة أنظارهم ومحور تفكيرهم ، ومنطلق عواطفهم لاسيما عاطفة الحب . فأنّى للشاعر الأسود أن يحب ويغرم بفتاة ان لم يكن حرا ، خاصة اذا كانت هذه الفتاة تنتمي الى سادة القوم كما حدث مع عنترة . أو كانت تنتمي الى طبقة كان اللون والنسب الحصنين الأمينين المحظر اختراقهما عليه وعلى طبقته ، كما حدث مع سحيم وكثير منهم ..

لقد أحس الشاعر الأسود أنه جُرِّدَ من كل شيء حين جُرِّدَ من حريته ، اذ لا معنى لوجوده من دونها . وهو حين يقاتل من أجل استردادها فهو يدافع عن وجوده وعن كيانه ، وما تشكل عاطفة الحب عنده الا جزءا من هذا الكيان فكيف يحفظ هذا الكيان ويحفظ كرامته .. وما هي اسلحته المعتمدة في ثورته ضد العبودية والظلم والقهر ؟ ...

قبل أن نعمد الى دراسة ذلك لا بد من أن نضع بعين الاعتبار وحدة الهدف والغاية عند هؤلاء مع اختلاف الوسيلة الموصلة لذاك الهدف وتلك الغاية . وربما أعطى اختلاف الوسائل شيئا من التنوع الذى أغنى أشعارهم لا سيما منها التي تعبر عن تجربة الحب ..

وتجربة الحب عند عنترة قيّمة وغنية بما تحمله من مثل عليا كانت جديرة بأن توصله سدة الرياسة فيما لو لم يكن عبدا . أما وعنترة عبد، فهي - برأيه - كفيلة بأنه تخلصه ربق العبودية ، وتعيد اليه حريته وبالتالي تعيد حبيبته ، وهي غنية وقيمة بما تثيره في نفسه من عواطف وقدرات تحركه دائما نحو العمل الجاد من أجل الوصول ومن ثم تدفعه الى "استخدام قدرته الفنية المبدعة في صياغة شعر يجسد فيه صورة الرجل المثالي في خلقه وشجاعته وأفعاله . " (١)

فمن شيمه الاخلاقية أنه سَمِحٌ من غير ضعف ، قوى فتاك اذا ما أصابه ظلم ، وهو في كل ذلك ينطلق من نقطة هي دائما المحرك والدافع والمثير والملهم وهي عبلة

---

(١) ديوان عنترة / ٦٨

فيخاطبها ويقول :

أثني علي بما علمت فانني — سمح مخالقتي اذا لم أظلم
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل — مر مذاقته كطعم العلقم

وهو الى ذلك سخي اليد بغير تبذل ، وموفور الشرف والعرض :

فاذا شربت فانني مستهلك — مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى — وكما علمت شمائلي وتكرمي

ودائما عبلة هي بيت القصيد ، فاذا ما افتخر بخصاله وما يتحلى به من أخلاق وشيم فانما يريد أن يثبت جدارته بها وبحبها ، ولمَ لا .. فما يتوفر فيه من صفات لا يتوفر في غيره من شباب القبيلة من عفة وكرم الاخلاق ، وكرم ذات اليد ، ثم الأهم من هذا وذاك أنها الأولى والأخيرة في حياته والمتربعة على عرش قلبه :

أغشى فتاة الحي عند حليلها — واذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي — حتى يواري جارتي مأواها
اني امرؤ سمح الخليقة ماجد — لا أتبع النفس اللجوج هواها
ولئن سألت بذاك عبلة خبرت — أن لا أريد من النساء سواها

والبطولة والشجاعة جزء لا يتجزأ من شخصية عنترة التي استوت واشتهرت بفضلها حتى طبعت حياته بطابع اسطوري .. وهو نفسه يقر بشجاعته التي هي مصدر ثقته بنفسه ، ومصدر فخره أمام عبلة ليشربها بأن تستكين الى صوت العقل والمنطق فتعرف قدره ، وترفض الأسس والقيم التي اعتمدها المجتمع الجاهلي في تقييم أمثاله ويخاطبها بقوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك — ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
اذ لا ازال على رحالة سابح — نهد تعاوره الكماة مكلم
طورا يعرض للطعان وتارة — يأوي الى حصد القسي عرمرم

وانسان يتخذ من صهوة الحصان مكانا له ، فلا عجب حين نراه عاري الاشاجع منهج السربال ، لم يدّهن منذ فترة طويلة بسبب خوضه المعارك الطويلة المتواصلة لباسه الحديد دائما . ولكن العجيب في ألا تلاقي هذه الصفات اعجابا أو قبولا عند من يحب :

عجبت عبلة من فتى متبذل — عاري الاشاجع شاحب كالمنصل
شعث المفارق منهج سرباله — لم يدّهن حولا ولم يترجل
لا يكتسي الا الحديد اذا اكتسى — وكذاك كل مغاور مستبسل
قد طال ما لبس الحديد فانما — صدأ الحديد بجلده لم يغسل
فتضاحكت عجبا وقالت قولة — لا خير منك كأنها لم تحفل
فعجبتُ منها كيف زلت عينها — عن ماجد طلق اليدين شمردل

وكثيرا ما يختلط الحديث عن الشجاعة بالحديث عن صفاته الخلقية الأخرى كالعفة والشرف والكرم والاغاثة •• والغاية هي هي في كل مرة •• والهدف عبلة دائما وقربها :

يخبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وهو في محاولاته المتكررة لا يجد أدنى استجابة من عبلة ولا يجد بدا من الاستعطاف والتودد ربما تقرّبَ به وحقق عن طريقه ما لم يستطع تحقيقه في حواره السابق لهما ، وهو رغم كل ما تبديه من جفاء فهو يحبها •• ولا يريد سواها من النساء •• وهو مستعد دائم لاغاثتها ومساعدتها في الطمات :

ولئن سألت بذلك عبلة خُبّرتْ أن لا أريد من النساء سواها

وأجيبها امّا دعت لعظيمة وأعينها وأكفُّ عما ساءها

وحين يشعر جفاء وتباعدا يخشى أن تنقطع حبال ودّها ، وهذا ما لا طاقة له على احتماله :

لا تصرميني يا عبيل وراجعي في البصيرة نظرة المتأمل

وهكذا يتدخل اللون مرة أخرى ليقف حائلا بين الشاعر وبين من يحبه كما وقف من قبل بينه وبين من يعيش معهم • وليكون مرة أخرى عاملا قويا ودافعا محركا نحو المطالبة بالحرية • هذه الحرية التي كانت المحور الذى دارت حوله أغلب أشعاره سواء في الحب والبطولة وفي الفخر ومكارم الاخلاق •• حتى أننا لنلاحظ تمازجا خاصا بين عاطفتين كانتا تتجاذبانه ، عاطفة الحب لعبلة ، وعاطفة شوقه المتعطش للحرية •• وكلتا همّهما كما لمسنا مكملتان بعضهن لبعض •• فهو يحب الحرية ويقدسها ويقاتل من أجلها ليصل الى حبه •• وهو يحب هذا الحب ويشتاق اليه لانه يجد فيه حريته ، وهل أجمل من الحب حين يتطلع ويسمو نحو الحرية؟ ••

فالحرية هدف للسود لأنها وسيلة لحياة أفضل •• وهم جميعا مناضلون من أجلها ومقاتلون في سبيلها وان اختلفت الطرق المؤدية الى هذا الهدف •• وتجربة سحيم في هذا المضمار لم تكن بأكثر حظا من تجربة عنترة مع اختلاف في وجهة النظر •• وهي صامتة عقلانية تعتمد الحوار عند عنترة،في حين نجدها ثائرة اندفاعية عند سحيم •• وعندما يجد بأن جملة من الممنوعات مفروضة عليه ، وان دائرة الضوء التي فرض عليه أن يتحرك ضمنها محدودة المساحة •• وان عواطفه نحو المرأة لا سيما البيضاء محكوم عليها بالاعدام • اذ ذاك لا يرى سبيلا للاحتجاج الا الثورة، والثورة العاتية التي تحطم القيم ، وتثور على الاعراف والتقاليد والنظام التي وضعها

غيرهم .. والشعر عند سحيم هو السلاح الذى يفجر من خلاله هذه الثورة الداخلية المكبوتة فتتفجر بالتالي عاطفته ليسجل له تاريخ الشعر تجربة حب ثائرة في كلماتها، شهوانية في معانيها، أليمة في نتائجها .. بل ربما كان هذا الالم الممض الذى يخلف كلماته الشعرية من أبرز السمات لهذه التجربة التي عانى منها الكثير، ففجرت بدورها مركب النقص الذى كان يعاني منه جراء بشاعة شكله، وسواد لونه، الذى يقر ويعترف به من خلال قوله :

أتيت نساء الحارثيين غدوة ... بوجه براه الله غير جميل

فشبهنني كلبا ولست بفوقه ... ولا دونه ان كان غير قليل (١)

وشعوره هذا ما هو الا نتاج لنظرة المجتمع نحوه وأمثاله من الوافدين الغرباء عليه، والذين حُكِمَ عليهم بقساوة، وحُدِدت لهم الاقامة، ورُسِمَ لهم سبل التعامل وفق أسس لم تراع فيها القيم الانسانية .. فتجاهلت انسانيتهم وتجاهلت عواطفهم، وتجاهلت رغباتهم وطموحاتهم، فكانوا بالتالي تائهين بين الوجود والعدم .. بل متأرجحين بين نارين، نار الاعتراف بما في داخلهم والتصريح به وهم بهذا مهددون .. ونار الكبت والسكوت عما يعتمل في الداخل وهم بهذا محرومون بل شهداء المجتمع وضحاياه .. وربما كانت طاقة بعضهم أضعف من أن تتحمل الكبت والحرمان فتثور، وهذه هي حال سحيم حين تعتريه اشواق عارمة لا تعرف قرارا ولا سكونا فيهتف قائلا :

خليلي هذا البين قد جَدَّ جِدُّهُ ... فهوذا لنا من شر ما البينُ مُفْرِقُ

وان لم تبوحا خِفْتُ من باطن الجَوَى ... وان بُحْتُهُ فالسيفُ عُريانَ يَبْرِقُ

أرقاً وتشعبنا وناياً وفُرْقَــةً ... على حين أبصرتُ المَشَارِعَ تَنْسِفُ (٢)

وهو ان حاول التلميح الى ما به من الهوى كان ثمانون سوطا ينال من جلده النصيب دون رحمة أو شفقة :

أبا معبدٍ بئس الغَرَامَةُ للفتى ... ثمانون لم تتركْ لحلفكم عهــدا

كسوني غداة الدار سُمْرا كأنها ... شياطينُ لم تترك فؤادا ولا عَهْدا

فما السّجنُ إلا ظلُّ بيت سَكَنْتُهُ ... وما السَّوطُ الا جِلْدةٌ خالطت جِلْدا

---

(١) الشعراء والشعراء ٢٦٦/١ ــ الحيوان ١ / ٢٥٥

(٢) الديوان / ٦٢

وما تزيده هذه الضربات الا حبا بل وتعطيه مزيدا من التحدي •• فينتفض مطلقا الثورة، طالما أن النهاية في جميع الاحوال وفق ما يريدون :

أما معبد والله ما حل حبها ... ثمانون سوطا بل تزيد بها وجدا
فان تقتلوني تقتلوا ابن وليدة ... وان تتركوني تتركوا أسداً وردا
غدا يكثر الباكون منا ومنكم ... وتزداد داري من دياركم بعدا (١)

وعلى طرف النقيض من سحيم يقف ابو الحجناء المرواني • حين كان الاول يعجز عن كبح جماح النفس اللجوج عن الهوى ويفجر ثورته الجنسية علانية ، نرى الثاني يحاول جاهدا التصالح مع مجتمعه •• حتى حين تبلغ ثورته الحزينة الأوج فهو يفجرها في الداخل ، ثم لا تلبث آثارها أن تنعكس على تصرفاته ومواقفه ، فماذا ما أراد ابنه أن يتزوج ابنة أحد سادته، يأمر النصيب بأن يجر ابنه من رجليه ، وضربه بعنف ثم ينظر الى شاب من اشراف الحي فيقول له : " زوج هذا ابنة أخيك ، وعلي ما يصلحهما في مالي " (٢) لانه أعلم بقدر نفسه وبموقف المجتمع وسخريته من السود • ولكنه رغم هذا التصالح الذي عقده مع مجتمعه ، لم تكن تجربة الحب لديه أفضل نتيجة وأحسن آخرة • فهو لم يعرف من الحب الا سلبياته ومن الحبيب الا التباعد والجفاء والمقاطعة في حال عدم وجود توازن بين الطرفين •• وما القصص المنقولة عن نصيب في هذا الميدان ما هي الا الوجه الآخر لا شعاره في الحب هذا الوجه الذي زاده تجافي عيون البيض عنه، ألما وحزنا دفينا • وما نقله صاحب الاغاني عن نصيب قصته مع العجوز التي كان ينزل بها بالجحفة اذا قدم للشام حيث كان يحب ابنتها " الصفراء " وذات مرة وهو نائم عند العجوز وابنتها شعر بفتى جاءها ليلا فركلها برجله، فقامت معه فأبطأت ثم عادت وتكررت الحادثة الى أن أصبح نصيب ورأى " أثر محركهما ومتسلهما فارتحل وهو يقول :

أراك طموح العين ميالة الهوى ... لهذا وهذا منك ود ملاطف
فان تحملي ردفين لا أك منهما ... فحسبي فرد لست ممن يرادف (٣)

وعلاقته مع المرأة " الحمراء " ليست بأسعد حالا وأكثر حظا •• وما قولها له حين الح عليها " : اليك عني ، فوالله لكأنك من طوارق الليل " بغض النظر عن نهاية هذه العلاقة ، الا تعبيرا عن تلك النظرة الوضيعة التي كان ينظر بها الى السود • والتي هي جزء لا يتجزأ من نظرة المجتمع ككل لهم •• هذا المجتمع الذي وقف مراقبا لتحركاتهم ، محذرا لعواطفهم من التمادي •• وفي موقف الخليفة

---

(١) الديوان ٦٦ — ٦٧
(٢) الاغاني ٣١٨/١
(٣) الاغاني ٣٢٣/١

من نصيب حين نهاه وحذره من مغبة الاتصال بالعربيات ، صورة صادقة وصريحة لهذه المواقف •• فقد كان نصيب يحب عربية اسمها أم بكر الخزاعية في دمشق ، وكان يزورها حين قدومه ويعطيها مبلغا من المال ، ولما علم الخليفة عبد الملك بمدى تعلقه ونسيبه بها ، وكان معروفا بغيرته وتعصبه على غزل العبيد بالعربيات ، نهاه عن ذلك حتى كف (١) •

لقد تعددت تجاربه العاطفية والنتيجة واحدة تبوء بالفشل الذريع •• ولكنه مع ذلك ، لا تتحدى احزانه وثورته ذاته •لقد عاهد نفسه أن يتحمل الكثير بشجاعة وصمت من أجل الوصول الى هدفه المنشود في تحرير أبناء طبقته ، حين عجز غيره عن التوصل الى هذا الهدف بالثورة والتمرد • وهو يتقبل على مضض فشل هذه التجارب حتى التي كان منها مع بنات طبقته كما حدث في قصة حبه لامة من بني مدلج والتي لم يبق منها سوى " عقابيل حزن " (٢)

وتجربة الحب عند عنترة والنصيب وسحيم هي واحدة في الآمال والآلام والنتائج وهي واحدة مع تجارب زملائهم من الطبقة نفسها ، وان كانت تختلف عند الآخرين من حيث عمق التجربة،حين لم تكن عند خفاف والسلوك ونصيب الأصغر أو غيرهم من الشعراء السود تجربة حب بالمعنى الصحيح ، اذ كان لديهم من أمور الحياة الأخرى ما هو أهم وأجدر ، أو ربما عرفوا نفوسهم في هذا المضمار فجنبوا أنفسهم مغبة نتائجه• الا أننا ــ مع ذلك كله ــ لا نعدم في أشعارهم اشارات،ان دلت على شيء فهي تدل على شدة القهر الذي تعرضوا له حين كانوا يحاولون ممارسة عواطفهم الانسانية ولو بشكل مشروع ، لذلك كان الشاعر منهم سرعان ما ينسحب من ميدان الحب ليعيش جسدا من غير عواطف •• وما خلفه لنا هؤلاء من شذرات صغيرة من تجاربهم العاطفية كانت كافية لأن تعكس ما في داخلهم ، وأن ترسم صورة واضحة لعلاقتهم بالمرأة لاسيما المرأة البيضاء ، التي ظلت بالنسبة اليهم حصنا منيعا صعب الاقتحام •• وكلمات نصيب الأصغر التالية كافية لتلخيص تاريخ الحب عند الشعراء السود ، رغم ورود هذه الأبيات بشكل عارض في مقدمة غزلية لقصيدة في مدح الخليفة هارون الرشيد •• يقول نصيب :

---

(١) الاغاني ١/٣٢٨

(٢) الاغاني ٣٤٨ ــ ٣٤٩

فيا أيها الزنجي مالك والصبا أفق عن طلاب البيض ان كنت تعقل
فمثلك من احبوشة الزنج قطعت وسائل أسباب بها يتوســـــل

وربما جاء هذا التأنيب من طرف آخر من ميـة :

وتقول مية ما لمثلك والصبـا واللون أسود حالك غريـــب
شاب الغراب وما أراك تشيب وطلابك البيض الحسان عجيب (١)

أما علي بن جبلة، فرغم قلة تجاربه في الحب، الا أنه يعرف حق اليقين أن عيـــون البيض ستتجافى عنه وعن أمثاله لا سيما والمشيب قد غطى هامته :

جفا طرب الفتيان وهو طروب وأعقبه قرب الشباب مشيـب
تجافت عيون البيض عنه وربمـا دد دن اليه الوصل وهو حبيب (٢)

وربما دافع خفاف عن نفسه أمام المرأة، وحاول اظهارها بمظهر اللامبالي ان هـي أدارت له ظهرها ولم تتجاوب معه ٠٠ وهو بهذا الدفاع عن النفس يحاول أن يضم صوته الى صوت زملائه ممن سبقه في اظهار المناقب والمزايا التـي عوضهم بهـا الله عن نواقص أخرى :

فلئن صرمت الحبل يا بنة مالك والرأى فيك مخطىء ومصيب،
فتعلمي اني امرؤ ذو مـــرة فيما ألمَّ من الخطوب صليب

وهكذا كان الفشل ضريبة السواد ٠٠٠ وكان الحرمان ضريبة العبودية ٠وكان اليأس من حياة عادية يمارسون فيها عواطفهم هو نصيبهم ٠٠ هذا اليأس الذى كان يقودهـم في غالب الأحيان الى الاحباط ، أو الخروج على قانون المجتمع والثورة على تقاليـده ، ومحاولة اقتلاعها من الجذور ٠٠ أو الى نوع من الهروب من الواقع الأليم الى أشياء أخرى ربما انحرفوا فيها عن الطريق القويم ٠ وفي كل الامور ٠٠ كانوا يلاقون النهاية المرة ٠٠ سواء في انكفائهم على ذواتهم في صمت مر ٠٠ أو في النهاية المفجعة التي كانوا ينتهون اليها كما حدث مع سحيم ٠٠ أو في عشق الفتيات الصغيرات كمـــا حدث مع أبي الحجناء المروانى ٠٠ وفي كل كانت " رقعة الحب التي تحركوا عليهـا ضئيلة " ومظلمـة (٣) ٠

٣ ــ التجربة الأسريـــة :

الشاعر الأسود الذى رأيناه باكيا مقهورا مرة ، ثائرا ناقما مرة أخرى ٠ محدثـا لها متطفيا مرة ٠٠ أو ساخرا هازئا عابثا مرة أخرى ٠ هذا الانسـان الـذى تعرّفنـا عليه من خلال تجربته الشعرية الغزلية بكل ما تحمله من حلو ومر ٠٠ لا بـد من أن

---

(١) الاغاني ٢٢/ ٤١٥
(٢) شعر الصعلوك / ٤٤ ــ
(٣) الشعراء السود / ٢٢٠

تعود معه الى اسرته الصغيرة الى عالمه الصغير ، للعيش مع أفراده حياتهم ، لتتبين اللهفة الاولى التي كان من المفروض أن تكون الأكثر تأثيرا في شعره . هذه العودة التي حملت معاني التشرد والنفي منذ أن رحل أجدادهم عن بلادهم مهاجرين الى بلاد العرب الى أن حلوا عبيدا في مجتمع العرب السادة .. عودة حملت معاني التشتت والقلق منذ أن حملت متناقضات العصر الى الوجود .. هذا العالم الصغير الذى كان قوامه أما أمة سوداء تؤمر فتطيع ، وتُطلَبّ منها فتلبي دون أيما اعتراض أو تردد أو تخاذل . وأبا — كان يمثل في بعض الأحيان — جبروت السيد الذى يأمر فيطاع ويطلب فيلبي بأسرع من لمح البصر دون مناقشة أو استفهام . وفي كثير من الاحيان عبدا ممتهنا من الطائفة نفسها له مثلهم أبسط الحقوق التي تضمن له العيش الكفاف ، وعليه كثير من الواجبات التي ترهق كاهله وتزهق روحه . وبهذا نستطيع أن نميز بين فئتين من هؤلاء الشعراء . الفئة الاولى التي كانت تنتسب الى أب أبيض وأم سوداء والفئة الثانية التي كانت تنتسب الى أبوين سوداوين .. والأم الأمة السوداء هي القاسم المشترك بين الفئتين الذى حمّلهم تبعات اللون وهموم العبودية والرق . الفئة الاولى بما تحمله من متناقضات نتجت عن عدم وجود حد أدنى من التوازن الطبقي ، والثانية بما تحمله من ألوان القهر والألم النفسي .. والشعراء من الفئتين يحملون الهموم نفسها والآمال والآلام .. وهم يجتمعون مرة أخرى في محاولة للدفاع عن النفس في مجتمع السادة .. وهم في غمرة الأحداث لم ينسوا حديث النفس عندما تعود الى الاصل الى الأم والأب والأخوة .. الى الزوجة والأقارب لتنقل الى الأجيال ملخصا غنيا لتاريخ الأسرة السوداء يحمل مأساتها بكل فصولها ، وتتناول معظم افرادها ابتداء من القمة التي كانت تمثل الأم ، وانتهاء بالولد ...

الأم : حديث السود عن أسرتهم في مجمله حديث مقتضب ذو شجون . وعلى قلة الأبيات التي تحدثوا بها عن هذه الاسرة، وعن الأم بشكل خاص، تمثل لنا لب المشكلة وجوهر الواقع الذى يعيشونه .. فهي مصدر الرق والعبودية ، وهي بالتالي تمثل مصدر الرق والذل اللذين تعرضوا لهما فاذا ما عيرت عبس عنترة العبد عيرته بأمه زبيبة ، لأنها الأقرب تناولا طالما أن شخصية البطل المتكاملة كانت موجودة لديه ، وهو اذ يعلم بذلك ويعلم بأن عبس قاصرة عن النيل منه الا من هذه الزاوية فيقول :

ما ساءني لوني واسم زبيبة	اذا قصرت عن همتي أعدائي
فلئن بقيت لأصنعن عجائبا	ولا بكمن بلاغة الفصحاء (١)

---

(١) الديوان ٢٤٤/٨

لكن القبيلة حين تحاصر من قبل الاعداء ، وتشعر بأنها مهددة، تبحث عن البطل المنقذ ، فترى مرغمة الصورة الأخرى لعنترة ، صورة البطل الذى يحول الهزيمة الى نصـــر ساحــق :

يناد ونني في السلم ياابن زبيبة   وعند صدام الخيل ياابن الاطايب

وليس مــن شك بأن صورة الأمة السوداء ماثلة في ذهنه، مهما حاول انكارهـــا والابتعاد عنها والتمسك بالصفات الخلقية التي حاول من خلالها طمس واقع الام ••ومحو صـــورة العبد من أذهان الناس •• وما أن يخلو بنفسه ، وتتراءى صورة أمه ، حتى يحـــس مرارة الواقع الأليم فيقول عنها :

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها   ضبع ترعرع في رسوم المنـــــزل
الساق منها مثل ساق نعامـة   والشعر منها مثل حب الفلفـــل

وصورة هذه الامة السوداء التي تشبه الضبع ، لن يكون لها تأثير ايجابي على شخصيـــة الابن ، بل على العكس ، ستكون مصدر التشهيــر به ، ستكون بمثابة نقطة ضعف تناولهـــا الخصوم كلما أرادوا التجريح والنيل منه •• لذلك لا نحس روح التعاطف بين عنترة وأمــه والتي كان من المفروض أن تربط بين الأم والأبن في الظروف الطبيعية ••• ولم تكـــن الصورة التي رسمها أبو دلامة لأمه السوداء أفضل مضمونا من الصــورة التي رسمهـــا عنترة لأمه زبيبة •• وكما رأى عنترة فيها صورة تشبه الضبع •• نرى أبو دلامة يرى فيها صورة الغول أو القطرب فيقــول :

هاتيك والدتي عجوز همّـــة   مثل البلية درعها في المشجـب
مهزولة اللحيين من يرها يقل   أبصرت غولا أو خيالَ القطـــرب (١)

وربما اختلف الأمر مع نصيب الأكبر ، الذى رأيناه دائما مسالمـا، رغم شعـوره بالضيـــق من الظروف المحيطة به والتي كان يحاول كتمانها في صدره••• فهو يظهر على مســرح الأحداث حين يرى في الظهور حفظا لكرامتـــه ، ويختفي عندما يحس الخطر يتهـــدد شخصيته •• وروحه المسالمة دائما امتدت الى علاقته بأمه، حيث رأى فيها انسانـــة ضعيفة لا حول لها ولا قوة •• ووجد عندها من التشجيع والمساعدة ما لم يجده عـــند أحد ممن اتصل بهم حين أحس بنبوغه الشعرى فما نطلق يعرضه على اصحاب الـرأى والمشورة • وهي التي امتزجت عليه أن يسرق ناقة تتميز بسرعتها لينطلق بها بعيـــدا عن سادته ، ويقصد المدينة ملتقى أهل الشعر يعرض بضاعته عليهـم ••

---

(١) الاغانـي ١٠/ ٢٧١

وان لم يذكر نصيب أمه في شعره الا نادرا .. فانا نلمس اهتمامه بهـــا فيما نقل عنه من احاديث .. وهو دائم الدفاع عنها حين تتعرض لاذى من أية جهـة كانت .. وفيما ينقله صاحب الأغاني من هذا القبيل صورة عاطفية نلمس من خلالهـا تلك العاطفة الحزينة اتجاهها .. فقد اجتمعت نسوة يتحادثن بشعره فقالت احداهن : قاتل الله ابن الزانية نصيبا حيث يقول ... ويتأثر نصيب لهذه التهمة التي الصقت بأمه من غير وجه حق فيقوم اليهن ويقول : اني رأيتكن تتحادثن شيئا عندى منه علم ، فقلن له : ومن أنت قال : اسمعن أولا ، ثم انشدهن من شعره .. وحين تصر النسوة على التعرف على اسمه يقول بحزن بالغ : أنا ابن المظلومة المقذومة بغيـر جرم " نصيب " .. فقمن اليه واعتذرن . (١) .. وهو لهذا يضع مسألة تحريرهـا نصب عينيه حين ينطلق في رحاب الشعر ويقول مخاطبا اخته ، محدثا اياها عن غايته منه "أرجو أن يعتقك الله عز وجل وأمك ومن كان مرقوقا من أهل قرابتي (٢) وقـد استطاع أخيرا أن يحقق هذا الحلم ولو أن الوقت جاء متأخـرا .

ولكنني فاديت أمي بعد ما علا الرأس منها كبرة ومشيـب (٣)

وما عدا هؤلاء الثلاثة .. لا نجد في شعر السود الا لمحات خاطفة عن الأم ، وعـن تأثيرها عليهم .. ولا شك أن تأثيرها الا يجابي على أولادها معدوم – على ما رأينا – الا ما وجدنا عند نصيب من ظلال ...

وخلاصة الأمر أن الأم عند هؤلاء لم تأخذ الدور الطبيعي لأى أم .. ولم تأخـذ بالتالي دور المرأة القوية التي تقف من وراء شهرة الرجل من كان ..

الأخـت : كبقية أفراد الأسـرة السوداء ، لم يكـن للأخـت فيها ذلك الدور الكبيـر ، أو الاهتمام الشديد ، الا ما ذكرته المصادر عن تشجيع أمامة لأخيها النصيـب ، من بعـد أن كانت في أول الأمر تحاول أن تثبط همته .. ورغـم صغر حجم هذا الخبـر الا اننـا نلمس ذلك التأثير الفعّال لها في حياته . فقد كانت ممن يؤخذ برأيهم ويعتمد عليه فـي قضايا مصيرية كقضية التصيب .. وملخص الخبر أن أبا الحجناء أزمع الخروج الـى الخليفة عبد العزيز بن مروان لما أحس استواء عوده في الشعـر .. ولما كـانَ مثل هـذا القرار يحتاج الى شجاعة وتصميم لما قد يلقاه شاعر أسود في مجتمع شعرى كثير من افراده ممن يشهد لهم بالا رومة الشعرية الخالصة .. فان امامة – على ما توفر فيها من حصافـة في الرأى وحسن تبصر في الامور – كانت اول من لجأ نصيب لمشورته ، والاخذ برأيه فقد أتاها قائـلا : "أى اخيـه ، اني قد قلت شعرا ، وأنا أريـد عبد العزيز بـن

(١) الاغاني/٣٥٠ و ٣٥١
(٢) المصدر نفسه ٣٠٥/١
(٣) شعر نصيب / ٦٥

مروان ، وأرجو أن يعتقك الله عزّ وجلّ به وأمك ومن كان مرموقا من أهل قرابتي ." وأمامة هذه رغم ما شعرت في أخيها من موهبة شعرية .. الا انها خافت مغبة الأمر عليه من المجتمع الأبيض الذى خبرته جيدا فقالت له بحزن : انا لله وانا اليه راجعون . يا ابن آدم اتجتمع عليك الخصلتان : السواد ، وأن تكون اضحوكة للناس " .. لكنها حين ترى اصرار أخيها .. الى جانب اعجابهما بشعره لا تلبث أن تعدل عن القول السابق فتقول مشجعة : أحسنت والله ، في هذا والله رجاء عظيم ، فأخرج على بركة الله . " (١)

الزوجة :الزوجة عند أبي دلامة — وهو أكثر من تحدث عنها — جواز مرور للوصول الى السلطة ، ووسيلة للتكسب وان عكست من الجهة الثانية الوجه السلبي للمرأة السوداء .. وهي حين تكون في الوجه الأول صورة ايجابية للتكسب لا بأس من أن يرسم لها صورة هزلية مضحكة طالما أن الغاية محددة ومعروفة ..وهي شريكته في التمثيل حين تمثل دور المرأة الأيّم تدخل على الخيزران تبكي فقدان زوجها وتشكو مصابها ، وبالتالي ، تنال اعطياتها ، في الوقت نفسه الذى يمثل فيه أبو دلامة دور الرجل الذى فقد زوجته ، وهو يبكي فقدها بين يدى الخليفة المهدى ويبدب حظه مبتغيا من وراء ذلك كله مزيدا من المال فيقول في ذلك :

وكنا كزوج من قطا في مفازة	لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فأفردني ريب الزمان بصرفه	ولم أر شيئا قط أوحش من فرد (٢)

وهو لا يتورع عن هجائها .. اذا كان في هذا الهجاء مزيدا من التكسب المادى ومن التقرب للبهو الملكي :

الني شيخ كبير	ليس في بيتي قعيدة
غير مثل الغول عندى	ذات أوصال قديدة
وجهها أسمج من حسو	تطرى في عصيدة
ذات رجل ويد كلتاهما مثل القديدة (٣)	

وقد يبغي من وراء تقديم هذه الصورة الهزلية الضاحكة الى النيل من الطبقة الحاكمة التي تمثل بالنسبة اليه عقدة النسب ولب المشكلة .. وسبيله في هذه الصورة الهزلية التي لا يتورع فيها عن خداع الخليفة خداعا يترك القارئ غارقا في بحر من الضحك من خليفة يغترّ بمعسول الكلام :

---

(١) الاغاني ١/ ٣٠٥

(٢) الاغاني ١٠/ ٢٦٧ — طبقات الشعراء / ٦٢

(٣) الاغاني ١٠/ ٢٧٤

عجبت من صبيتي يوما وأمهم | أم الدلامة لما هاجها الجزع
لا بارك الله فيها من منبهة | هبت تلوم عيالي بعدما هجعوا
ونحن مشتبهوا الألوان أوجهنا | سود قباح وفي أسمائنا شنع
اذا تشكت الى الجوع قلت لها | ما هاج جوعك الا الري والشبع
لا والذي يا أمير المؤمنين قضى | لك الخلافة في أسبابها الرفع
ما زلت أخلصها كسبي فتأكله | دوني ودون عيالي ثم تضطجع
شوهاء مشنأة في بطنها تجل | وفي المفاصل من اوصافها فدع
ذكرتها بكتاب الله حرمتنا | ولم تكن بكتاب الله ترتجع
فاخرنطمت ثم قالت وهي مغضبة | أأنت تتلو كتاب الله يا لكع
اخرج تبغ لنا مالا ومزرعة | كما لجيراننا مال ومزدرع
واخدع خليفتنا عنا بمسألة | ان الخليفة للسؤال ينخدع(١)

وتتجلى صورة المرأة السلبية أكثر ما تتجلى عند زوجة النصيب المرواني ، رغم أنه ليس من اشارة صريحة في شعره اليها .. وانما هو خبر مفاده أن نصيبا عندما قرر الخروج الى عبد العزيز بن مروان أول ما اصطدم برأي عجوزالتي حاولت تثبيط همته في الخروج متهمة اياه بالكسل وكثرة النوم .. ومحذرة من سوء العاقبة (٢) .

الأولاد : ربط وضع الشعراء السود أمانيهم وأحلامهم كلها في الأولاد .. أملا في تغيير واقعهم الأليم من خلالهم . وربما حمل الأولاد كثيرا من صفات الآباء ، فحملوا بالتالي فشلهم ، وظلت عقدة اللون والنسب أقوى وأفتك تشدهم الى الأسفل كلما حاولوا الارتفاع والتخلص .. وهذا ما حصل مع النصيب المرواني وأبي دلامة ..

أما ابن أبي فنن فيعبر عن ذلك ويقول :

عاش بنيّ وصار مثلي | يلبس ما قد خلعت عني
فسرني ما رأيت منه | وساءني ما رآه مني (٣)

ويصاب النصيب بالاحباط بعد فشله في تحقيق مبتغاه المتمثل في تخليص بناته مما عاناه ويعانيه هو بشدة . الأمر الذي يدفع به الى الخليفة عمر بن عبد العزيز ويسأله قضاء حاجته التي تتلخص في قوله : " بنيات نفضت عليهن سوادي تكسدن . أرغب بهن عن السودان ويرغب عنهن البيضان . " (٤)

---

(١) نهاية الارب ٤/٢٦ — ٤٧ الاغاني ١٠/٢٤٩ — ٢٥٠
(٢) الاغاني ١/٣١٠ — ٣١١
(٣) فوات الوفيات ١/٨٣
(٤) الاغاني ١/٣٢٤

ثم يطلب من الخليفة أن يفرض لهن ، فيجاب الى طلبه • وهو ان ترجم حزنه هذا الى شعر يصور الحالة التي وصلت اليها بناته فيقول :

كسدن من الفقر في بيتهن وقد زادهن سوادي كسودا (١)

وما أظن هذا الفقر الذي عانت منه بنات نصيب الا نتيجة طبيعية للحياة التي فرضت على السود ، وعلى ابنة زيد بن الجون •• تلك التي لم تكن بأسعد حالا وأفضل مآلا من بنات نصيب • ومن أين ستلقى الحظ وما ورثته من أم سوداء " وأب لئيم هو عدتها في هذه الحياة •• ولماذا اذن يطلب منها ما ليس في المستطاع :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولا ربّاك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء الى لبّاتها وأب لئيم (٢)

الأقــارب : حديث السود عن أسرتهم الصغيرة يتعدى الاصول الى الفروع. وما حديثهم عن هذه الفروع الا تتمة لحديثهم عن الاصول •• فما كان يأمله أبو الحجناء لبناته كان يأمله للأقاربه ، ولقومه بشكل عام - رغم أن هذه الآمال كان مصيرها التحطم على صخرة الواقع الأليم - • وما ألفه السود من نوعية الحياة كان من الصعب تركه رغم محاولات نصيب لاعتاقهم •• وقصته مع ابن خالته سحيم تحمل غصة بقيت حتى اللحظات الاخيرة من حياته •• وملخص القصة أن نصيبا أعتق - فيما أعتق - ابن خالته سحيما •• وانه قد مرّ به يوما وهو يزفر ويزفن مع السودان ، فلما أنكر عليه ذلك •• كان أن لقي جوابا أدعى الى الحزن والالم : " ان كنت قد أعتقتني لاكون كما تريد فهذا والله ما لا يكون أبدا ، وان كنت قد أعتقتني لتصل رحمي وتقضي حقه فهذا والله الذي أفعله هو الذي أريده • " فانصرف نصيب ولسان حاله يقول :

اني أراني لسحيم قائلا ان سحيما لم يثبني طائلا

نسيت اعطائي لك الرّواحلا وضربي الابواب فيك سائلا

عند الملوك استثيبُ النائلا حتى اذا آنست عتقا عاجلا

وليتني منك القفا والكاهلا اخلقا شكسا ولونا حائلا (٣)

وهو رغم قضاء حياته في محاولات متكررة لتخليص أكبر عدد ممكن من آهله وقومه من عبودية الرق • الا أنه نادرا ما ينسى أن ما ورثه السود عن أبناء جلدتهم لهو أعمق وأقوى من أن يمكنهم من رؤية سبيل الى الخلاص والتمرد •• وهو لذلك يرد بحزن بالغ ،

---

(١) شعر نصيب / ٨٦

(٢) الاغاني ١٠ / ٢٥١

(٣) الاغاني ١ / ٣١٧

على واحدة من بنات جلدته وقفت بجانبه وهو ينشد الناس فقالت: بأبي أنت يا بن عم، ما أنت والله عليّ بخزي .. " فيقول لها: "والله لمن يخزيك من بني عمك أكثر مما يزينك"(١)

الطوابع العامة للشعر الاسرى : هذه النماذج القليلة حجما ، والتي خلفها الشعراء السود ، وتحدثوا من خلالها عن اسرتهم الصغيرة تكاد لا تعطينا بمفرد هـا ، صورة جليّة ومباشرة لنوعية حياتهم والعلاقات التي تربطهم .. ولكن اذا ما ربطناها بين هذا الحيز الضيق مساحة من اشعارهم مع الخط العام لا شعارهم كلها ، واذا ما لاحظنا بدقة الظروف المعيشية العادة لهؤلاء، وتأثرها الحتمي بالمحيط العام، فاننا نستطيع أن نلاحظ آثارا عميقة ان لم تظهر مباشرة فهي كامنة في اعماقهم تتلمس اللحظة المناسبة للخروج من سجنها. هذه الآثار يمكن أن نلخصها بما يلي :

١ ـ الذاتيـة : فالشعراء السود حين تحدثوا عن اسرتهم وأفرادها كان حديثهم هذا يحمل أزمتهم الخاصة التي عبروا عنها دائما، ووجدنا آثارها في مختلف موضوعاتهم الشعرية . فحين تحدث عنترة عن أمه ، تحدث عن ازمة اللون ومضاعفاتها .. وحين انطلق النصيب في البلاد يحمل ما لديه من موهبة شعرية كان يبغي من وراء ذلك كله التحرر من العبودية ومحاولة ايجاد حد أدنى من التوازن بين طبقته وبين طبقات المجتمع الاخرى . كان يحلم بأن يعتق نفسه وأخته وأمه "ومن كان مرموقا من أهل قرابته ." ثم حين تحدث هؤلاء عن احلامهم وأمانيهم من خلال أولادهم ، تشوقوا لخلق حياة جديدة لهؤلاء الأولاد يخلصونهم بموجبها ـ ما استطاعوا ـ من ارثهم الاسود .. حتى أن حديثهم هنا لاسرة كان في أكثر الأحيان حديثا عن الذات .. وعن همومها ومشكلاتها ومن ثم تطلعاتها .

٢ ـ الطابع المأساوي : وهو طابع الحزن والألم والتشاؤم الذي ساد أشعارهم في هذا المجال . والذي عبروا عنه مباشرة كما عند عنترة والنصيب وابن أبي فنن، أو عبروا عنه بشكل غير مباشر من خلال حديثهم الهزلي العابث كما عند أبي دلامة . وهم في الاسلوبين استطاعوا أن يدينوا مجتمعهم ، ويدينوا عاداته وتقاليده وأعرافه التي جارت عليهم فحرمتهم من حقهم الطبيعي في حياة حرة كريمـة .

---

(١) الاغاني ١/ ٣١٨

التذبذب بين الاستسلام والرفض : بين الواقع الاليم والغد المأمول .. بين الاذعان والاستسلام لهذا الواقع وبين تحديه ومن ثم رفضه .. كان يعيش الشاعر الاسود حين يريد أن يسمع صوته للعالم ... نراه يستسلم للواقع حين يكون قدرا أكبر منه وأشد منه قوة فيتأنف منه ويكرهه ويتناوله بلسانه الحاد حتى لو كان من اقرب المقربين اليه كزوجته أو أمه . لكنه لا يلبث أن يرفض ويتحدى حين يحس في نفسه القدرة على الرفض والتحدى . فعنترة حين يجد في زبيبة — أمه — أمة سوداء تشبه الضبع ، ويرى نفسه بلا نسب بعد أن تخلى عنه أبوه ، يجد — في بادىء الامر — الحلب والصر عملا طبيعيا لعبد مثله، لكنه يرفض الاستكانة والاستسلام للامر الواقع الذى ورثه عن أمه، حين يرى في نفسه من صفات البطولة والشجاعة ما يدفع قبيلته للاستعانة به في الطعنات .. عند ذاك يرفض العبودية ويبحث عن حريته الضائعة التي يجدها في سيفه المسلول ، وفي شجاعته وبطولته وكرم أخلاقه ، وبالتالي يرفض أن يقف نسب أمه الوضيع حاجزا طامحا بينه وبين آماله .. وتتكرر صورة الرفض هذه عند سحيم لما قد يشعر في نفسه من صفات البطولة في الوقت الذى لا يرى فيه قومه سوى أنه عبد أسود ابن أمة سوداء فيقول :

فان تقتلوني تقتلوا ابن وليدة وان تتركوني تتركوا أسدا وردا

ومن خلال هذه التجربة الذاتية برزت شخصية الشاعر الأسود أكثر وضوحا وتمييزا ، حين عبر بصدق وصراحة عما يدور في داخله ، وعما يجرى في اسرته السوداء الصغيرة التي كان حديثه عنها حديثا عن نفسه .. فحديثه عن "الأنا" كان حديثا — في الوقت نفسه — عن "الغير" التي ينضوى تحت لوائها المقهورون والمعذبون من هذه الفئة التي اصطلحنا على تسميتها بالفئة السوداء. فجذور المشكلة واحدة ، وخطوطها واحدة ، ونتائجها — بالتالي — عليه وعلى غيره من أفرادها واحدة ايضا ، وهو حين تحدث عنها كان الاكثر احساسا بمتاعبها وهو الشاعر المرهف الاحساس ، والاكثر قدرة على الدفاع عنها .. والذى لم يجد أفضل من الشعر ليفرغ بين كلماته وقوافيه كل ما لديه من شحنات عاطفية وعقلانية دارت في محاور كثيرة كان أهمها المحاور الثلاثة التي مررنا بها، والتي تركزت في عقدة اللون والنسب والحب ، والاسرة . ومن كل محور كانت تتفرع فروع جزئية اخرى . فقد وجدنا في الحديث عن المشكلة الاولى شكوى ومرارة ، كما وجدنا فيها حديثا عن جذور هذه العقدة ونتائجها المتمثلة في الفقر والحرمان ، في الصراع الطبقي . حتى أننا نستطيع أن نرى من خلالها ملخصا لحياة السود لأنها المحور الاكثر اهمية ، والأعمق تأثيرا .. والذى

استوعب كل هذه العواطف المتداخلة هذه المجموعات الشعرية التي خلفها هؤلاء .. والتي اثبتت أن الشعر دائما هو المتنفس لما في داخل المرء .. لا سيما هذا الانسان المرهف الذى زاد في حدة احساسه شعوره بالظلم لذنب لم يرتكبه .. وللسبب نفسه وجد فيه هؤلاء عزاءهم، كما وجدوا فيه سبيلا للثورة على أنفسهم وعلى أسرتهم أحيانا .. وعلى مجتمعهم الكبير في اكثر الاحيان . المجتمع الذى لم يشأ أن ينظر اليهم الا نظرة فوقية باعتبارهم طبقة أدنى .. وباعتبارهم رعايا غرباء عنه ... حتى أن هذه النظرة كانت سببا في وقوع نوع من التصادم بين الطبقتين كان يشتد أحيانا الى درجة الثورة والتمرد والعصيان، وكان يضعف احيانا أخرى الى حد التصالح الظاهرى ، مخلفا وراءه في الاحوال كلها عواطف متنوعة متداخلة كانت تتدفق لتثور أو تكتم فتبقى في الأعماق .

وهذه التجربة الذاتية للسود على عمقها وغناها ، وسعة المساحة التي احتلتها ، لم تلغ دور التجربة الجماعية لهم ، وان كانت قد عملت على تصغير مساحتها والتقليل من عمقها وأهميتها ودلالتها ـ بشكل خاص ـ على عالمهم الحقيقي . فالسود كانت لهم تجربتهم الجماعية التي كانت سلبياتها ـ وهي الغالبة ـ سببا في لجوئهم الى الداخل ، الى ذواتهم .. حتى أننا نستطيع أن نرى فيها الوجه الآخر لتلك الذات .. اذ " ليس في الحياة الخلقية وجود شخصي مغلق على ذاته أو شعور ذاتي منعزل تماما عن كل شعور آخر ، بل هناك تداخل أولى بين "الذات" "والآخرين " أو بين قطبي " الأنا " و "الغير " (١) ورغم غنى التجربة الذاتية ودلالتها الروحية والمعنوية ، ورغم أن " الحياة الانسانية في جانب من جوانبها حياة باطنة لا بد لكل ذات من أن تحيا لحسابها الخاص " . (٢) الا أن في سياق الحياة الاجتماعية التي تعيشها الذات ، والتي هي قائمة على تبادل التأثر بها والتأثير فيها . لا بد من أن تعيش هذه الذات حياتها الاجتماعية مهما كان نوع التبادل القائم بين الاثنين ومهما كانت درجة التأثر أو التأثير بينهما . وهذا ما ينطبق على حياة هذه الفئة من الشعراء باعتبارهم يشكلون مجتمعا صغيرا يعيش داخل المجتمع الغريب عنهم في كل شيء . ومن خلال تجربتهم الذاتية استطعنا أن نتلمس العلاقة المتبادلة بين السود وعالمهم الاول الصغير ، خاصة ان الشاعر الأسود كان يحمل ـ كما قلنا ـ أزمته الخاصة ـ التي هي في الوقت نفسه أزمة طبقته كلها ..

---

(١) مشكلات فلسفية / المشكلة الخلقية د . زكريا ابراهيم / ٩٠

(٢) المصدر نفسه / ٢٣٩

وحتى تكتمل الصورة لا بد أن نتلمس العلاقة المتبادلة بين هؤلاء ومجتمعهم الثاني الكبير الذى عاشوا في زاوية منه .. وحاولوا — بشتى الوسائل — أن يرتفعوا اليه متجاوزين مجتمعهم الاول في محاولة للارتفاع الى مصاف المواطنين الاصليين . الا أنها محاولة انتهت بهم الى التمزق والتشتت فلا هم قبلوا التأقلم مع عالمهم الاول ولا المجتمع الآخر قبلهم كمواطنين من الدرجة الاولى بل قبلهم بالولاء على اعتبار أنهم رعايا صرح لهم بالاقامة تصريحا مشروطا بالالتزام بقوانينه ومعاييره مهما حطت وتحمل من جور وظلم وتعسف .

وملاحظة مسيرة الشعر الاسود الممتدة منذ العصر الجاهلي حتى العباسي بخطوطها الظاهرة منها والخفية، ثم العلاقة المتبادلة بينه وبين مجتمعه ، ومعاناة الشاعر الاسود التي تظهر جلية واضحة في شعره .. تجعلنا نضع في الاعتبار دائما نقاطا يصح أن نجعلها مرتكزا ارتكزت عليه اسس هذه العلاقة ، ومن ثم النتائج المترتبة على نوعية العلاقات المتبادلة .

١ — افتقاد الشعراء السود لاهم صفة من الصفات التي كان يرتكز عليها المجتمع وهي " النسب " فقد كانوا صفر اليدين في هذا المجال .. وواجهتهم للمجتمع دون أدنى خلفية من هذا الارث حرمتهم من حق تجنسهم بجنسيته لذلك ظلوا رعايا بل بالاحرى لاجئين .. ولم تكن سبل الحياة متوفرة لهم الا عند الناس . ولم يكونوا بالتالي اشخاصا فاعلين في ذلك المجتمع بل منفعلين بحكم الضغوط التي فرضت عليهم ضريبة لجوئهم . ورغم أن بعضا منهم كان يحمل من جهة أبيه ارثا من شرف النسب .. الا أن هذا لم يغير في الامر شيئا لاننا رأينا أن هذا الأب هو نفسه الذى حرمهم حق الانتساب أو الادعاء بنسبه - فشداد أرغم مكرها أمام مصلحته ومصلحة قبيلته على قبول الاعتراف ببنوته لعنترة رغم أن هذا الاعتراف لم يبدل — فعليا — من نظرة المجتمع اليه ، ولم يمكنه بالتالي من العيش كمواطن عادى له حقوق وواجبات المواطنين الآخرين. وهو في أغلب الأحيان ابن زبيبة أو ابن الاطايب، فهو لقب له وقت الحاجة الى خدماته كفارس وبطل لا يجارى . والحال هي نفسها مع خفاف .. وخفاف " صحابي شهد فتح مكة مع النبي ومعه لواء بني سليم وشهد حنينا والطائف وهو أحد فرسان قيس وشعرائها " . (١) وهو في الوقت نفسه ابن لأب من أشراف القوم هو عمير بن الحارث بن الشريد .. وهذا كله لم يخلصه من اللقب الذى

---

(١) خزانة الادب ٤/ ١٥

اشتهر به وهو لقب " ابن ندبة " ، ولم يخف شعوره بالظلم الذي كان يلحقه من جراء ذلك :

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم (١)

ومن نسبوا الى امهاتهم كان ابن شكلة .. ابراهيم بن المهدي .. الذي لم تنفعه أبوة الخليفة المهدي، ولا اخوته للرشيد، ولا قرابته للأمين والمأمون والمعتصم رجال الحكم في الدولة العباسية . حتى الخلافة التي توصل اليها لم تأته طواعية ومكافأة له بل جاءته مصادفة ، وربما وجد فيه رجال السياسة آنذاك وجها يتحدى المأمون حين " جد في تجديد العهد لعلي بن موسى بن جعفر ، وتقدم الى الفضل بأخذ البيعة على الناس .. دب الهاشميون بعضهم الى بعض ، وخلعوا المأمون وعقدوا الأمر لابراهيم ابن المهدي . " (٢) وهذا ما أشار اليه أحمد أمين في ضحى الاسلام حين أكد على خلع المأمون من الخلافة " غضبا من فعله ومبايعة ابراهيم ابن المهدي "(٣) ولم يكن لقبه " ابن شكلة " الا امعانا في تجريحه ..

وتنسيب السود الى امهاتهم — رغم كون آبائهم من الأحرار .. ومن زعامات القوم لم يكن الا صورة من صور الاهانات التي لحقت بهم .. بل أشدها امتهانا لكرامتهم واذلالا لنفوسهم . واذا كان هؤلاء ممن لهم بارقة أمل في حياة حرة قائمة على اساس من العدل وتكافؤ الفرص، لما يحظونه من نسب الأبوين فروسية وبطولة يشهد لهم بها . فما بالنا بتلك الفئة المغلوبة على امرها ممن كان اصحابها عبيد الابوين؟ .. وما مر معنا من تجاربهم الذاتية الحزينة الا رد فعل طبيعي لنوعية الحياة الخانقة التي كانوا يعيشونها .

٢ — كان أكثرهم بعيدا عن دائرة الضوء التي تشمل القصر ومن يلوذ به ، يمنعهم من الاقتراب عوامل شتى تعود برمتها الى العامل الأول ، هذا العامل هو نفسه الذي منع نصيبا من أن يكون نديم الخليفة وسميره حين وجد فيه الخليفة من الشاعرية الفذة ، والطبيعة السالمة ما يؤهله لحرفة النديم رغم سواده .. فلقد دخل ذات مرة على عبد الملك بن مروان فتغدى عنده . ولما طلب الخليفة منه ما يتنادم عليه اجابه نصيب : " تؤملني ؟ ... لوني حائل ، وشعري

(١) شعر خفاف

(٢) الوزراء والكتاب / ٣١٢

(٣) ضحى الاسلام / ٢٩٤

مقلفل وخلقتي مشوهة ، ولم أبلغ من اكرامك اياى بشرف أب أو أم ، أو عشيرة ٠٠ وانما بلغته بعقلي ولساني ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك ٠ " (١) وهذه الاخلاقية التي تحلى بها نصيب من خلال قصته مع الخليفة تفاجأ بها في جو كان الجميع فيه يتسابقون الى التملق وكسب ود الطبقة الحاكمة ، حتى ضاعت شخصية الشاعر العربي في كثير من الاحيان في ثنايا هذا المدح الذى يقوم في الدرجة الاولى على التكسب وتحقيق الأغراض الشخصية ٠٠ ولم يكن موقف نصيب هذا تجاه الخليفة فقط ٠٠ فالحال نفسها مع نسوة قدمن اليه لسماع شعره ٠٠ وهو يقول لمن نقل اليه هذه الرغبة : " وما يصنعن بي ، يرين جلدة سوداء وشعرا أبيض ولكن ليسمعن شعرى من وراء ستر " ٠ (٢) والأمر يختلف عند أبي دلامة الذى كان دائما قريبا من القصر ومن الخليفة وآله ٠٠ الذى وجد في الظرف والفكاهة مجالا للمنادمة والتكسب ، وربما حمل تحت هذه المظاهر حقدا وكرها للمجتمع المتمثل بالقصر والحاشية ، خبأه تحت ستار من الهزل والسخرية الملونة بالفكاهة والمرح ٠٠

وان وجد بين هؤلاء من حاول الاقتراب من دائرة الضوء ٠٠ وتهيئة مكان مناسب له ضمنها ، لقي المعارضة العنيفة من المجتمع ٠٠ فالخروج على قوانينه الموضوعة يعاقب عليه عقابا ينتهي في أكثر الاوقات الى القتل والتمثيل ٠٠ وفي بعض الاوقات لمواقف مخزية تبغي التشهير بصاحبها ٠٠ وليس أدل على ذلك من النهاية المفجعة لاحمد بن علي الرشيد النسائي حين " سمت نفسه الى الخلافة فسمى اليها ، وأجابه قوم فسلدوا عليه بها ، وضربت باسمه النقود " (٣) ٠ ولم يدم الامر طويلا حتى جاءت النهاية المخزية المحزنة حين أُخرج من الاسكندرية " على جمل وعلى رأسه طرطور ووراءه جلواز ينال منه، ثم صلب شنقا [illegible] الأثر " (٤) حتى أولئك الذين ابتعدوا عن دائرة الضوء ، وأرادوا أن يمارسوا حياتهم بشكلها الطبيعي كأى فرد ، وتطلعوا من خلال ذلك الى الحرية والى الحياة المشرقة ، الى الحب والطمأنينة النفسية ٠٠ هؤلاء لم تكن نهايتهم

---

(١) الاغاني ٩/ ٢١٩ — العقد الفريد ١/ ٢١٨
(٢) الاغاني ١/ ٣٢١
(٣) الاعلام ١/ ١٦٨
(٤) الاعلام ١/ ١٦٨ — معجم الادباء ٤/ ٥٧ — ٥٨

أسعد حظا من أولئك •• طالما أنه حكم بالوأد على حريتهم وعلى حبهم وعلى حياتهم ••

٣ ـ كانوا وهم يعبرون عن ذواتهم وعن مجتمعهم يمثلون التيار الشعبي بكل بساطته وعفويته وصراحته •• بفقره وضنكه وتعاسته •• هذا التيار الذي كان يعيش حياته الخاصة وسط المجتمع الكبير ، ويسلك أكثر من طريق لتأمين سبل الحياة ولو بأبسط صورها •• فقد يحترف بعضهم التكسب صراحة ليضمن صفاء الحياة •• في حين يرى البعض الآخر في الكسب غير المشروع سبيلا للعيش كما فعل نصيب الأصغر حين اختلس مبلغا من المال وسجن بسببه •• على أننا لا نعدم بعضهم من أخجلته الزيادة في الاعطيات الواردة من القصر كما حدث مع علي بن جبلة حين كان يلاقي البر والاكرام من ابي دلف حتى اضطر يوما الى الانقطاع عنه لما رأى من افراطه في برّه فقال :

هجرتك ولم اهجرك من كفر نعمة	وهل يرتجي نيل الزيادة بالكفر
ولكنني لما أتيتك زائرا	فأفرطت في بري عجزت عن الشكر
فمن الآن لا آتيك الا مسلما	أزورك في الشهرين يوما وفي الشهر
فان زدتني برا تزايدت جفوة	ولم تلقني طول الحياة الى الحشر (١)

والفقر بمآسيه وآلامه ما هو الا الوجه الطبيعي لهذه الفئة الدنيا من الشعب المحكوم •• ولذلك كان محور أشعارهم التي كانت المتنفس الحقيقي لتلك المآسي والآلام •• وهم بذلوا في سبيل الخلاص منه كثيرا من جهدهم وكرامتهم طلبا للحياة أولا •• وسبيلا لعتق النفس والأمل ثانيا ••

٤ ـ نتيجة لما سبق نستطيع أن نخلص الى تحديد موقفهم من هذا المجتمع وطريقة التعامل معه •• بعد أن لمسنا موقف المجتمع السلبي منهم ، ونظرته الطبقية اليهم ، والتي نتج عنها تحديد للمنطقة المسموح التجول ضمنها والمناطق المحرم عليهم دخولها •• فاذا شاركوا في قضايا الساعة المطروحة في مجتمعهم ، واذا ما تفاعلوا وانفعلوا بتلك القضايا فلتكن مشاركتهم محصورة ضمن الاطار المرسوم لهم في القصر •• وضمن الساحة التي كانت في عداد املاكهم ولكن وفق شروط ايضا لا يجوز تجاوزها •• وأبرز ما ضم هذا الاطار من موضوعات كانت تتجمع وتتلخص في :

---

(١) الشعراء السود / ١٧٤

١ ـ المـدح :

ان يمدح الانسان شخصا ما يعني ذلك أن يظهر حسن ثنائه له ، واظهار هذا الثناء يتطلب قناعة المادح بممدوحه وصفاته وأخلاقه ، ليستطيع أن يعبر من خلال الكلمة الشعرية عن اعجابه بتلك الصفات ولكن .. هل يقوم المدح دائما على القناعة؟ وهل هو نتيجة طبيعية لحصول هذه القناعة في نفس المادح؟ . الأمر الطبيعي أن يأتي هذا المدح نتيجة لحصول هذه القناعة .. كما حدث مع زهير بن أبي سلمى الذى خلف أروع وأصدق ما قيل في المديح من خلال شعره في الحارث بن عوف والهرم بن سنان، فقد هزت كيانه محاولتهما السلمية لاصلاح ذات البين بين القبيلتين المتحاربتين وايقاف نار الفتنة .. وقد يحدث عكس هذا حين ينطلق لسان أحدهم في مدح سلطان أو خليفة ليس فيه ما يمدح سوى انه صاحب منصب والفائدة المرجوة من هذا المنصب . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد ، حتى ضاق الشعر على رحابته بهذا الفن ، فكان سببا في ضياع شخصية الشاعر المتميزة من خلال ذوبانها في ثنايا امديحه .

والرغبة في اظهار المناقب والمدح صفة طبيعية في الانسان عموما ، اذ يبين علم النفس الحديث حاجة الانسان الى أن يُمدَح ويَمدَح ، وان يُعجِب ويُحَب ، كنوع من الاعجاب المتبادل حين يقوم على أسس نفسية بحتة قبل أن يقوم على معطيات أخرى تتعلق بشخصية الممدوح أو الشاعر المادح نفسه . وانطلاقا من هذه الفكرة وجدنا الكثير ممن مدحوا غيرهم ثم مدحوا أنفسهم فكان فخرا بهذا النفس وبصفاتهم ، حتى غدا الفخر أيضا فنا قائما بذاته ذا أبعاد ..

واذا ما حاولنا استكشاف كنه هذه العلاقة بين الشعراء السود ومجتمعهم ، وبالتالي بينهم وبين من تزعّم ذلك المجتمع ، ولا سيما أصحاب السلطة وجدنا أن طبيعة هذه العلاقة بين الطرفين كانت تقوم على أسس معينة ، وتتصف بصفات محدودة حتى وجدنا المدح عندهم له مذاقه وطعمه الخاص، وله مواصفاته الخاصة ... وتجربة السود في هذا المضمار غنية على ما تتصف به من شمول وجماعية لا نها تمثل علاقتهم بالمجتمع .. وهي الى جانب ذلك تعكس شيئا من ذواتهم التي توحي لهم بنوعية واسلوب التعامل مع الآخرين .. وبتظافر الدافع الذاتي مع ظروف البيئة ليعطيان مدحا جديدا يختلف باختلاف الدوافع والظروف ..

١ ـ فقد وجدنا بين هؤلاء من استطاع من خلال هذا الفن الهروب من واقعه الأليم والحصول على قدر أكبر من الامتيازات في مجتمع كان يقوم برمته على هذه الامتيازات .. فاقترب شيئا فشيئا من دائرة الضوء حين خلدّ بمديحه شخصا معينا من شخصيات المسرح السياسي . ولا بأس بعد ذلك من اقتران اسم الشاعر باسم الممدوح حتى أنه ينسب اليه كما نسب نصيب الأكبر الى عبد العزيز بن مروان الذي فتح له باب القصر على مصراعيه وقربه منه .. وأراد في وقت من الاوقات أن يجعل منه نديما وسميرا له في صحبته ، وان يستبد له بالعزيز من ندمائه القدامى كأيمن بن خريم ، رغم المكائد التي نصبت وحيكت للحيلولة دون وقوع ذلك ، والتي حاولت ابعاد الشاعر عن ممدوح آخر أخلص له هو عبد الله بن جعفر الذي أكرم وفادته وأمر له ببذل كثير وكسوة شريفة ، وحين سئل عن فعله هذا مع عبد أسود قال : " أما لئن كان عبدا ان شعره لحر ، ولئن كان اسود ان ثناءه لأبيض ، وانما أخذ مالا يفنى ، وثيابا تبلى ، ورواحل تنضى ، واعطى مديحا يروى ، وثناء يبقى . " (١)

ومن جميل ما قاله النصيب في عبد العزيز بن مروان حين دخل اليه في مصر :

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم منن غامره
وكلبك أرأف بالزائرين	من الأم بابنتها الزائرة
وكفك حين ترى المعتفين	أندى من الليلة الماطرة (٢)

والابيات التالية في مدح سليمان بن عبد الملك تعتبر من غرر المدح لما فيها من جليل المعاني وصدقها :

أقول لركب قافلين رأيتهم	قفا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان انني	لمعروفه من آل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذي انت أهله	ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب (٣)

ومن شارك نصيب في الشهرة من خلال أماديحه الشاعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك .. وأماديح علي في ابي دلف العجلي طوقت شهرتها الآفاق حتى

---

(١) العقد الفريد ١ / ٣١٨

(٢) شعر نصيب / ٩٩ ـ معجم الادباء ٨ / ٢٢

(٣) شعر نصيب / ٥٩

كانت بالنسبة اليه سيفا ذا حدين .. مثلما شعره في حده الاول،كان سببا في قتله وفي "اخراج لسانه من قفاه " (١) في الحد الثاني .. والابيات التي كانت من وراء قتل الحكوك .. وسببا في نهايته الفجعة الاليمة هي ما قاله في مديح ابي دلف العجلي :

انما الدنيا أبو دلف ولت الدنيا على أثره
كل من في الارض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة يكتسيها يوم مفتخرة (٢)

(٢) وقد نجد من بين هؤلاء الشعراء من اتخذ من المدح وسيلة للتكسب المادى . وأراد من ذلك أن يخلص نفسه وأهله من الفقر والتشرد والحرمان فاتصل بالبيت الحاكم ونال لقب " مداح الخلفاء " من هؤلاء نجد نصيب الأصغر مولى المهدى ، الذى كانت احدى اماديحه التي استعطف من خلالها الخليفة سببا في الابقاء على حياته من بعد تصميم على موته بسبب سرقته لمبلغ من المال كان قد أرسله معه المهدى الى اليمن لشراء الابل ،ولما دخل على الخليفة المهدى موثقا بالحديد قال له من قصيدة يستعطفه فيها :

تأوبني ثقل من القيد موجعُ فأرقَّ عيني والخليّون هُجّعُ
هموم توالت لو ألمَّ يسيرُها بسلمى لظلت صمّه تتصدع (٣)

ثم يختم القصيدة طالبا فيها نجدته مما هو فيه فيقول :

واني لمولاك الذى ان جفوته اتاك سكينا خاضعا يتضرع

وينتهي الموقف بالعفو عنه واطلاق سراحه ثم وصله صلة لم تنقطع حتى بعد وفاة المهدى، وانما اكتمل واستمر بمجيء هارون الرشيد ،كما استمرت اماديحه هو فيه منها تلك القصيدة التي يبدؤها بالنسيب :

خليلي . اني لا يزال يشوقني قطين الحمى والظاعن المتحمل

الى أن يصل الى مدح الرشيد فيقول :

لئن نال عهد الله قبل خلافه لأنت من العهد الذى نلت أفضل
وماذاك العهد الذى نلت بسدلة ولكن بتقوى الله انت مسربل
ورثت رسول الله عفوا وفضلا وذا من رسول الله عفو ومفضل (٤)

---

(١) نهاية الارب ٢/١٨٦
(٢) المصدر نفسه ٤/٢٢١ـ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤
(٣) معجم الادباء ٢/٢٣٤
(٤) الاغاني ٢٢/٤٠٠

ومن بعد المهدي والرشيد وجد في البرامكة بحرا لا ينضب ، وكنزا لا يفنى من العطاءات .

٣ ــ كما وجد بعضهم في سلوك هذا السبيل مجالا للدفاع عن سياسة التوجيه، وولاء لدولة أحب أن يوقف أحاديثه لحكامها . فكان وفيا صادقا مع هذا الولاء ومع نفسه . وفي شخصية سديف بن ميمون نرى الولاء المنقطع لبني العباس، والعداوة السافرة للامويين . وفي القصيدة التي اخترت منها الابيات التالية يظهر الولاء والمدح مع نقيضه العداء والهجاء حين يقول سديف مخاطبا أبا العباس السفاح حين دخل اليه وبجانبه بعض من بني امية :

أصبح الملك ثابت الاساس	بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديما	والرؤوس القماقم الرواسي
يا أمير المطهرين من الذم	ويا رأس منتهى كل راس
أنت مهدي هاشم ومداها	كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلنَّ عبدَ شمسٍ عثارا	واقطعنَّ كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث انزلها الله	بدار الهوان والا تعاس

٤ ــ ثم اننا نجد بين هؤلاء وأولئك فريقا منهم متذبذبا بين الالتزام حينا من الزمن لدولة ، ثم العودة عن ذلك الالتزام بالولاء لدولة اخرى .. فكان بذلك متأرجحا بين الالتزام السياسي وبين التكسب المادي، وما يتبعه في كثير من الاوقات. فقد اتصل أبو نخيلة الراجز بادئ ذي بدء بمسلمة بن عبد الملك الذي أوصله للخلفاء واحدا بعد الآخر ، وبالرغم من أنهم اغدقوا عليه العطاء الا أنهم لم يستطيعوا كبح جماح نفسه الطامعة لذلك تركهم " وانقطع الى بني العباس ولقب نفسه بشاعر بني هاشم ومدح الخلفاء من بني العباس وهجا بني امية " (١) لكن طمعه هذا لم يقف به عند حد معين بل حمله الى أن يقول في المنصور " ارجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى " وبعقد الولاية لابنه محمد المهدي " (٢) وكانت النتيجة أن دفع ثمن ذلك حياته حين طلبه عيسى وأدركه في طريق خراسان فذبحه وسلخ وجهه .... وهذا التناقض يظهر في الموقف ، والتذبذب في العواطف يظهر جليا واضحا في شعره حين يمدح بني امية ومنهم هشام بن عبد الملك فيقول :

---

(١) خزانة الادب ١/١٢٨

(٢) المصدر نفسه ١/١٢٨

وقلت للعيس اعطي وجدّى فهي تخدّى احسن التخدى
قد ادرعنّ في مسير سمد ليلا كلون الطيلسان الجرد
الى أمير المؤمنين المجدى ربّ معدّ وسوى معد (١)
فمن دعا من أصيد وجعد ذى المجد والتشريف بعد المجد

ولا يلبث هذا الولاء أن ينتهي بانتهاء الدولة الاموية ليتجدد بتجدد دولة اخرى هي الدولة العباسية فيدخل على السفاح وينشده قائلا :

حتى اذا ما الاوصياء عسكروا وقام من تهر النبي الجوهر
ومن بني العباس نهج أصفر ينميه فرع طيّب وعنصر
أقبل بالناس الهوى المستهور وصاح في الليل نهار أسور (٢)

ونتيجة لهذا التذبذب في الولاء وصف بأنه قليل الوفاء (٣)

وبصورة عامة ، ورغم ما تقدم من أماديح الشعراء السود ، فاننا لا نعدم بينهم من لم ير في نفسه صدى لهذا الفن ، ولم ير بالتالي فيه حلا لمشكلاته ... فابتعد عنه قدر المستطاع ، لانه كان يحس في قرارة نفسه أن مشكلة وجوده الانساني والاعتراف به على قدر من المساواة والعدل الاجتماعي ، قضية أكبر واعمق من ان تحل بهذه المبادلة ، وأعقد من أن تنتهي عند الحدود التي تبدأ لحظة الدخول في باب القصر .. لذلك لم يشغل نفسه بمدح هذا أو التقرب من ذلك ..

الهجاء : اذا كان المدح عند الشعراء السود يمثل بعضا من علاقتهم الاجتماعية بكل اعتباراتها .. فان الهجاء ، وهو النقيض اللغوى للمدح ، على ما فيه من تقصد وتعريض وهجوم ، فانه يمثل العلاقة السلبية التي تعامل الطرفان على أساسها . فهذا المجتمع برفضه مبادىء العدل والمساواة وسيادتهما على المجتمع بغض النظر عن اللون والشكل والانتماء ، كرس في نفوسهم حقدا وكرها كانا ينتظران اللحظة المناسبة للظهور ، متخذين أشكالا ومظاهر متعددة كانت تتغير بتغير طبيعة كل منهم .. وطبيعة الظروف التي تحيط به ، والتي كانت واحدة في كثير من الاحيان ، وما الهجاء عند هؤلاء الا القالب المناسب الذى سكبت فيه انتقاداتهم واحتجاجاتهم التي وجهت للمجتمع والتي كانت السبيل المفتوح امامهم للتنفيس عما في داخلهم ، ولذلك نرى هذا الفن

---

(١) خزانة الادب ١/١٢٨ الاغاني ٢/٢٦٦ وسمدت الابل = جدت في السير
(٢) الاغاني ٢/٢٨٦ — المستهور = وردت ايضا المستهر
(٣) خزانة الادب ١/١٢٨

الشعرى يختلف في كثير من مواصفاته مما هو عليه عند الشعراء الآخرين ، وهو يختلف على الاقل في الغاية والهدف • وهذا كله لأن يعطيه طابع النضال والرفض السلبي ضد مجتمع بعينه يمثل قيما ومبادئ تلحق بهم الهوان والذل والتشرد والفقر •• وما الى هنالك من الوان العبودية •• لذلك نراه يرتكز على أسس معينة نستطيع اجمالها فيما يأتي :

١ ـ الهجاء عند السود في مجمله تعبير عن عميق سخطهم على مجتمعهم •• وربما كان في كثير من الاحيان انتقاما منه ، وتفجيرا للضيق المكبوت في داخلهم • حتى أنه تحول عند بعض منهم – ممن لم تتناوله هذه الدراسة – الى سلاح فتاك في وجه المجتمع الذى رفض وجودهم الانساني •

٢ ـ وكما كان في هجائهم ادانة لمجتمعهم ، كان فيه ايضا ادانة للسهم المتمثل في السواد والعبودية •• حتى اننا كنا نحس في ادانتهم هذه الآلام الدفينة التي تكاثفت وكبتت الى ان تفجرت قنبلة تطايرت شظاياها حتى لمست نارهما اقرب المقربين اليهم •• فقد مرت بنا صورة زبيبة التي تشبه الضبع في بشاعة شكلها وسوادها ، ثم صورة اسرة النصيب •• وابي دلامة •• ثم صورة سحيم التي تشبه الكلب أو هي دونه ••

٣ ـ وقد يتخذ الهجاء عند بعضهم منحى شخصيا عندما يهجو الشاعر الاسود خصما له ، كما حدث عند خفاف بن ندبة الذى ترك وراءه مجموعة من الاشعار تدور برمتها حول هجاء العباس بن مرداس واظهار مثالبه ومن هذه الابيات قوله :

أرى العباس ينقص كل يوم ويزعم أنه جهلا يزيد

وفي مكان آخر يقول له :

أعباس أما كرهت المعروب فقد ذقت من عضها ما كفى (١)

٤ ـ او يتجه اتجاها سياسيا كأن يناصر الشاعر منهم حزبا معينا ضد حزب آخر فيصير هذا الهجاء سلاحا ماضيا في وجه المناوئين •• وقد رأيناه في شعر سديف بن ميمون خير مثال على ذلك • فقد كان سديف هذا شديد العصبية لبني العباس ضد بني امية •• ولذلك سلط هجاءه عليهم ، وكان يحملهما طابع العنف الحدوى الذى يودى بحياة البقية الباقية منهم متمثلة بسليمان ابن عبد الملك وابنيه فهو حين يراهم في البيت العباسي مقربين من صاحبه

---

(١) شعر خفاف ،

تسوؤه الصورة فيحرّض الخليفة عليهم قائلا له :

لا يغرّنك ما ترى من رجال ... انّ تحت الضلوع داءً دويّا

فدع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

وفي الطرف الآخر يقف ابو العطاء السندى الذى تذبذب في موقفه بين الولاء لحزبي الامويين والعباسيين وفق الحاجة . ومما قاله في هجاء بني امية مادحا - في الوقت نفسه - خصومهم :

انّ الخيارَ من البريّة هاشم ... وبنو أُمية أرذل الاشرار

وبنو امية عودهم من خِرْوَع ... ولهاشم في المجد عود نضار

أما الدعاة الى الجنان فهاشمٌ ... وبنو امية من دعاة النار

وهو في هجائه هذا ينال من ايمان بني امية فيعتمد بذلك الاسس الاسلامية الاولى لتقييم الانسان عموما ..

ومجمل القول في هذا الفن عند شعراء هذه الثقافة انه الى جانب الغاية التي يضعها الشاعر منهم نصب عينيه في النيل من العدو وتجريحه . فهو يحمل كثيرا مما كان يؤلمهم ويعذبهم ويرهق كاهلهم . ولا أدل على ذلك من شاعر تذهب به الظروف وتشاء به الاقدار الى أن تكون امه أو أحد أفراد أسرته القريبين هي مجال النيل والتجريح من قبل هجاء الام - التي كانت سببا في حياته - أو أحد أفراد الاسرة الآخرين ليس بأمر طبيعي فيما لو لم يكونوا مصدر هذا العذاب .. او على الاقل يشاركون في تحمل جزء من مسؤولية الحياة المظلمة التي عاشوها ويعيشونها هم وأهاليهم .. وفيما لو لم يكن الأمر كذلك .. فهل كانت هذه الام سهلة التناول بهذا الشكل الأليم ؟ ...

الفصـــــل الثـالـــــث

خصائص الاسلوب عند الشعـراء السود

كثيـر مـن النقـاد يـرى "أن خير تعريف للأدب لا يعطى الا بتهيئة المعلومات الصالحة عن أصوله النفسية • " (١) وحين يبحث ورد زورث عن كيفية توخي الشاعر لعطية الخلق فيتساءل : " ما الـذى تعنيه كلمة شاعـر؟ من هو الشاعـر ؟ ولمن يتوجه بشعره ؟ •• وأى لغة ترجى منه ؟ " ثم لا يلبث أن يجيب على أسئلته قائـلا : " الشاعر انسان يتحدث الى أناسي ، الا أنـه انسان وهب قسطـا من الحساسية الحية أكثر من بنائـر الناس ، وحماسة أشـد ورقة أعظم ، ومعرفة بطبيعة الانسان أشمل • " (٢) فان ذلك يشير الى وجود رابـط بين الاديب وأدبه وبين الفنان وفنـه • والشاعـر عموما مرآة تعكس أوضاع الذات كما تعكس أوضاع المجتمع •• وبقـدر ما يكون الانعكاس قويا ، بقدر ما يستطيـع أن ينقل الينا صـورة أكثر دقة ووضوحـا •

على أننا نجـد في الطرف الآخر آراء تناقض ما سبق •• فلم يكن الادب عند ما " محض نسخـة عن الحياة " لانـه قد يجسـد " حلم الاديب لا واقع حياته أو قـد يكون القناع او النقيض الـذى يختفي وراء شخصـه الحقيقي ، أو قد يكـون صـورة من الحياة التي يريد الأديب أن يهرب منها • " (٣)

والايمان المطلق بأحد هذين الرأيين تجنّي على الادب والأديب • فالأدب بطبيعة تكوينه •• وكونه نتاج انساني لا يدخل ضمن التعريفات الجاهزة وكفى •• فهو لا يستطيع الا ان يتأثر بدرجات متفاوتة لما في داخل الكاتب متأثرا بعامليـن اثنين •• العامل الوراثي ، والعامل المكتسب من الخـارج ومن المحيط •• وحيـن يعيش الصراع الداخلي قويا في أعماق الأديب لا بد ـ آنئذ ـ من أن يؤثر في النتاج وان يدير القطعة الادبية لا سيما الشعرية الوجهة التي يريدهـا •• والشاعـر •• بشكل خاص ـ وفي اغلب الاحيان " يعبّر في تجربته عمّا في نفسه من صراع داخلـي سواء أكان تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو أم عن موقف انساني عام تمثله •• ومهما تكن التجربة عاطفة شعورية ، فانها لا تعزف تدل عن الفكر الذى يصحبها ، وينظمها ، ويساعد على تأمل الشاعر فيهـا • " (٤) فأين يقف الشاعر الأسود من هذين الرأييـن ؟ ••

---

(١) مناهج النقد الادبي = . ديفد ديتشز / ٥٢٤
(٢) المصدر نفسه / ٥٢٥
(٣) المصدر نفسه / ٥٠١ ـ ٥٠٢
(٤) النقد الادبي الحديث / محمد غنيمي هلال ٣٨٣ ـ ٣٨٤

وما هو سبيله للافصاح عن الصراع الداخلي والخارجي الذي لمساه في تجربته الذاتية والجماعية ؟ ... هذه التجربة التي دفعته واخوته دفعا لان يعيشوا تناقض مجتمعهم والصراع الناتج عن هذا التناقض بأشد صوره . والتي وجهت أشعارهم في هذا المضمار ، فكانت في أكثرها صدى لطفولتهم المعذبة ، ولشبابهم المهان .. ولكهولتهم المسحوقة .. رأينا فيها الفقر الذي قتل طموحاتهم وأدمى آمالهم ، ورأينا فيها الآلام التي فتكت بأجسادهم وبأرواحهم . كما رأينا فيها الدواء المسكّن لهذه الآلام لان الشفاء والبرء كانا مستحيلين . لم تكن اشعارهم مجرد اطار جميل للوحات ترسم الجمال .. ولم تكن مجرد لغة تحمل المعاني المعجمية بحرفيتها .. كما أنها لم تكن عبارة عن قوالب جامدة غايتها المحافظة على الحدود المتعارف عليها من الأزل للشعر .. أشعارهم كانت تضج بالحركة ، فعّالة ومنفعلة .. كانت طوقة تتأثر بالضوء الخارجي وتضيف اليه ألوانا من ذاتها ، وباختصار كانت " جميع ما يحتشد من روابط ونغمات مستمدة من جميع انواع الشهوات والتطورات وصور الفكر والتقاليد البلاغية وأشياء أخرى . " (١) وهم في ذلك كله مؤمنون - عن قصد أو غير قصد - بالتزام الشاعر و " وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في قضايا قومه الوطنية والانسانية ، فيما يعانون من الآم ويبلون من آمال . " (٢) ولكنهم ربما اختلفوا عن غيرهم من الملتزمين في طريقة الاداء التي سميت اصطلاحا الاسلوب فعرف بأنه " طريقة الانشاء أو طريقة اختيار الالفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد الايضاح والتأثير . وهو باختصار طريقة التفكير والتصوير والتعبير " (٣)

واللفظ والمعنى هما الركنان الاساسيان في اي عمل شعري . يضاف اليهما الخيال الذي يصور به الشاعر انفعاله وعواطفه .. ثم الوزن والقافية ولا بد أن تتوفر هذه العناصر مجتمعة في العمل الادبي لا سيما الشعري .. أما مدى اعتماد الشاعر أو الكاتب على اي منها واهتمامه بها على حساب غيرها من العناصر .. فهذه حريته شرط ألا يخل بالعمل الفني ككل ...

وقد شغل الادباء بمسألتي اللفظ والمعنى كثيرا وكانوا بين مؤيد لاحد العنصرين ومعارض .. " ولم يكد يخرج النقد العربي عن هذه الحدود في علاجه مسألة اللفظ والمعنى فقد عالجها على اساس المقابلة بين كل منهما " (٤) فمنهم من

---

(١) مناهج النقد الادبي / ٥٠٥
(٢) النقد الادبي الحديث / ٤٨٤
(٣) الاسلوب / احمد الشايب ٤٤ - ٤٥
(٤) النقد الادبي الحديث / ٢٥٣

رجح جانب المعنى مفضلاً شأن اللفظ ، وآخرون اهتموا باللفظ على حساب المعنى ، " ايماناً منهم بأن الاولين استغرقوا المعاني وأتوا على معظمها • " (١) لكننا مع ذلك لا نعدم من وزان بين العنصرين وساوى بينهما ، الى أن جاء من " نظر الى الالفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام • " (٢) فاذا كان العمل الادبي يقوم على دعامتين اساسيتين هما فكرة الادب وصورته فان هذا لا اثر له ان لم تنضم اليهما دعامة اخرى هي " المطابقة والتناسب بين الصياغة والمضمون من جهة وما يتصل بالعمل الادبي وجوه من ناحية الغرض والموضوع وقارئ الادب والمستمع اليه من جهة آخرى • " (٣)

ومهما تعددت الآراء في هذا المجال •• وتعددت الأساليب •• فان للشعراء السود اهتماماتهم الخاصة في هذا الجانب • حتى أن اشعارهم وسمت بميسم خاص ، واستطاعت ان تضفي على الشعر العربي بريقاً من نوع خاص ليس بذلك البريق الممذى يخطف الابصار منذ اللحظة الاولى • لكنه ذاك البريق الهادئ الذى يميط اللثام عن الليل الطويل الذى عاشته طبقة كان حظهما من الحياة زاوية معتمة تعيش فيهما ، ولا يسمح لها بتجاوزها الا بجواز مرور •• وهي وان تجاوزتها فهو تجاوز مشروط ومحدود • لذلك نستطيع أن نجمل القول في اساليبهم وخصائصهما فنرى خطوطهما العريضة تكمن في :

١ — الاهتمام بالمضمون وبدلالة الالفاظ : فالسود — كما رأيناهم — اصحاب قضية حتى في علاقتهم مع المرأة •• هذه العلاقة التي كانت تذكرهم بواقعهم كلما حاولوا تجاوزه بشتى الوسائل •• والتي كانت تقف حجرة عثرة أمام اشباع عواطفهم • والشاعر منهم حين كان يريد أن يظهرها في قرارة نفسه ، كأنْ يبين حقيقة شعوره لا يحتاج للتأنق لفظي ليترجم احاسيسه الداخلية •• بل يترك لشعوره العنان في أن يملي عليه ما يشاء من الالفاظ المعبرة التي تحمل طابع المأساة التي يعيشونها • فالتأنق عندهم مرفوض لانه يذهب بحدة الشعور •• وحدة الشعور هو الطابع المميز للانسان المظلوم •• واهتمام السود بالمضمون الشعرى لم يفقد الفاظهم حيويتها وطابعها التأثيرى •• بل على العكس زاد من فاعليتها في نفس القارئ ، وزاد من قوة تأثيرها في ضميره لدرجة أنها كانت تتلبس شخصية

(١) النقد الادبي الحديث / ٣٦٢
(٢) المصدر نفسه / ٣٥٢
(٣) البيان العربي = بدوى طبانه / ٥٦

الشاعر في كل حالاته الشعورية، فهي هادئة من غير ضعف •• بسيطة من غير اسفاف حزينة طورا وشاكية طورا آخر، متأقلمة مع الجو رغما عنها في أكثر الأحيان، كما عند النصيب على وجه الخصوص لكنها لا تلبث أن يشتد ساعدها وتزداد قوة حتى الثورة، واندفاعها حتى البركان عند سحيم لرفضه الواقع المفروض عليه •• والذى لم يجد مجالا أرحب من الكلمة ليحملها رفضه لذاك الواقع •• وليحملها تحديه وتصديه فيقول :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم	ان الحياة من الممات قريب
فلقد تحدر من جبين فتاتكم	عرق على ظهر الفراش وطيب

وهي في كثير من الاحيان متذبذبة بين هذا وذاك وفقا للموضوع المطروق ••• ولكنها في شتى الاحوال لا تفقد معاني الاحتجاج والثورة في كل موضوع وعند كل مناسبة •• حتى وهم يبثون المرأة أشواقهم ••

٢ – السهولة والوضوح : وهاتان الصفتان ملازمتان للشعر " الأسود " بصورة عامة •• وهي نتيجة طبيعية للاهتمام بالمضمون أكثر من زخارف الشكل •• وحرصهم على ايصال المعنى المطلوب الى غيرهم طمعا في المشاركة فرض عليهم تمسكا بلغة سهلة بعيدة عن الغرابة وهذا ما وسم شعرهم بالروح " الشعبية " حتى جعلهم الدكتور عبده بدوى " القادة في هذا المجال وهو لم ير أن " المقصود بالشعبية هذا التبسيط الشديد لبعض مظاهر الحياة، أو الالتقاط السريع للصور من أجل تسلية الخاصة " بل رأى فيها تلك " الطبقة الكادحة التي كانت منغمسة في الحياة كأشد ما يكون الانغماس والتي كانت مضطرة الى أن تبذل الكثير من المجهود لتناول لقمة العيش ولقمة الحرية " (١) ••

وتتطور الألفاظ عند بعضهم لتتدرج، فتتحول عند عنترة لتأخذ شكلا مغايرا يتميز بالجزالة والقوة عندما تثار شجاعته وتثار انسانيته •• وعندما نصف ألفاظه في شعره الفروسي أو الوصفي أو الغزلي بالقوة لا نقصد بها الوحشي من الكلام " اذ ليس يعني الجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة، بل يعني الجزل أن يكون قويا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، والقوة عند الشعراء السود هي " صفة نفسية تنبع أول أمرها من نفس الأديب الذى يجب أن يكون نفسه متأثرا منفعلا اذا شاء من قرائه حماسته وانفعالا " (٢)

---

(١) الشعراء السود / ٢٧٦

(٢) الاسلوب / ١٩٤

وبشكل عام نجد الكلمة عند الشعراء السود سهلة طيعة مرنة •• تتلبس حالة الشاعر النفسية،كما تتلبس الموضوع المطروح من قبله على أكمل وجه •هذه المفردات — بصورة عامة — وفي الغزل على وجه الخصوص،رقيقة سهلة من غير سفاف •

٣ — الواقعية : الواقعية كمذهب من المذاهب الادبية كالكلاسيكية والرومانتيكية والوجودية تتجلى أهم مظاهرها في " ربط الأدب بالواقع ،أو بالغاية في صورة من صوره " • (١)

واذا كان كتاب الواقعية " لا يقتصرون على نقل الواقع ،بل ان لهم أصالتهم في الاختيار من هذا الواقع لغاية اجتماعية انسانية " (٢) فان الشعراء السود للظروف المختلفة التي أحاطت بوجودهم من ظروف حياتية وتاريخية ونفسية واجتماعية " تزعموا مدرسة الواقعية العربية ،وكانوا من روادها الاوائل " •• فلم يروا من الحياة الا جانبها المظلم بل لم يعيشوا حياتهم الا في ذلك الجانب المعتم،وان كان بعضهم قد حاول الخروج من هذه الزاوية الى مسرح الحياة المضيء ،ولكن،كانت تقابل محاولاته بالفشل والاحباط المعنوي أو المادي •• حتى أنها قد تصل الى التصفيات الجسدية لسبب ظاهر أو غيره •• والطموحات السياسية كانت — بالطبع — من الامور الممنوع مزاولتها والا فالقتل والتمثيل هو نهاية المطاف كما وجدنا عند أحمد الرشيد الغساني ،واذا ما خفف العقاب لاعتبارات متعددة — وهذا نادر — فقتل معنوي مسبوق بتهديد ووعيد ونهاية لا تحمد عقباها •• الامر الذي دفع الخليفة ابراهيم المهدي الى اعتزال الحياة السياسية بعد خلافة دامت سنتين الا خمسة وعشرين يوما ،أعقبها استتار واهدار دمه من قبل المأمون ثم سجن لمدة ستة أشهر •

وعلى صعيد الشعر والمقدرة الشعرية فقد كان قصارى ما يوجه من مدح للشاعر الأسود على اجادته فن من الفنون الشعرية قولهم : " انه أشعر أهل جلدته " وهذا الحكم على ما فيه من قساوة معنوية ونفسية على الشاعر •• وعلى ما فيه من تجن ومجافاة للواقع وللحقيقة ،فيه من الغرور والعنجهية لقائله ما يفسر لنا ذلك البعد الشاسع بين الحياتين " البيضاء والسوداء " •

---

(١) النقد الادبي الحديث / ٢٩٣
(٢) المصدر نفسه / ٢٩٢

وعلى الرغم من أن الشعراء السود تمكنوا من تصوير الواقع بكل جزئياتـــه ، وحددوا أبعاده ، ولم ينسوا بالطبع ذلك المكان الصغير الضيق الذى اقتطع لهـم .. وعلى الرغم من الصورة القاتمة التي رسموها لهذا الواقع من خلال نظرتهم ومن خــلال حياتهــم .. وعلى الرغم من أنهم لم يبتعدوا كثيرا عن ذاك الواقع بكل أبعاده بــل تحدثوا عنــه بشكل أو بآخر حديثا مفصلا أو موجزا ، سعيد أو مفرحا .. الا أننا لـم نر فيهــم ذاك الأديب الملتزم بالمعنى الاصطلاحــي الأدبي لهــذه الكلمــة ..واذا رأينا هذا الاديب الذى فهــم من الالتزام " وجوب مشاركته بالفكر والشعــور والفــن في قضايا قومه الوطنيــة والانسانيــة ، وفيما يعانون من آلام وما يبغون من آمال ". (١) فاننا نحس بأن التزامه كان عفويا لا يصــدر عن نظرة شاملة مدروســة تعطي الموقــف وضوحا وصلابــة وتدفــع نحو عمل مثمر وجــاد في سبيل التمرد .. وقصارى جهــــد الشاعر في هذا الميدان هي محاولة يائسة لتحقيق نوع من التوازن بينه وبين الشاعــر الأبيض الحــر .. وبينه وبين الانسان الأبيض عموما ، معتمدا اظهار بعض الصفــات الخلقيــة والقيم الجديدة التي يراهــا كفيلة بتحقيــق هذا التوازن .

لقد رأينا الشاعر الأسود مقهورا ومظلومــا، لكننا لم نره متنكبا طريقــا عمليــة للخلاص من ذاك القهر والظلم .. ولم نره ثائرا ثورة عاتية منظمة كالتي رأيناها فـــي ثورة الزنج رغم نتائجها .. وقصارى ثورتهـــم نراها عند سحيم ثورة كلامية مفزعة نالـــت ـــ رغــم كل شيء ـــ من مكانة السيد الأبيض الحر الذى رأى فيه سحيم عنوان الظلـــم المحيق به .. ولذلك لم يستطيعـوا ترجمة أحلامهم الى حقيقــة واقعــة ..

رغم كل هذا .. فقد اقترب هؤلاء من الــواقع، وعاشوه بكل تفاصيله وبكـــل كيانهم .. ووصفوا جزئياته البسيطة .. كل ذلك نقلوه بشعر كلماتـــه أقرب الـــى الحديث العادى .. فلم يعطوه غرابــة وتعقيدا .. ولم يشطحوا بخيالهم بعيـــدا ، ولم يعطوا كلماتهم ومعانيهم تكلفا ولا تعمقــا .

٤ ـــ الانشــاد والنطق والروايــة : جودة الانشاد كانت وما زالت من الصفات المحمودة التـــي يوصف بها شاعر .. بل ربما أكسبت شعره مزيدا من الاعجاب، وأضفت عليه رونقا وجمــالا. ولم يكن الشعراء السود ممن اكتسبوا فضل هذه المزية لسببين اساسيين لا حرفة لهـــم بهما، وهما اللون والعجمة وما ينتجهما من عيوب النطق واللثغة واللكنة .. ففضـــلا

---

(١) النقد الادبي الحديث / ٤٨٤

عن ندرة ما حدثتنا عنه كتب الادب من جودة الانشاد وحسن الالقاء بالنسبة لشاعر من هؤلاء ، فقد حدثتنا في الجانب الآخر عن رفض بعضهم أن يكون في مصاف الشاعر النديم للخلفاء •• كما حدثتنا عن امتناعهم عن الانشاد مباشرة أمام الجمع ، حين فضل نصيب أن ينشد نسوة جئن ليسمعن شعره من وراء ستر معتذرا عن ذلك بلونه الأسود الحائل •• وشعره الابيض المفلفل •• كما أشارت في جوانب أخرى الى عيوب النطق لدى كثير منهم ممن كان يعاني من لكنة أو عجمة أو لثغة •• فسحيم حين كان ينشد كان يقول : أحسنك والله ، ويريد أحسنت •• ثم يجيب الخليفة عمر حين سمع منه رغبته في تقديم الاسلام على الشيب في قصيدته اليائية المشهورة بقوله : ما سعرت ، يريد : ما شعرت • وحين يخرج الأمر عن الجد ويتجه نحو الهزل والعبث نرى أبا عطاء السندي موضع هذا الهزل والعبث بسبب اللغة واللكنة اللتين كان يعاني منهما • ولا نزال نذكر قصته الطائفة المضحكة مع حماد الراوية ولفظه لكلمات تظهر فيها لكنة واضحة بارزة فتثير الضحك ••

وان كانت المصادر قد ركزت على الجانب السلبي للشعراء السود ، ولا سيما ما يتعلق منه بانشادهم وعيوب النطق واللفظ عندهم • فقد صمتت عن الحديث عن رواة أشعارهم •• ولم تحدثنا عن واحد منهم كان له فيما بعد راوية حفظ شعره ونقله لمن بعده •• رغم أن العرب كانت تتميز بهذه الظاهرة حين كان لكل شاعر منهم راو يروي شعره • ومن كانت حياته عرضة لجملة من الظروف الصعبة وسط مجتمع له تقاليده وأعرافه الخاصة •• كان حتما سيتعرض لما تعرض له الشاعر الأسود •• فلم يرَ من يروي شعره رغم الاعتراف بشاعريته •••

الخيال والصورة عند السود :

الخيال عنصر من عناصر الأدب الرئيسية •• وهو عند الشايب "لازم في كثير من الاحيان للتعبير عن العاطفة • " (١) ثم يجعله مصدرا لجمال الاسلوب لا سيما الخيال المصور "الذي يدرك ما في المعاني من عمق ، وما يتصل بها من اسرار جميلة ادراكا حادا رائعا • " (٢) •• والخيال عند الأديب عموما عنصر مساعد لا بارز

---

(١) الاسلوب / ١٢

(٢) المصدر نفسه / ١٩٩

صورته الذهنية الى حيز الواقع والوجود . وهو الى ذلك صفة جمالية تضفي على الفكرة القابضة في رأس الأديب والشاعر هالة وبريقا يعطيهما الى جانب الجمال وضوحا وعلمية .. على أن الخيال يكتسب صفة علمية أكثر منها جمالية أو ذوقية عند الشاعر منه اذ يجعله " تكثيف للواقع وتحويله الى خلاصة مركزة . " (١) وهو التعريف الأكثر ملاءمة لخيال الشعراء السود ، الذين وجدناهم يحرصون على أن تكون أشعارهم وسيلة للوصول الى عرض وجهة نظرهم ومذهبهم ووضعهم الاجتماعي أكثر منها غاية لابراز صورة جميلة أعجب بها الشاعر فأحب تأطيرها باطار جميل بديع يضاهيها جمالا وروعة ، ويقدمها على طبق من فضة ، لذلك نشطحات الخيال عندهم قليلة ، لان مرارة الواقع كانت تشدهم أكثر .. وتقرب ألفاظهم من الحديث العادى ، وتنتزع صوره من مسرح الحياة ومن عالمها الحسي ..

وفي الأحوال كلها .. ومهما كان دور الخيال كبيرا أم صغيرا في الصورة الأدبية بشكل عام ، فهو مصدرها الأول والأخير ، " وهو وحده مجال الجمال "(٢) وتبقى أيضا الصورة هي " الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة " " فالتجربة الشعرية كلها الا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الاساسي . " (٣) .

وحتى تستطيع الصورة الفنية أن تأخذ دورها في نقل التجربة الشعرية بشكل مثير ومحرك وفعّال ، خاصة اذا كان انتماء الشاعر اجتماعيا في الدرجة الاولى كما هو حاصل عند الشعراء السود .. عندئذ .. يجب أن تتوفر في هذه الصورة عناصر معينة من لون وحركة وصوت يضفي عليها الشاعر من روحه واحساسه وعواطفه ما يخرجها أحسن اخراج — تقع من القلوب أفضل موقع .. وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نحدد بعض الملامح البارزة للصورة الفنية عند الشعراء السود كما يلي :

١ — الصورة عند الشاعر الاسود عموما أبعد ما تكون عن شطحات الخيال .. وأقرب ما تكون من الواقع الحسي الملموس .. فحياته كلها تدور حول تأمين سبيل معقول الى الحياة . وان اختلفت السبل عندهم فهي تعود لتقترب في كونها ترجمة لارادتهم في الحياة . لا سيما الحياة الكريمة العزيزة كما حصل عند عنترة ونصيب الأكبر وخفاف وابراهيم المهدى وغيرهم ... وهم لهذا السبب — لم تكن لديهم

---

(١) واقعية بلا ضفاف = روجيه جارودى / ١٦٨
(٢) النقد الادبي الحديث ٤٤١
(٣) المصدر نفسه / ٤٤٢

الظروف المساعدة لتأمل الوجود والكون والحياة .. بل كان أكثر ما يعنيهم وجودهم .. وما يتصل بهذا الوجود ..

٢ — واهتمامهم بالمحسوس من الوجود ، أضفى على صورهم مادية بحتة .. وهذه السمة أبرز ما تكون واضحة أشد الوضوح في الغزل المكشوف، لا سيما عند سحيم . فالصورة الغارقة في اللذة هي أول ما تطالعنا في شعره .. والأبيات التالية التي نحس برياح الجنس تعصف بها قوية، لهي الدليل الواضح على ذلك حين يقول في صورة مادية متكاملة الجوانب :

وهبتنا وسادانا الى عُلجانةٍ — وحقفٍ تهاداه الرياحُ تهاديا

توسدني كفا وتثني بمعصمٍ — عليَّ وتحوي رجلها من ورائيا

وهبت لنا ريحُ الشمال بقرَّةٍ — ولا ثوب الا بردها وردائيا

وأشهد عند الله أن قد رأيتها — وعشرين منها اصبعا من ورائيا

حتى في وصفهم لمحاسن المرأة .. فقد أعطونا وصفا حسيا لاعضائها .. ولم يهتموا بما في داخلها . وهذه صفة نستطيع أن نعتبرها عامة في وصف المحاسن في الشعر العربي في تلك الفترة .. حين أخذ العربي من الطبيعة ومظاهرها وجوه تشابه مع المرأة ثم عقد صورة التشبيه على ذلك .

٣ — تضافر الخيال مع عناصر الصوت والحركة واللون في الصورة نراه واضحا جليا عند شعراء هذه الفئة — والصورة التالية للنصيب ، والتي جسد فيها مشاعره في تركيبة حسية موحية " وهو يصور لنا فراق محبوبته دليل على ذلك" ..

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيل يغدى — بليلى العامرّيةِ أو يُراحُ

قطاةٌ غرَّها شركٌ فباتت — تجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ

لها فرخان قد تُركا بوكرٍ — فعشهما تصفقه الرياحُ

اذا سمعا هبوب الريح نصا — وقد أودى بها القدرُ المتاحُ

فلا في الليل نالت ما ترجى — ولا في الصبح كان لها براحُ

وهذه الصورة التفصيلية " لم يصنعها خيال الشاعر الا ليتحدث عن مشاعره وهو يتوقع فراق محبوبته ، وهي صورة حسية مشحونة بألوان من المشاعر . " (١)

---

(١) التفسير النفسي للأدب / ٩٢

وتعود العناصر السابقة من صوت وحركة ولون ، لتتضافر ثانية وتتآلف عند سحيم في صورته التي يبين فيهما جمال البنات الصبريات وغيرهن ... فيناغم بين حركة الأعناق الطويلة الجميلة ، وهبة الريح التي حركت ما أذكى تلك الروائح ، ثم لون الوجه الأبيض البراق الذى بدا مشرقا كالدينار .. وصوت الدر والياقوت الذى حلى الصدر فزاد في جماله واشراقه :

وجيد كجيد الريم ليس بعاطل ... من الدرّ والياقوت والشذر حاليا
كأنّ الثريا عُلِقت فوق نحرها ... وجمر غضى هبت له الريح ذاكيا

وتعانق الألوان وتمازجها مع بعضها البعض عند عنترة يكسب الصورة مزيدا من الجاذبية والجمال والوضوح .. فسواد أمه لم يمنعه من محبة بيض الظبا وسمر العوالي :

فان تك أمي غرابيّة ... من أبناء حام بها عبتني
فاني لطيف ببيض الظبا ... وسمر العوالي اذا جئتني

واستعمال اللونين الأبيض والأسود على ما يحملان من تناقض في اللون كثير عند السود بشكل عام . ولا سيما اذا وضعنا في الاعتبار رموزهما المتعددة .. فالاسود دليل القهر والحرمان والعبودية والذل .. والأبيض دليل حرية وبحبوحة عيش .. وكرامة وأصالة . والاهم من هذا وذاك انه اللون المحرم بالنسبة لهذه المجموعة فيما يدخل في نطاق تعاملهم مع المرأة .. وقد رأينا من قبل شوق الشاعر الأسود الى المرأة البيضاء ، والشهوة التي كانت تضطرم كيانه عندما كان يلقاها ... أو حتى حين يتحدث عنها ..

واذا كان هناك من صفة أساسية في صورة الشاعر الأسود .. فهي التحامها بتجربته الشعرية ومطابقتها لما احتملته هذه التجربة .. وظهورها بمظهر العفوية والبساطة من جهة .. والقهر والحرمان والشكوى من جهة أخرى . وهذه الصفة أكثر ما تكون جلاء ووضوحا في الغزل ، لا سيما الغزل العفيف الوجداني الذى يمثل أكثر ما يمثل تجربة عنترة .. وفي بعض تجربة النصيب .. ثم في التجربة الذاتية وما اعتورها من آلام . حيث رأوا في تصويرهم لواقعهم الذى يعيشونه نوعا من الخدمة الاجتماعية لطبقتهم المقهورة . ونوعا من الالتزام للدفاع عنها دفاعا يقارع الحجة بحجة . ثم في تصويرهم لتلك الحياة ووصفهم الدقيق لها جهد وعمل يكفي بنظرهم وعلى قدر استطاعتهم لاداء هذه الرسالة .

العاطفة عند السود :

اذا عرفت النقاد الأدب وقالوا : " بأنه الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة(١)
و " بأنه من الفنون الجميلة التي تعتمد على الجمال في التعبير عن عواطف الانسان وأفكاره وعن شخصيته الفنية . " (٢) .. كانت العاطفة احدى الركائز الاساسية لصناعة الشعر الذى هو فرع من فروع الأدب ، واحدى عناصره الرئيسية .

وقد يستدل بكلمة الانفعال على العاطفة أو بالأحرى على قوة أو شدة العاطفة فيقولون : " الانفعال قوة وجدانية تسيطر على النفس وتصحبها تغييرات جثمانية ظاهرة وأخرى عقلية باطنية . " (٣) .. وهذا الانفعال بسيطرته على النفس يشع على الأفكار والمخيلة فيتخللهما بحدق وروية حتى ينفذ الى الاعماق ليترك بينهما رابطا شعوريا غير مرئي يكسب الشكل والمضمون روعة وجاذبية أيا كان شكلهما هذه الروعة أو نوع تلك الجاذبية .

وقد قسم النقاد الانفعالات الأدبية الى قسمين رئيسيين : " قسم ايجابي أو اقدامي ، وقسم سلبي أو احجامي . " (٤) وليس ذاك وحسب بل يختلف الانفعال قوة وضعفا .. عمقا وسطحية .. ليس بين شاعر وآخر فقط وانما عند الشاعر نفسه حين ينتقل بين موضوع وآخر من موضوعات الشعر .

والتجربة بنوعيها عند السود .. ماذا أكسبتهم؟ .. وبأى طابع طبعت أشعارهم؟ .. بل كيف تنوعت عواطفهم وانفعالاتهم بين موضوع وآخر ..؟

لا شك أن الشاعر منهم كانت له انفعالاته الخاصة التي تزداد وتنقص لاعتبارات كثيرة .. ولكن .. بسبب توحد الظروف التي أحاطت بهم ، والتي خضعوا لها .. والتقارب بل لتشابك المشكلات التي اعترضت سيرتهم ، تقاربت انفعالاتهم وتشابهت دوافعهم ، وان اختلفت ردود فعلهم تبعا لشخصياتهم وميزات كل شخصية على حدة .

ومهما اختلف هذا الانفعال بين زيادة أو نقصان . وبين برودة أو غليان الا أنه

(١) الاسلوب / ١٦
(٢) المصدر نفسه / ٧٢
(٣) الاسلوب / ٧٢
(٤) المصدر نفسه / ٧٢

لا بد من وجوده في النص لاضفاء جو من السحر والجاذبية عليه .. وهي التي تساهم بالتالي في اجتذاب القارئ وتعاطفه مع النص ومع الكاتب .. " فليس بكاف أن تكون القصائد جميلة ، بل ينبغي أن يكون لها سحر فتجتذب شعور السامع أينما شاءت. " (١) وما أحسب أن جمال أشعار السود كامنة الا في الغاية التي صدحت من أجلها .. فالذى أطلق شعور عنترة العبد من عقاله والذى دفعه الى الاستبسال عواطف حب وهيام ربطت بين قلبه وقلب ابنة عمه عبلة .. والذى أطلق انفعال سحيم ولم يستطع كبح جماحه عواطف انتقام وتمرد .. والذى أرّث حقد سديف المتعصب لبني هاشم والقالي لبني أمية انفعالات تعصب وكره قديم ذى جذور .. والذى أبرز حب نصيب لهاته وزاد رغبته في فك أسر أكبر عدد ممكن من اسرته هي ولا شك عواطف انسانية سامية كانت تتوق الى المثل المتمثلة في المساواة ، وفي تكافؤ الفرص بين ابناء الانسانية جمعاء

ونحن اذ سرنا مع أشعار السود ، استطعنا أن نتدرج ببطء مع تدرج انفعالاتهم وعواطفهم في مختلف مراحل سيرها ، وفي مختلف موضوعاتها ، لا سيما الغزلية منها ، فنحس بقوتها وصدقها ، وعمقها وانسانيتها عند عنترة وعند نصيب الأكبر ، ونشعر بهيجانها وتحديها وعنادها مع سحيم عبد بني الحسحاس . ولن يغرب عن بالنا — ونحن نتحدث عن الطموحات السياسية والاجتماعية لبعضهم متمثلة في ابراهيم المهدى وأحمد الرشيد الغساني — بأس العاطفة ، وسبرها أغوار النفس . واذا ما لمحنا في بعض عواطفهم بريقا خادعا ، وكلاما معسولا ، تدفع اليه حاجة وناقة ، ظهر أبو دلامة بسخريته اللاذعة ، ومواقفه المضحكة ليعلن عن نفسه وليظهر عواطفه الى الحاكم .

وبصورة عامة ، استطاع الشاعر الأسود — من خلال عرضه لمشكلاته الرئيسية أن يشدنا بعنف لنقف في صفه ضد الظلم بكافة أشكاله ، كما استطاع من خلال عواطفه في امور الحب ، وانفعالاته في امور المجتمع ومشكلاته أن يجتذب اهتمامنا ويشد عواطفنا ، ويفتح عيوننا على الظلم الانساني ، لينطلق اللسان في محاولة من أجل الدفاع عن قضيتهم وادانة مجتمعهم .

---

(١) فن الشعر = هوراس / ١١٦



— الخاتمـــــة —

وضعت هذه الدراسة عن فئة من شعراء العربية الذين شكلوا — لظروف حياتهم الخاصة والمتميزة — مجموعة من الشعراء تستحق الدراسة .. هذه الدراسة التي فصلت فيها حياتهم ، وظروفهم المعيشية ، وأشعارهم ، لأخرج من خلال ذلك كله الى بعض النتائج التي تتلخص فيما يلي :

١ — ان الشعراء السود كانوا من الشعراء المقلين — لا سيما في الغزل الذي تناولته — وربما كانت الظروف التي عاشوها هي التي أمحلت وأجدبت قرائحهم ، أو أن تكون الظروف نفسها من وراء فقدان كثير من اشعارهم .. وقد يتساءل البعض ، ولماذا التركيز على اللون الغزلي طالما انهم مقلون فيه ؟ .. وجوابي أن العبرة ليست بالكثرة .. فكم من أبيات قليلة لسحيم مثلا كانت سببا في تحليق صاحبها في عالم الشعر ، كما كانت سببا في بناء مكانة شعرية له لا يضاهيها بناء آخر . فضلا عن الدور الذي لعبته المرأة ، لا سيما المرأة الحبيبة في حياة الشاعر الاسود ...

٢ — ان اشعارهم الغزلية غلب عليها طابعان اثنان :

آ — طابع التشاؤم واليأس لا سيما في الغزل الوجداني ..

ب — طابع العنف والتمرد ، لا سيما في الغزل الجنسي .

فكان الطابع الاول — فيما يبدو — من وراء تعاستهم وعدم شعورهم بالاستقرار .. كما كان الطابع الثاني من وراء النهاية المفجعة التي لاقاها بعض شعرائهم كسحيم والرشيد وغيرهم ، لكنه يبقى الطابع الاكثر اهمية . فحين لم يستطع الشاعر الاسود الدفاع عن نفسه وعن اسرته وعن حبه امام تقاليد المجتمع القبلي ، ثارت ثورته العاصفة التي اجتاحت القبيلة فهتكت اعراضها ، وشهرت بنسائها ، لا يردعها في ذلك رادع ، ولا الخوف من النهاية المفجعة .

٣ — لم يكن للمرأة الام والزوجة والاخت والخالة والعمة والجدة ، الدور الايجابي في حياة هذه الفئة من الشعراء ، بل ربما لعبت دورا سلبيا فلم ير عنترة في امه سوى صورة لشبح ترعرع في رسوم المنزل ، ولم ير أبو دلامة فيهما سوى أنها " عجوز محة مهزولة اللحيين ، تشبه الغول أو خيال القطرب " وقد تسبب هذا في تداعي بنيان الاسرة السوداء التي غاب عنها دور الام العربية المألوفة الحانية المرشدة ، وذلك لظروف خارجة عن ارادتها ..

٤ ـ أما دور المرأة الحبيبة فقد كان ثنائياً .. كان سلبياً في الوجه الاول منه حين لم تمكنهم من اقامة علاقة وطيدة ومستقرة معها ، متأثرة في ذلك بأوضاع الحياة التقليدية ، فلم تسعدهم في وصل ولم تفرح قلوبهم بقرب ، بل زادت في جفائها حتى تركت في نفوسهم جروحاً لم تندمل بل أثارت كوامن قلوبهم ، فبرز الجانب الايجابي حين كانت سبباً في الهامهم هذا الانتاج الشعرى الجميل الذى كشف عن جزء هام من حياتهم ..

٥ ـ لم ينفرد الشعراء السود خلال رحلتهم الشعرية الغزلية بأمور رئيسية عن غيرهم من الشعراء من كانوا صريحي النسب ..

آ ـ فقد بكوا الاطلال وغازلوا اهلها الراحلين ، ووصفوا رحلتهم ، كما وصفوا حبيباتهم وصفاً دقيقاً لكنه وصف قريب في كثير من جزئياته من وصف امرئ القيس والاعشى وجميل .. ولم تختلف نظرتهم للمرأة ولمقاييس جمالها عما كانت عليه عند اولئك ... (١)

ب ـ وفي الغزل الوجداني ، لم تكن تجربتهم عميقة ومستقرة ، كما كانت عند اصحاب المدرسة العذرية حين لم يمتلكوا مظاهر هذا الاستقرار واسبابه .. الا ان هذا لم يمنع من وجود تجربة غنية لهم في هذا المضمار ، كشفت عن اليأس القاتل والفشل الذريع الذى لاقوه في حياتهم لا سيما في ميدان الحب .

جـ ـ رغم ان سحيم كان الشاعر المتفرد في مدرسة الغزل الحسي للشعراء السود ، الا انه استطاع ان يبرز في هذا الميدان .. وان يقوى من اسس هذه المدرسة وان يترك صوراً جنسية بقدر ما تقترب في معانيها من العهر والفجور ، بقدر ما تقترب في اهدافها من الثورة والتمرد والعصيان . هؤلاء هم الشعراء السود .. وهذه هي آثارهم ... ، بعد ان حاولت جهدى اظهار ما قصدته من الكشف عن ثروة شعرية مهملة وعن شعراء فرضت عليهم الاقامة الجبرية لذنب لم يقترفوه . وربما فتحت ابواب المستقبل القريب الفرصة للكشف عن مزيد من هذه الثروة الضائعة بين صفحات الزمن .

---

(١) راجع الصفحات: ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ثم الجدول الذى عقدت فيه مقارنة بسيطة بين الشعراء في أوصافهم للمرأة .

فهـــــرس البحـــــــث

المقدمــــة

البــــاب الاول

فهرس المصادر والمراجع

١ـ الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة — مصطفى سويف ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة .

٢ ـ الأصمعيات — الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ـ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ،١٩٦٤ .

٣ ـ اسطورة الصحراء — أسعد علي ـ بيروت ـ التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر

٤ ـ الاسلوب — أحمد الشايب ـ الطبعة ٦ ـ مكتبة النهضة المصرية .

٥ ـ الأصول الفنية للأدب — عبد الحميد حسين .

٦ ـ الاعلام — خير الدين الزركلي طبعة ثانية .

٧ ـ الأغاني — لأبي الفرج الأصفهاني دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٧ ـ أشرف على مراجعته وطبعه عبد الله العلايلي ـ موسى سليمان ـ أحمد أبو سعد

٨ ـ البداية والنهاية — لأبي الفداء الحافظ بن الكثير الدمشقي طبعة ١ ـ ١٩٦٦ .

٩ ـ البيان والتبيين — لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

١٠ ـ البيان العربي — بدوي طبانة ـ الطبعة ٥ ،١٩٧٢ ، دار العودة بيروت .

١١ ـ بين الحبشة والعرب — عبدالمجيد عابدين ـ القاهرة ـ دار الفكر العربي

١٢ ـ بين الكتب والناس — عباس محمود العقاد ـ الطبعة ١ ،١٩٦٦ ، دار الكتاب العربي بيروت .

١٣ ـ تاج العروس — محب الدين أبي الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي ـ الطبعة الأولى المطبعة الخيرية بمصر .

١٤ ـ تاريخ بغداد — أحمد بن علي الخطيب البغدادي بمصر ،١٣٤١ هـ

١٥ ـ تاريخ الطبري — لأبي جعفر بن جرير الطبري ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

١٦ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام — شكري فيصل ـ مطبعة جامعة دمشق . ١٩٥٩ م .

١٧ ـ التفسير النفسي للأدب — عز الدين اسماعيل ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٣م القاهرة .

.../...

١٨ـ جمهرة اللغة — لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي الطبعة الأولى •

١٩ـ حديث الأربعاء — طه حسين ـ دار الكاتب العربي ،١٩٦٨ ـ القاهرة

٢٠ـ حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة • — يوسف خليف ـ القاهرة ـ دار الكاتب العربي ـ١٩٦٨

٢١ـ الحيوان — لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ • تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة ثانية القاهرة • مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨ •

٢٢ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب • — عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون • القاهرة ـ دار الكاتب العربي ـ ١٩٦٧ •

٢٣ـ دراسة الحب في الأدب العربي — مصطفى عبد الواحد ـ دار المعارف بمصر القاهرة •

٢٤ـ ديوان سحيم — تحقيق عبد العزيز ميمني ـ الدار القومية للطباعة والنشر ،١٩٦٥ •

٢٥ـ ديوان علي بن جبلة — جمع وتحقيق ذكي ذاكر العاني ـ مطبعة دار الساعة ١٩٧١ م ساعدت جامعة بغداد على نشره •

٢٦ـ ديوان عنترة • — محمد سعيد مولوي ـ تحقيق ـ المكتب الاسلامي •

٢٧ـ ديوان المعاني — لأبي هلال العسكري ـ مصر ١٣٥٢ هـ •

٢٨ـ رسائل الجاحظ — لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ ـ مجموعة الرسائل جمعها ونشرها : حسن السندوبي ـ الطبعة الأولى ـ المكتبة التجارية •

٢٩ـ زهر الآداب وثمر الألباب — لأبي اسحاق الحصري القيرواني ـ تفصيل وضبط وشرح زكي مبارك ـ المطبعة الرحمانية بمصر •

٣٠ـ الزهرة — لابن داوود الأصفهاني لأبي بكر محمد بن أبي سلمان ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٣٢ ـ ١٩٥١ •

٣١ـ سحيم عبد بني الحسحاس — محمد خير الحلواني ـ مكتبة دار الشرق بيروت

٣٢ـ سمط اللآلي • — عبد الله بن عبد العزيز البكري ـ تحقيق عبد العزيز ميمني ـ ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٦ م •

٣٣ـ الشعراء السود — عبدة بدوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٣ م • القاهرة •

•••/•••

٣٤ — شعر خفاف بن ندبة — نوري حمودي القيسي — جمع وتحقيق •

٣٥ — شعر عبدة بن الطبيب — يحيى الجبوري — جمع وتحقيق ساعدت جامعة بغداد على نشره ١٩٧١ م — ١٣٩١ هـ •

٣٦ — شعر علب بن جهلة — حسين عطوان — تحقيق وتقديم — القاهرة — دار المعارف بمصر — ١٩٧٢ —

٣٧ — شعر نصيب ابن رباح — داود سلوم جمع وتحقيق — مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٧ م •

٣٨ — ضحى الاسلام — أحمد أمين — ط ١٠ — بيروت — دار الكاتب العربي •

٣٩ — طبقات الشعراء — ابن المعتز — تحقيق عبد الستار أحمد فراج

٤٠ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحي — قرأه وشرحه محمد محمد شاكر — مطبعة المدني — القاهرة •

٤١ — طوق الحمامة — ابن حزم الأندلسي — تحقيق كامل الصيرفي — مقدمة ابراهيم الابياري مطبعة الاستقامة ١٩٦٤ •

٤٢ — العصر العباسي الأول — شوقي ضيف — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — القاهرة —

٤٣ — العقد الفريد — لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ضبط : أحمد أمين ، أمين الزين ، ابراهيم الابياري •

٤٤ — علم النفس التربوي — أحمد زكي صالح — الطبعة العاشرة — مكتبة النهضة المصرية •

٤٥ — علم النفس الفرويدي — كالفن س . هول — تعريب حام الكيال الطبعة الأولى — مطبعة العاني بغداد ، ١٩٦٨ ،

٤٦ — الغزل في العصر الجاهلي — أحمد محمد الحوفي — الطبعة الثانية مطبعة النهضة العربية — القاهرة •

٤٧ — الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية : — مجموعة من الأدباء •

٤٨ — فارس بني عبس

٤٩ — الفروسية في الشعر الجاهلي • — نوري حمودي القيسي — الطبعة الأولى مكتبة النهضة بغداد ، ١٩٦٤ •

٥٠ — فن الشعر — هوراس — ترجمة : لويس عوض بالمؤسسة المصرية للترجمة والتأليف والنشر •

٥١ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي • — شوقي ضيف — ط٧ القاهرة دار المعارف ١٩٦٩ •

(حسن عبد الله القرشي الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة •)

٠٠٠/٠٠٠

٥٢ ـ فوات الوفيات — محمد بن شاكر أحمد الكتبي ـ تحقيق وضبط محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية

٥٣ ـ القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشيرازى المطبعة الرحمانية بمصر •

٥٤ ـ الكامل في الأدب — لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ـ •

٥٥ ـ لسان العرب المحيط — ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت

٥٦ ـ المخصص — لأبي الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده ـ الطبعة الأولى • المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٣١٦ •

٥٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر • — لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودى الشافعي • دار الأندلس للطباعة والنشر : بيروت

٥٨ ـ المزهر — عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ـ شرح وضبط : محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد الهجاوى ، محمد أبو الفضل ابراهيم بالطبعة الأولى ، دار احياء الكتاب العربي •

٥٩ ـ مشكلة الانسان — زكريا ابراهيم ـ الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ١٩٥٩ ،

٦٠ ـ المشكلة الخلقية — زكريا ابراهيم ـ الطبعة الأولى ، دار مصر للطباعة ١٩٦٩ •

٦١ ـ مصارع العشاق — لأبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارئ • البغدادي ضبطه ووشى حواشيه : أحمد مرسي مشالي ، أحمد يوسف نجاتي ـ طبعة ١ ، مكتبة الانجلو مصرية •

٦٢ ـ الموشح — لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني تحقيق : علي محمد الهجاوى • القاهرة ـ دار نهضة مصر ١٩٦٥ •

٦٣ ـ معجم الأدباء — ياقوت الحموى تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، الطبعة الأخيرة •

٦٤ ـ معجم الشعراء — المرزباني تحقيق : عبد الستار أحمد فراج

٦٥ ـ مناهج النقد الأدبي — ديفد ديتش ترجمة : محمد يوسف نجم مراجعة الدكتور احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٧ •

٦٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـــرة — جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ـــ المؤسســـة المصريـــة العامـــة للتأليف والترجمـــة والنشـــر •

٦٧ ـــ النقد الأدبي الحديث — محمد غنيمي هلال ـــ دار العودة لبنان ١٩٧٣ ،

٦٨ ـــ نهاية الأرب في فنون الأدب — شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ـــ نسخة مصـــورة عن طبعة دار الكتب ـــ المؤسســـــة المصـــريـــة العـــامـــة للتأليف والترجمـــة والطباعـــة والنشـــر •

٦٩ ـــ نوادر المخطوطات — لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي ـــ تحقيـــق : عبد السلام محمد هـــارون الطبعة الأولـــى ١٩٥٤ •

٧٠ ـــ واقعيـــة بلا ضفـــاف — روجيه جارودى ـــ ترجمـــة : حليم طوسون ـــ مراجعة فؤاد حـــداد بدار الكاتب العربـــي ، القاهـــرة •

٧١ ـــ الـــوزراء والكتـــاب — لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيـــاري حققـــه ووضـــع فهارســـه : مصطفى السقا ، ابراهيم الابيـــارى ـــ عبد الحفيظ شلبـــي • الطبعة الأولـــى مطبعـــة الحلبـــي ـــ القاهـــرة •

٧٢ ـــ وفيـــات الأعيـــان — لأبـــي العباس شمس الدين أحمـــد بن محمـــد بن أبـــي بكـــر بن خلكـــان د •تحقيق احسان عباس ـــ دار صـــادر ـــ بـــيروت •

==================



م/م